مَنثُورَاتٌ من أدب العرب

تأليف

محمد الرابع الحسني الندوي

نائب الرئيس لرابطة الأدب الإسلامي العالمية

الرئيس العام لدار العلوم التابعة لندوة العلماء

لكهنؤ (الهند)

قدم له

الشيخ السيد أبو الحسن الندوي

ملتزم الطبع والنشر

مؤسسة الصحافة والنشر

ص.ب ٩٣، لكهنؤ، الهند

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

لفضيلة الأستاذ الجليل السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي
الأمين العام لندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

يَسرني ويُسعدني أن أقدم إلىٰ القراء وإلىٰ تلاميذ المدارس العربية في الهند وباكستان كتاب «منثورات» للأستاذ محمد الرابع الحسني.

إن هذا الكتاب حَلقة في سلسلةٍ كتب اللغة العربية والأدب العربي التي تكفَّلت ندوةُ العلماء بوَضعها ونشرِها وتقديمها إلىٰ شقيقاتها دورِ التعليم الإسلامي العربي، وهي سعيدة ومُغتبِطة بما قدَّمته من كتب ومجاميعَ تسدُّ عَوزاً كبيراً في اللغة العربية، وتَعرِضُ آدابها عرْضاً جميلاً صحيحاً يجدر بمكانة هذه اللغة وسعَتِها وجمالها، ومُصمِّمةٌ علىٰ إتمام هذه السلسلة وإكمالِ هذه المهمة بإذن الله.

لقد ظلَّتِ المدارس العربية ـ كما طاب لها أن تُسمي نفسَها ـ مقتصرةً في تدريس اللغة والأدب العربي على بضعةِ كتب في النثر والنظم، وأصبح الأدب العربي ـ الذي هو من أوسع الآداب في العالم وأجملِها ـ محصوراً في هذه الكتب الأربعةِ أو الخمسة، محصوراً في أسلوب واحد أو أسلوبين وضعت فيهما هذه الكتب، وهنالك ساء الظن بهذه اللغةِ وآدابها، وضاق

البيانُ وفسدت اللغة وضعف التصنيف ، وأصبحَ ما يكتُبه علماءُ الهند في العربية صورةً واحدة لا جِدَّة فيها ولا طرافة ، وهيكلاً عظمياً لا روح فيه ولا دم.

لقد كانتْ هذه المدارس غيرَ مُضطرة إلىٰ هذا الزُّهد أو القناعة ـ غير المحمودة ـ في تدريس الأدب العربي ، فقد كانت عندها وبمتناول يدها ثروةٌ زاخرة من الأدب العربي الصحيح ، وقد كانت في تصرُّفها مكتبةٌ واسعة في اللغة العربية والأدب العربي ألا وهي كُتُب الحديث والسيرةِ النبوية والمغازي والتاريخ الإسلامي وكتب كبار المؤلفين والمفكرين في الإسلام ، ولكن لم يخطرْ ببالها يوماً منَ الأيام أن تُفيد من هذه المكتبة العظيمة في ناحية الأدب واللغة ، وفي تعليم البيان العربي والبلاغة العربية ، وظلتْ مُتشبثةً بآثار الكُتَّاب والمؤلِّفين الذين نشؤوا في عصور الانحطاط الخُلُقي والجَدب الأدبي ، مُستبدلةً الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير ، وقد كان شأنُها في ذلك شأنُ شابٍّ غمْر وَرِث من أبيه ثروةً طائلة وكنزاً دفيناً في فناء بيته وهو يعيش في حياة فقرٍ وبُؤس ويُعاني الجوع والعُرْي.

لم تكنْ لهذه المدارس ـ لو فَهمتْ معنى اللغة والأدب فهماً صحيحاً ـ إلا أَن تَعصِرَ من هذه المكتبة الخصبة قطراتٍ تستعين بها في تدريس اللغة والأدب وإنشاءِ مَلَكةِ البيان ، وقد كانت هذه المكتبةُ السَّخية تستطيع ـ بقليل من الجهد وبقليلٍ من الذوق ـ أن تُعطي هذه المدارسَ ومنهاجَ التعليم كُتباً أدبية أفضل بكثير من الكُتب والمنتخبات التي وقع عليها الاختيار في القرن الماضي ، أفضلَ منها في الناحية الأدبية والفنية ، وفي الناحية الخُلُقية والدينية ، ولكنَّ هذه المكتبة بقيتْ مَطمورةً مختومةً لا يُفَضُّ خاتَمها ولا تُقلَّبَ إلا للاستفادة في الدين والتاريخ والبحوث العلمية ، وهي جَديرةٌ بذلك ، إلا أنَّ فيها فضْلاً يعود علىٰ الأدب واللغة ومادةً تكوِّن منها مختارات ومنثورات كثيرة تكون أساساً صالحاً لتدريس الأدب العربي في مناحيهِ المختلفةِ وأساليبه المتنوعة.

لقد انتشرتِ الإفادة من هذه المكتبة لتدريس الأدب في الأقطار العربية ، وكَثُرتِ المجاميعُ الأدبية والمنتَخبات في الأيام الأخيرة إلا أنَّ مؤلفيها اقتصروا ـ في غالب الأحيان ـ على اختيار النُّصوص الأدبية المجرَّدة من الرُّوح الديني والفكرة الدينية ، والاختيارُ ـ كما يعرفه المؤلفون ـ دائماً خاضعٌ لفِكرة المؤلف وعقيدتِه وتربيته ، والاختيار هو أحد التأليفَين أو صورةٌ نفسية للمؤلف ، لذلك جاءتْ هذه المنتخبات الأدبية التي أُلِّفتْ في الأقطار العربية لا تُرضي رجالَ التعليم الديني في الهند وباكستان الذين لا ينظرون إلىٰ اللغة العربية إلا كوسيلةٍ للرسوخ في الدين والتشبُّع بالروح الدينية ، واضطرَ المؤلفون في الهند والمشتغلون بتعليم الأدب العربي إلى استعراضِ المكتبة العربية بأنفسِهم ، والاقتباسِ منها من جديد ، حتى يُخرجوا منها بكتابٍ يجمع بين البيان العربي المُشرق ، والفكرةِ الإسلامية الصافية ، والروحِ الدينية القوية ، والمكتبةُ العربية تُسعِفُ حاجةَ كُلِّ طالب وتَبلُغ هِمَّةَ كُلِّ قاصد .

هذا مَنهجُ المؤلِّف في هذا الكتاب ، الذي أَسعدُ بتَقديمه وتِلك خُطَّتهُ فيه فإنه اقتبَس من كتب السيرة والتأريخ والأدب والدِّين قِطعاً نابضةً ، مُشرقة الدِّيباجة ، واضحةَ الفكرة ، إسلاميةَ النزعة ، تُغذِّي الملكةَ الأدبية والعاطفة الدينية في وقت واحد ، وتُمثِّل الأخلاق العربيةَ الفاضلة ، والحضارةَ الإسلامية المُثلى ، وقد جمعَ فيه المؤلف بين النَّثر البليغ ، والشعر الرقيق ، والأدبِ القديم ، والأدبِ الحديث ، فجاء كتابهُ مجموعةً جامعة تَغرِسُ في قلوب الناشئة حُبَّ هذه اللغة الكريمة التي يدرسونها ، وحبَّ الأخلاقِ والأغراض التي يَحمِلُها أدبها ، وحُبَّ المجتمع الذي عاشت فيه هذه اللغةُ وآدابها ، ويدفعهم إلى تقليد هذه الأساليب الأدبية السهلة الطبعية ، ويَرونَ أن كُلَّ ذلك ميسورٌ ، فنشأَ فيهمُ الثقةُ بنفوسهم وبدينهم ولُغتهم وقريحتهم .

أكتبُ هذا وأنا أعرِف صعوبة الاختيار وجُهدَ المؤلِّف لمثل هذه المجموعة على كثرةِ مصادرها ومراجعها ، لذلك أهنيء المؤلفَ على الجهد

الذي بذله والنجاح الذي أدركه ، وأهنِّىء ندوة العلماء ، على هذا العمل الصامت المنتِج ـ تأليف الكتب الدراسية ـ فإنه جزء مُهم في برنامجها الإصلاحي الضخم الذي قامت لأجله وأسَّست دارَ العلوم ، وأرجو أن تتسع دائرة الإفادة من جهودها في المستقبل. ومعَ اليومِ غدٌ.

أبو الحسن علي الحسني
دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ
٢٨ ـ ٧ ـ ١٣٧٧ هـ

ترجمة المؤلف

الأستاذ محمد الرابع بن رشيد أحمد بن خليل الدين الحسني من مواليد عام ١٩٢٩م ، ولد في أسرة الأشراف الحسنيين التي انتقل جدها إلىٰ الهند في القرن السادس الهجري ، و استوطنت في شمالي الهند ، ثم أقامت في رائي بريلي في عهد الإمبراطور المغولي أورنج زيب عالمكير (م ١١١٨هـ)، و قد انتقل إلى هذه المنطقة العالم الرباني الشيخ علم الله الحسني (م ١٠٩٦هـ) الذي كان من مسترشدي العالم الرباني الكبير السيد آدم البنوري (م ١٠٥٣هـ) من كبار خلفاء الإمام أحمد السرهندي ، و قد عرفت هذه المنطقة بعد إقامة الشيخ علم الله بدائرة الشاه علم الله الحسني، و في اللغة العامة باسم تكية الشاه علم الله، و التكية معناها الزاوية ، أو تكية كلان ، أي الزاوية الكبرىٰ ، لأنه توجد في رائي بريلي زاوية أخرىٰ تعرف بتكية الشيخ عبد الشكور و هي أيضاً واقعة علىٰ شاطئ نهر سائي ، مثل تكية الشاه علم الله ، و في كتب التاريخ أن الشاه علم الله كان يريد الهجرة إلىٰ الحجاز ، لكن الشيخ عبد الشكور الذي كان من الرجال المعروفين في رائي بريلي أبدىٰ رغبته بأن يقيم الشيخ في هذه المنطقة للدعوة و الإرشاد، و امتثالاً لرغبته استوطن الشيخ علم الله هذه القرية و بنىٰ مسجداً كبيراً مربعاً و منزلاً صغيراً علىٰ تل كبير .

أنجبت أسرته كبار الصالحين و الأئمة المجتهدين و المجاهدين، كانوا علىٰ صلة بمشايخ أسرة الإمام السرهندي ، و الإمام الشيخ ولي الله الدهلوي ، و تولوا مهمة الدعوة و الإصلاح و الإرشاد في عصورهم، كان في مقدمتهم الداعية المجاهد الكبير الإمام أحمد بن عرفان الشهيد الذي قام بحركة الإرشاد و التربية ثم الجهاد، و ذلك في القرن الثالث عشر الهجري في مناطق من شبه القارة الهندية ،

فكان لها تأثير واسع و مديد في أطراف الهند لا تزال آثارها ملموسة ، و كان في هــــذه الأسرة الشيخ ضياء النبي الحسني (م ١٣٢٦هـ) الذي استرشد به خلق كبير عن طريق الشيخ محمد أمين النصير آبادي الذي تاب علىٰ يده ألوف من سكان المدن المجاورة لرائي بريلي. و الشيخ ضياء النبي الحسني هو جد الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي من جهة الأم .

نشأ الشيخ محمد الرابع في بيت العلم و الصلاح، فقد كانت والدته السيدة أمــة العزيز شقيقة الشيخ أبي الحسن الندوي و بنت السيدة الصالحة خير النســاء والدة الشيخ أبي الحسن الندوي ، و هي بنت الشيخ ضياء النبي، فنال رعاية والدته الصالحة و جدته الصالحة ، ثم انتقل إلىٰ لكهنؤ بعد التعليم الابتدائي ، فنال رعاية خاليه الدكتور عبد العلي الحسني ، و الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ، و تتلمذ علىٰ خاله الشيخ أبي الحسن الحسني الندوي ، و قرأ عليه كتب الأدب و اللغة و العلوم الشرعية ، ثم التحق بندوة العلماء ، و استفاد من كبار الأساتذة في عصره ، و تخرج في عام ١٩٤٨م ، ثم عيّن مدرساً فيها ، كما استفاد من مشايخ عصره، في مقدمتهم الشيخ عبد القادر الرائيبُوري و الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي و كان منهم شيخ الإسلام الشيخ حسين أحمد المدني ، و لازم صحبة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي في رحلاته ، فسافر معه إلىٰ الحجاز في عام ١٩٥٠م ، و أقام أكثر من سنة قضاها في الدعــوة و كسب العلم من مناهل العلم و المعرفة فيه، ثم عاد إلىٰ لكهنؤ و عيّن أستاذاً مساعداً للأدب العربي في دار العلوم ندوة العلماء في عام ١٩٥٢م.

ألّف خلال تدريسه للأدب عــدة كتب في ضوء تجربته ، و رعايته لمنهج ندوة العلمـــــاء ، و من أشهر مؤلفاته [جزيرة العرب]، و هو كتاب يجمع بين الجغرافية و الأدب و التاريخ في مجلد واحد ، و كتاب [الأدب العربي بين عرض و نقد] ، و هو كتاب يجمع بين النصوص الأدبية المختارة ، و تاريخ الأدب و النقد ، و كتاب [منثورات من أدب العرب] هذا الذي أكتب له هذه الكلمة ، و هو كتاب يشتمل علىٰ النصوص الأدبية من العصر الإسلامي الأول إلى العصر الحديث ، علىٰ غرار كتاب [مختارات من أدب العرب] لسماحة الشيخ أبي الحسن الندوي ، و كتاب منثورات يأتي قبل كتاب مختارات ، فقد اختار المؤلف في هذا

الكتاب النصوص الأدبية نظماً و نثراً ، و راعى في اختياره السهولة ليدرس الكتاب قبل مختارات من أدب العرب باعتبار الارتقاء الأدبي للطلبة من كتاب قصص النبيين للأطفال خمسة أجزاء ، و القراءة الراشدة ثلاثة أجزاء ، فيأتي الكتاب حلقة من سلسلة هذه الكتب التي ألّفت لتدريس الأدب العربي في ندوة العلماء ، فنالت هذه الكتب القبول ، و أدرجت في مناهج دراسة الأدب في المدارس العربية في الهند . و [مختارات من شعر العرب] ، تدرس في المراحل العليا في دار العلوم ندوة العلماء لكنهؤ ، و كتاب [معلم الإنشاء] الذي نال قبولاً عاماً في المدارس العربية في تدريس التعبير ، و كتاب [الحج و مقامات الحج] ، و هو كتاب رائد للحجاج .

و أصدر الشيخ محمد الرابع في عام ١٩٥٩م صحيفة " الرائد " و هي صحيفة عربية أخبارية نصف شهرية ، لا تزال تصدر من ندوة العلماء ، بجانب مجلة البعث الإسلامي التي أصدرها الشيخ محمد الحسني بتعاون الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي ، و أثرىٰ الشيخ محمد الرابع الندوي هذه الصحيفة بمقالاته القيمة ، الأدبية و الإصلاحية .

و قام الشيخ محمد الرابع بنقل عدد من الكتب من اللغة الأردية إلىٰ العربية ككتاب " تجدد و سلوك " للشيخ عبد الباري الندوي ، و طبع الكتاب باسم : [بين التصوف و الحيلة] و كذلك كتاب في السيرة النبوية و كتاب فضائل الدعوة ، نقل أولهما من الإنجليزية و آخرهما من الأردية إلىٰ العربية ، كما ألف بالعربية [الأدب الإسلامي و صلته بالحياة]، و وسطية الأمة الإسلامية و منجزاتها ، و التربية و المجتمع .

و تقديراً لأعماله في خدمة اللغة العربية منحه رئيس جمهورية الهند الجائزة التقديرية في عام ١٩٨١م.

و قد زار فضيلته عدة بلدان أوربا و آسيا و إفريقيا مع الشيخ أبي الحسن الندوي .

عيّن مديراً لدار العلوم ندوة العلماء في عام ١٩٩٣م / ١٤١٤ﻫ بعد وفاة مديرها في ذلك الحين الشيخ محب الله الندوي اللاري . و رئيساً عاماً لندوة العلماء في عام ٢٠٠٠م بعد وفاة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي .

و هو نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، و عضو رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، و المركز الإسلامي للدراسات الإسلامية بأوكسفورد ، و رئيس المجمع العلمي الإسلامي بندوة العلماء بعد أن كان الأمين العام له خلال حياة سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي .

حفظه الله تعالىٰ و رعاه ، و أعانه لخدمة الإسلام و المسلمين ، بقلمه و بلسانه ، و دعوته .

واضح رشيد الندوي
عميد كلية اللغة العربية و آدابها
جامعة ندوة العلماء ، لكهنؤ

٢٠/١١/١٤٢٢هـ
٠٤/٠٢/٢٠٠٢م

كلمة الجامع

ـ ١ ـ

يمتازُ العصرُ الحديث من بين العصور المتقدِّمة من حيثُ ازدهار النّثر العربي وتقدُّمه وعمومِه ، فإنه لم يحصلْ في العصور السابقة كما حصل في هذا العصر ، وذلك يرجع إلى حاجة الناس إليه في حياتهم اليومية العلمية منها والعمَلية ، حتى لم يعد يَسعُ أحداً اليوم أن يُصبح ذا قيمةٍ أو تأثيرٍ عند المتعلِّمين مِن الناس ـ وهم كثيرون اليوم ـ بدون أن يَعرف قدراً لا بأس به من اللغة وأدبها ، ولم يَعُد يَحْسُن لعالمٍ أن يكون ضعيفاً في الأدب خصوصاً في النثر منه ، فلا يقدرُ على أن يُعبِّر عن خواطره وتجاربه وعِلمه ويُفضي بها إلى الناس بدقةٍ وإحسان ، وأصبح العالم يَزنُ الرجال ويَقيسُ مبالغَ عِلمهم بالكلام الذي يبوحون به ، واللغةِ التي يُحرِّرون فيها ، فاعتنىٰ رجال التعليم في البلاد العربية وفي كل بلد بتعليم الطالب اللغةَ والأدبَ مع العلوم اللازمة الأخرى سائرين في ذلك على المنهاج الأوفق والطريق الأجدىٰ للنشءِ الجديد .

لقد كان أسلافُنا القدامىٰ يَعتنون اعتناءً باللُّغة والأدب فيما يَعتنون به من تعليم العلوم النافعةِ الأخرى ، وقد سارتْ على هذا الخط كلُّ الأجيال في العصور الإسلامية الأولى ، وكانوا يُؤمِّلون بذلك منفعةً دينية في جانبٍ ومنفعةً أدبية في جانب آخر ، أما الأولى فلأنَّ فَهْمَ الكتاب والسنة وتفهُّم الروح التي تسري فيهما لا يُمكن بغير فهم اللغةِ وآدابها فهماً جيِّداً عميقاً ،

فبناءً على ذلك أَتقنوا اللغةَ والأدب وبرعوا فيهما ، واستطاعوا بذلك شرحَ القرآن والحديثِ شرحاً وافياً ، ولم يتركوا خللاً يستعصي سَدُّه على الأجيال المقبلة ، وأما الثانية؛ فلأنَّ هذه المصادر الإسلامية من الكتب والمؤلفاتِ النافعة التي لا نَزال نَنْهَلُ منها ولا نستغني عنها أبداً ، لم تُكتب ولم تُدوَّن إلا بمعونةِ هذه الملَكة الأدبية التي كان وهبها الله أولئك الأسلاف العلماء ، فلو لم يكونوا مُتقنين لِلُغة ، قادرين على البَيان المشرق ، والتعبير الجميل؛ لما استطاعوا أن يُورِّثونا هذا العِلْمَ الجَمَّ ، والمعارفَ الكثيرة التي تُعدُّ من كنوز الشريعة الإسلامية ، وخزائنِ التاريخ الإسلامي .

هذه هي الحقيقة الثابتة التي حملتِ المسلمين وتَحمِلُهم على صيانة اللغة العربية وآدابها ، ونشرها وخدمتها ، وقد قام أبناء دار العلوم لندوة العلماء بدورٍ محمود وعمل مَشكورٍ في هذا المجال ، ووضعوا كتباً جديدة تُعلِّم اللغة والأدبَ بدِقة وإحكام ، تزوِّد الطالب في نفس الوقت بمعارف إسلامية صافية رشيدة ، وتمكنتْ دار العلوم بجهود هؤلاء من الحصول على سِلسلةٍ من الكتب وُضعتْ في ضوء التجارب الحديث ، وِفقاً لنفسيات الدارسين والطلبة ، مُلائمةً لأذهانهم ومقدراتهم العلمية والعقلية ، وكان كتاب «مختارات من أدب العرب» للأستاذ الجليل السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي أول كتابٍ ظهوراً وأكثرَه نجاحاً في هذه السلسلة ، تَلَتْهُ كتب صغيرة أخرى له ولغيره ، من أجزاءِ «قصص النبيين» و«القراءة الراشدة» وغيرِهما من كتب في الأدب ، والقواعد ، والإنشاء ، ثم راجع الأستاذُ الجليل أخيراً كتابه «مختارات من أدب العرب» لإعداده للطبعة الثانية ، فأدخل فيه تحسيناتٍ وتعديلات قَيِّمة ، زادتِ الكتابَ روعة وقيمة .

وترك الأستاذُ الجليل مكاناً شاغراً لكتابٍ يكون أسهلَ منه ويكون من جنسه وتركيبِه فيملأُ الفراغ ويزيدُ في مقدار المدروسات الأدبية أيضاً ، فناطَ فضيلتهُ هذا العملَ لي وأوعزه إليَّ ، فامتثلتُ بالأمر ، وقُمت بالعمل وقَصرتهُ علىٰ الأخذ والاختيارِ من الكتب الموثوق بها قديماً ، وحديثاً ، تاركاً جميع تلك القِطع التي لا تَعرِضُ صورة جميلة من المجتمع الإسلامي ، أو التي لا تُقدِّم للقراء معنى أدبياً أو فائدة علمية أو ظاهرة

خُلقية ، ولا تنفع الدارس من الناحية الإنسانية النبيلة ، ولقيتُ في هذا السبيل عناءً لأنّ أغلب الكتب الأدبية إنما تشتملُ على قصص غرام ، وروايات غزل ، وأخبار فسوقٍ ، وأحوال مُجون ، ولا تصورُه تصويراً إنسانياً شريفاً ، وهي مثل كتب «ألف ليلة وليلة» ، و«نفحة اليمن» ، و«مقامات الحريري» مع ما يحتوي عليه كتاب الحريري من مادة لغوية جليلة.

ونجدُ كتباً أدبية ليست كهذه لكنها تَضمُّ الأشتات الأدبية القصيرة دون فَحص وتدقيق ، وقلَّما نعثرُ فيها على قطع أدبية نزيهة مبسوطة ، ومما لا شك فيه أن الفحص عن هذه القطع واقتباسها يحتاجان إلى دراساتٍ وجُهد شاق.

فعلى كُلِّ حال؛ قمتُ بهذا المجهود العلمي من اختيار القطع ورَصْفِها ، ولم أكتفِ بكتُب الأدب المعروفة ، بل جاوزتُها إلى كتب العلوم الأخرىٰ أيضاً من التاريخ والسِّير والدين وغيرها ، مُراعياً للأسلوب الأدبي والبيان المشرق في تلك القِطع المختارة ، ولقد وجدتُ خلالَها منثوراتٍ أدبيَّة مطمورة تحتاج إلى الإبراز والإظهار ، فأخذتُ منها ما كانت مركَّزة نابضةً بالحياة ، تُفيد من الناحية الأدبية أو الثقافية أو العلمية أو التاريخية ، وقد راعيتُ في جميع القِطَع أن تكونَ سهلةً ميسورة الفهم للطَّلبة والدارسين أولاً ، وأن تكون إسلاميةَ النزعة والفكرة أو بعيدة عن ضِدِّها ثانياً ، وأن تكون مُفيدةً نافعة من أية ناحية من النواحي الأدبية والثقافية والعلمية ثالثاً ، وأن تكونَ على كل حال مادة خفيفة للأدب بعباراتها وأساليبها وألفاظها ومعانيها.

وأخيراً أشكر أستاذي وخالي الجليل السيد أبا الحسن علياً الحسني الندوي على توجيهاته وإرشاداته أثناء العمل ، فقد حفزني لهذا العمل أولاً ، ثم أشرف على جُهدي ، فأصلَح فساده وأقام مُعوجَّه ، وزوَّدني بمعلومات نافعةٍ قيِّمة ثانياً ، كما أشكرُ صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عمران الندوي عميدَ دار العلوم ندوة العلماء على تشجيعه لي في هذه

المهمة وترحيبهِ بهذا العمل ترحيباً مشجعاً.

وأُقدِّم شكري لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أُويس الندوي رئيس قسم التفسير بندوة العلماء أيضاً بما أشار عليَّ ببعضِ القطع الرقيقة القوية، كما أشكر السادة زملائي وإخواني الذين ساعدوني في مختلف مراحل إعداد هذا الكتابِ ونشره، وأخص بالذكر منهم الأخ الأستاذ سعيداً الأعظميَّ الندوي المدرس في قسم اللغة العربية، فإن مساعدتهم كانت عاليةً وإعانتَهم مشكورة.

وأدعو الله أن يتقبل هذا العمل ونفع به، وله المِنة والهداية.

محمد الرابع الحسني
٩ ـ ربيع الأول ١٣٧٧ هـ
١٥ ـ ربيع الثاني ١٣٨٦ هـ

كلمة الجامع

ـ ٢ ـ

لقد كان تأليف كتاب «منثورات من أدب العرب» تحقيقاً لرغبة واضعي المناهج الدراسية في ندوة العلماء في أن تُوضَع مقرراتٌ دراسية وفقاً لفكرة ندوة العلماء للتربية والتعليم ، وهي الجَمعُ بين القديم الصالح والجديد النافع لتنشئةِ الجيلِ الإسلاميِ الناشىء على الإيمان والصلاح والعلم لما ينفعه في الدنيا والآخرة ليكونَ كُلُّ فرْدٍ من أفراده قوياً في شخصيته ، راسخاً في علمه ، حكيماً في عمله.

وأول موضوعٍ يَهُمُّ كلَّ فرد من أفراد كُلِّ مجتمع ، هي اللغة التي يخاطِب بها غيرَه ، ويُقدِّم بها ما عنده من رغبةٍ أو حال أو رأي ، ثم يتقدَّم الفرد فيحتاج من لُغته أن تكون سفيراً له عند الآخرين ، ومحامياً له في القضايا ، وذريعة له في طَلب حاجاته ، وقد تزدادُ أهميَّتها ، وتكبر مسؤوليتها ، فتقومَ بخدمة الدعوة حيناً ، وتقوم بخدمة الدِّعاية حيناً آخر.

لقد شعرَ بأهمية ذلك سماحةُ الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ، في أوائل اشتغاله بالتدريس في ندوة العلماء ، فرأى ضرورة وضعِ مقرراتٍ في اللغة والأدب ، تسدُّ حاجة الجيلِ الناشىء المسلم في ذلك ، وبدأ العمل بنفسه فعلاً في هذا المجال ، أولاً بتأليف سلسلة «قصص النبيين للأطفال» التزم فيها بالتسهيل واختيار الأسلوب الملائم مع نَفسية الطفلِ المسلم ، وأكمل السلسلة في عدة أجزاء. نالت القبول الواسع ، ثم ألَّف بجانبها

سلسلة أخرى لتعليم اللغة العربية على أحدث طريق فيه تفهيم وتوجيه وتسهيل في ثلاثة أجزاء ، ثم تدرج على هذه الفكرة ، فألَّف كتاباً في النصوص الأدبية العربية جعله في جزءين ، جمع فيهما النصوص المختارة للأدب الإسلامي النزيه الهادف ، واعتنى في اختيارها بالخصائص الفنية حتى تسد الحاجتين حاجةِ المعرفة الأدبية وحاجة التربية الإسلامية، وسماها «مختارات من أدب العرب»، وأمر تلاميذه المدرسين في ندوة العلماء بوضع مقررات أخرى أيضاً لمنهج ندوة العلماء الدراسي ، وكنتُ واحداً منهم ، وكان تأليف كتابٍ أسهلَ من «مختارت من أدب العرب» من مسؤوليتي ليكون بمثابة مَدخل إلى كتاب سماحة الشيخ الندوي «مختارات» وسمَّيته : «منثورات من أدب العرب» وأحمدُ الله تعالى وأشكره على أنَّ هذه الجهود نالتْ قبولاً واسعاً في المدارس والجامعات.

لقد كانتِ الطبعة الأولى من كتاب «منثورات» بدون هوامش تَشرحُ كلماتٍ عويصةً من النصوص ، ثم تعاونَ معي الأخ الكريم الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي فتناولَ الكلمات المهمة وعلَّق عليها وشرحها كما ساعدني في ذلك الأخ الدكتور السيد لقمان الأعظمي الندوي أيضاً ، فحمل الكتابُ من الهوامش ما تسدُّ الحاجة سدّاً لا بأس به ، واستمرت الطبعات تصدر مع تلك الهوامش ، ثم بدا لأحدِ مُدرِّسي ندوة العلماء وهو الأخ آفتاب عالم الأعظمي الندوي أن يعمل هوامش جديدة مع ذكر تراجم مختصرة لمن ورد أسماؤهم كأصحاب النصوص أو بمناسبات أخرى ، وقام بسعي مشكور نحو ذلك ، واطَّلعتُ عليه وجاء عمله حسناً مفيداً ، أشكره وأقدِّر لجهده جزاه الله تعالىٰ على ذلك وتقبَّل عمله ، وأضفنا هذه الهوامش في آخر الكتاب كملحق له [١]، ليُمكن لقارىء هذا الكتاب الرجوع إليها عند حاجته إليها ، والله

(١) جعلنا هذه الهوامش في مكانها في الصفحات المناسبة في هذه الطبعة وسيرد معك أيها القارى في ثنايا التعليقات كما هو الحال في ت (٣) ص ١٩ بعض الأحرف الهجائية الموضوعة بين قوسين. ويعني بها المعلق الميزان الصرفي لكل فعل وهي على الشكل التالي :

ـ تعني (س) ، باب : سمع يسمَع .

المسؤول أن يتـقَـبَّل عملنا جميعاً ، ويجعله لرضاه ، وصلى الله وسلم على خاتم المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

ندوة العلماء
٢٣/ جمادى الأولى سنة ١٤١١ هـ

مؤلف الكتاب
محمد الرابع الحسني الندوي

* * *

= ـ وتعني (ض) ، باب : ضرَب يضرِب .
ـ وتعني (ف) ، باب : فتَح يَفْتَح .
ـ وتعني (ك) ، باب : كثُر يكثُر .
ـ وتعني (ن) ، باب : نصرَ ينصُر .
وهذه كلها هي الميزان الصرفي الثلاثي المجرد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الاعتراف بالنعمة

الإمام مسلم في صحيحه[١]

إن ثلاثةً في بني إسرائيل أبرص[٢] ، وأقرع[٣] ، وأعمى ، فأراد اللهُ أن يبتليَهُم فبعثَ إليهم ملَكاً . فأتىٰ الأبرص فقال: أيُّ شيء أحبُّ إليك؟ قال :

(١) الإمام مسلم بن الحجاج القشيري (٢٠٤ ـ ٢٦١ هـ).
هو الإمام الكبير أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، طلب الحديث صغيراً ، ورحل إلىٰ العراق والحجاز والشام ومصر ، وتلقىٰ العلم من مشايخ البخاري وغيرهم ، ولما ورد البخاري نيسابور في آخر أمره ، لازمه مسلم واستفاد منه وحذا حذوه ، روىٰ عنه جماعة كبيرة من أئمة عصره وحفاظه ، مثل أبي حاتم الرازي والترمذي وغيرهم وقد أثنىٰ عليه كثيرٌ من العلماء ، حيث قال أحمد بن سلمة : سمعتُ أبا زرعة وأبا حاتم يُقدمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح علىٰ مشائخ عصرهما ، وقال إسحاق بن منصور لمسلم: «لن نعدم الخير ما أبقاك الله للمسلمين» ، وقال الحافظ أبو علي النيسابوري: «ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم في علم الحديث».
له كتب كثيرة في علم الحديث ، منها كتابه «الكبير علىٰ أسماء الرجال» ومنها «الجامع الكبير علىٰ الأبواب» وكتابه «العلل».
وكتابُ الصحيح يقع في الدرجة الثانية بعد صحيح البخاري ، يَحتوي علىٰ أربعة آلاف من الأحاديث الصحاح من غير المُكرر ، وقد سلك مسلم في صحيحه طريقة حكيمة ، جعلته سهل التناول ، فهو يجمع الأحاديث المتناسبة في مكان واحد ، ويذكر طرف الأحاديث التي ارتضاها ، ويُورد أسانيدَه المتعددة وألفاظه المختلفة مع إيجاز في العبارة وترتيب رائق ، وهو مرتَّب علىٰ أبواب الفقه ، غير أنه لم يذكر تراجم الأبواب مخافة ازدياد حجم الكتاب وتولىٰ الإمام النووي الترجمة عنه بعبارات تليق بها فأجاد كثيراً.

(٢) الذي أُصيب بمرض يُحدث في الجسم قشراً أبيض ، ويسبب للمريض حكاً مؤلماً.

(٣) من سقط شعر رأسه من علة.

لونٌ حَسنٌ ، وجِلْدٌ حَسنٌ ، **ويَذْهَبُ** عني الذي قد قذِرني[١] الناس ، قال: فمسحَه ، فذهب عنه قَذَرهُ ، وأُعطيَ لوناً حسناً وجلداً حسناً ، قال: **فأيُّ** المال أحبُّ إليك؟ قال: الإبل ، أو قال: البقر ، شك إسحَاق[٢] ، إلا أنَّ الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل ، وقال الآخر البقر ، قال فأُعطيَ ناقة عُشراء[٣] ، فقال: بارك الله لك فيها ، قال: فأتى الأقرعَ ، فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ فقال: شَعرٌ حسَن ، ويذهب عنِّي هذا الذي قد قَذرني الناسُ ، قال: فمسحه ، فذهب عنه ، قال: وأُعطي شَعراً حسناً ، قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: البقرُ ، فأعطي بقرةً حاملاً ، قال: بارك الله تعالىٰ فيها ، قال: فأتى الأعمى ، فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ قال: أَن يردَّ اللهُ إليَّ بصري ، فأُبصرَ به الناس ، قال: فمسَحه فردَّ الله إليه بصرَهُ قال: فأيُّ المالِ أحبُّ إليك؟ قال: الغَنمُ ، فأُعطي شاةً والِداً ، فأنتجَ هذان ووَلد هذا ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ولهذا وادٍ من البقر ولهذا وادٍ من الغنم ، قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته ، فقال: رجل مسكينٌ قد انقطعتْ[٤] بي الحِبال في سفري فلا بلاغ لي اليومَ إلا بالله ، ثم بكَ ، أسألُكَ بالذي أعطاكَ اللونَ الحسنَ والجِلدَ الحسَن والمالَ بعَيراً أتبلَّغُ[٥] عليه في سفري ، فقال: الحقوقُ كثيرة ، فقال له: كأني أعرفك! ألم تكن أبرصَ يقذرك الناس فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثتُ هذا المال كابراً[٦] عن كابر ، فقال: إن كنتَ كاذباً فصيَّرك اللهُ إلى ما كنتَ ، قال: وأتىٰ الأقرع في صورته فقال له مثل

---

(١) قذِر (س) قَذَراً وقذارة ، وقذُر قذَراً الشيءَ: كرهه واجتنبه واستقذره.

(٢) هو إسحاق بن عبد الله ، من رواة مسلم.

(٣) عُشَرَاءُ: هي من النوق التي مضىٰ لحملها عشرة أشهر أو ثمانية ج عُشَرَاوات وعِشَار ، أو هي كالنُّفساء من النساء.

(٤) الحبال: الأسباب ، ويقال: انقُطِع بالمسافر: إذا عجز عن سفره من نفقةٍ نفدت ، أو عَطبتْ راحلتهُ.

(٥) يقال: تبلغ بكذا المنزل ، أي تكلَّف البلوغ حتى بلغ.

(٦) الكابر: الكبير ، الجد ، ويقال: ورثته كابراً عن كابر أي ورثته عن آبائي وأجدادي كبيراً عن كبير في العز والشرف.

ما قال لهذا ، وردَّ عليه مثلَ ما رد على هذا ، فقال إن كنتَ كاذباً فصيَّرك اللهُ إلى ما كنت ، قال : وأتى الأعمى في صورته وهيئتهِ ، فقال : رجلٌ مسكينٌ وابنُ سبيلٍ انقطعتْ بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا باللهِ ثم بكَ ، أسألُك بالذي ردَّ عليك بصَرك شاةً أتبلَّغُ بها في سفري ، فقال : قد كنتُ أعمىٰ فردَّ الله إليَّ بصري ، فخُذ ما شئتَ ، ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك[1] اليومَ شيئاً أخذتَه للهِ ، فقال : أَمسِكْ مالَكَ ، فإنما ابتُليتم ، فقد رضي عنك ، وسَخِط على صاحبيك .

(مسلم ج٢)

(١) أي لا أشق عليك برد شيء تأخذه من مالي لله .

في سبيل الدين

الإمام البخاري في صحيحه[١]

عن عبد الله بن عباس قال: حدَّثني سلمان الفارسي ، قال: كنتُ رجلاً فارسياً من أهل أصبهان[٢] مِن أهل قريةٍ منها يقال لها «جيٌّ»[٣] ، وكان أبي

(١) الإمام البخاري (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، المعروف بالبخاري ، شيخ الحفاظ وإمام المحدثين في أهل زمانه ، والفائق علىٰ سائر أقرانه ، ألهمه الله حفظ الحديث وهو في الكُتَّاب ، ارتحل وتجول في البلاد لطلب الحديث حتىٰ حظي بالقسط الوافر منه ، وكان لا يُجارىٰ في حفظ الحديث سنداً ومتناً مع تمييز الصحيح من السقيم والأصيل من الموضوع ، قال ابن المديني: «لم ير البخاري مثل نفسه» ، وقال الترمذي: «لم أر بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من البخاري» ، وقال أحمد بن حماد: «البخاري فقيه هذه الأمة».

من مُؤلفاته: «التاريخ الكبير» و«الأوسط» و«الصغير» و«الأدب المفرد» و«كتاب الضعفاء» و«كتاب العلل» و«كتاب الكنىٰ».

وجامعه الصحيح ، أصحُّ كتاب بعد كتاب الله عز وجل ، خرجه من ستمئة ألف حديث ، ولم يُخرج فيه إلا ما صح عن رسول الله ﷺ بالسند المتصل ، الذي توفر في رجاله الضبط والعدالة ، وصرف في تدوينه ستة عشر عاماً ، ولما انتهىٰ من تدوينه ، عرضه علىٰ الإمام أحمد بن حنبل ويحيىٰ بن معين ، وعلي بن المديني فاستحسنوه ، وقال ابن حجر: عدد أحاديثه من المتون الموصولة سوىٰ المعلقات والمتابعات والموقوفات والمكررات ألفان وستمئة واثنان.

(٢) أصبَهان: (هي أصفهان) مدينة في إيران بين شيراز وطهران أنجبتْ عدداً كبيراً من الأدباء.

(٣) جَيٌّ: (بالفتح ثم التشديد) مدينة ناحية أصبهان (إيران) وتسمىٰ الآن عند العجم شهرستان ، وعند المحدثين المدنية ، وهي الآن كالخراب منفردة.

دُهقان[1] قريته ، وكنُت أحبَّ خلق الله إليه ، فلم يزل به حبُّه إياي حتى حبَسني في بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدتُ في المجوسية حتى كنت قَطِنَ[2] النار الذي يُوقدها ، لا يتركها تخبو ساعة ، قال: وكانت لأبي ضَيعةٌ[3] عظيمةٌ ، قال: فشُغل في بنيان له يوماً. قال لي: يا بني إني قد شغلت في هذا اليومِ عن ضيعتي ، فاذهب فاطَّلعها ، وأمرني فيها ببعض ما يريد ، فخرجت أريد ضيعته ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدري ما أمرُ الناس لحبس أبي إياي في بيته ، فلما مررت بهم وسمعتُ أصواتهم؛ دخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، قال: فلما رأيتُهم أعجبتني صلاتهم ورغبتُ في أمرهم وقلت: هذا والله خير من الذي نحن عليه ، فواللهِ ما تركتُهم حتى غربتِ الشمس وتركتُ ضيعة أبي لم آتها ، فقلتُ لهم: أين أَصْلُ هذا الدين؟ قالوا: بالشام. قال: ثم رجعتُ إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلتهُ عن عملِه كله ، فلما جئته قال: أي بُنيَّ أين كنت ، ألم أَكُنْ عَهِدتُ إليكَ ما عهدت؟ قال: قلت يا أبتِ مررتُ بناس يُصلُّون في كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله ما زلتُ عندهم حتى غربت الشمس ، قال: أي بني ليس في ذلك الدين خير ، دينُك ودين آبائك خيرٌ منه ، قلت: كلا والله. إنه لخير من ديننا ، قال: فخافني ، فجعل في رجلي قيداً ، ثم حبسني في بيته ، قال: وبعثتُ إلى النصارى ، فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركبٌ من الشام تجاراً من النصارى فأخبروني ، فأخبروني بقدوم تجار ، فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني ، قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم ألقيتُ الحديد من رجلي ، ثم خرجت معهم حتى قدمتُ الشام ، فلما قدمتُها قلتُ مَن أفضل أهلِ هذا الدين؟ قالوا: الأُسقف[4] في الكنيسة ، قال: فجئته ، فقلت: إني قد رغبتُ في هذا الدين ، وأحببتُ أكون معك

---

(١) دُِهقان: (بالكسر والضم) شيخ القرية العارف بالفلاحة ، يُلجأ إليه في معرفة ذلك.

(٢) قَطِن النار: خازن النار وخادمها ، يمنعها أن تخبو.

(٣) العقار والأرض المغلة.

(٤) الأُسْقُف: عالم النصارىٰ الذي يُقيم لهم أمرَ دينهم ج أَسَاقِف.

أخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك ، قال: ادخل ، فدخلت معه ، قال : فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويُرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه منها شيئاً اكتنزه لنفسه ، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبعَ قِلالٍ[1] من ذهب ، قال: وأبغضته بغضاً شديداً لِما رأيته يَصنع ، قال: ثم مات ، فاجتمعتْ إليه النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم: إنَّ هذا كان رجلاً يأمُرُهم بالصدقة ويُرغِّبهم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يُعطِ المساكين منها شيئاً ، قالوا: وما عِلْمُك بذلك؟ قلت: أنا أدلكم على كنزه ، قالوا: فدلَّنا عليه ، قال: فأريتُهم موضِعَه ، قال: فاستخرجوا منه سبعَ قِلالٍ مملوءة ذهباً ووَرِقاً ، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً ، قال: فصلبوه ثم رموه بالحجارة ، ثم جاؤوا برجلٍ آخر ، فجعلوه مكانه ، فما رأيت رجلاً يُصلِّي الخمس أرى أنه أفضل منه أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأبَ[2] ليلاً ونهاراً منه ، فأحببتهُ حباً لم أحبَّه من قبله ، فأقمتُ معه زماناً ، ثم حضرته الوفاة ، قلت له: يا فلان إني كنت معك فأحببتك حباً لم أحبه مَن قبلك وقد حضرتْكَ الوفاة ، فإلىٰ من تُوصي بي ، وما تأمرني؟ قال: أي بُني واللهِ ما أعلم أحداً اليوم على ما كنتُ عليه ، لقد هَلك الناس وبدَّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالمَوصل[3] وهو فلان ، وهو على ما كنتُ ، فالحقْ به ، قال: فلما مات وغُيِّب لَحِقتُ بصاحب الموصل ، فقلت له: يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أنْ ألحقَ بك ، وأخبرني أنك على أمرِهِ ، قال: فقال لي: أقم عندي ، قال: فأقمتُ عنده ، فوجدته خير رجل على أمرِ صاحبه ، فلم يلبثْ أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلاناً أوصىٰ بي إليك وأمرني باللُّحوق بك ، وقد حضَرك مِن أمر الله ما ترىٰ ، فإلى من تُوصي بي ، وما تأمرني؟ قال: أي بُنَيَّ واللهِ ما أعلم رجلاً على مثلِ

(١) القُلَّة: الجرة العظيمة ، وضدها الكوز الصغير ج قُلَل وقِلال.
(٢) أدْأَب: أكثر جِداً وتعباً.
(٣) المَوْصِل: مدينة في العراق وإحدىٰ قواعد بلاد الإسلام ، قليلة النظير ، ومحط رحال الركبان ، سميت بالموصل لأنها وصلت العراق والجزيرة أو بين دجلة والفرات.

ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين[١] ، وهو فلان ، فالحقْ به ، قال: فلما ماتَ وغُيِّبَ ، لحقتُ بصاحب نَصيبين ، فجئتُ فأخبرته بما جرى وما أمرني به صاحبي ، قال: فأقِمْ عندي ، فأقمت عنده ، فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل ، فوالله ما لبثَ أن نزلَ به الموت ، فلما حضر ، قلت له: يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من تُوصي بي وما تأمرني؟ قال : أي بُنَيَّ واللهِ ما أعلم أحداً بقي على أمرنا آمُرك أن تأتيه إلا رجلاً بعَمُّورية[٢] ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببتَ فائتِه ، فإنه على مثلِ أمرنا. قال: فلما مات وغُيِّب ، لحقتُ بصاحب عَمُّوريَّة وأخبرته خبري ، فقال: أقِمْ عندي ، فأقمتُ عند رجل على هَدْي أصحابِه وأمرِهم ، قال: وكنت أكتسبُ ، حتى كانت لي بَقراتٌ وغُنيمة ، قال: ثم نزل به أمرُ الله عز وجل ، فلما حضر ، قلتُ له: يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من تُوصي بي وما تأمرني؟ قال: أي بُنيَّ والله ما أعلمُ أصبحَ على ما كنا عليه أحدٌ من الناس آمرُك أن تأتيه ، ولكنَّه قد أظلَّ زمانُ نبيٍّ مبعوثٍ بدين إبراهيم يخرُجُ بأرض العرب مُهاجراً إلى أرضٍ بين حَرَّتين[٣] ، بينهما نخْلٌ به علاماتٌ لا تَخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كَتِفيه خاتمُ النبوة ، فإن استطعتَ أن تلحق بتلك البلاد فافعل ، قال: ثم ماتَ وغُيِّب فمكثتُ بعمُّورية ما شاء الله أن أمكث ، ثم مرَّ بي نفر من كلب[٤] تُجاراً ، فقلتُ لهم: تحملوني إلى أرض العرب وأُعطيكم بقراتي هذه وغُنيمتي هذه؟ قالوا: نعم. فأعطيتُهم إياها ،

---

(١) نَصِيبِينَ: مدينة من بلاد الجزيرة علىٰ جادة القوافل من الموصل إلىٰ الشام ، بينها وبين الموصل ستة أيام.

(٢) عَمُّورِيَّةُ: بلدة في بلاد الروم ، غزاها المعتصم ، وسميت بعمورية بنت الروم اليفز بن السام بن نوح ، لم يبق منها إلا أثر.

(٣) الحرة: كل أرض ذات حجارة سود محترقة من أثر احتراق بركاني.

(٤) كلب: حيّ من قُضاعة من القحطانية.

وحملوني ، حتى إذا قدموا بي وادي القرى[١] ؛ ظلموني فباعوني من رجل من يهود ، فكنتُ عنده ، ورأيت النخلَ ، ورجوت أن يكون البلد الذي وَصف لي صاحبي ولم يحقَّ لي في نفسي[٢] ، فبينا أنا عنده ، قدم عليه ابنُ عمٍّ له من المدينة من بني قُريظة[٣] ، فابتاعني ، فاحتملني إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا رأيتُها فعرفتُها بصفة صاحبي ، فأقمتُ بها وبعث اللهُ رسولهُ ﷺ فأقام بمكة ما أقام لا أسمعُ له بذكرٍ مع ما أنا فيه من شُغل الرِّقِّ ، ثم هاجر إلى المدينة فوالله إني لفي رأس عَذَقٍ[٤] لسيدي أعمل فيه بعضَ العمل وسيدي جالس؛ إذ أقبل ابنُ عمٍّ له إذ وقف عليه فقال: يا فلان قاتلَ اللهُ بني قَيلَة[٥] ، واللهِ إنهم الآن لمجتمعون بقُباء على رجلٍ قدم عليهم من مكة اليوم زعمَ أنه نَبيٌّ ، قال: فلما سمعتُها أخذتني العَرواء[٦] حتى ظننت أني ساقط على سيدي ، قال: ونزلتُ على العجلة فجعلتُ أقول لابن عمه ماذا تقول؟ قال فغضب سيدي ، فلكمني لكمةً شديدة وقال: مالك ولهذا؟ أقبلْ على عملك ، قال: قلت لا شيء ، إنما أردتُ أن أستَثبِتَه عما قال ، وقد كان شيء عندي قد جمعتهُ ، فلما أمسيت أخذتُه ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقُباء ، فدخلتُ عليه ، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح معك أصحابٌ لك غرباء ذَوو حاجةٍ وهذا شيء كان عندي للصدَقة فرأيتُكم أحقَّ به من غيركم ، قال: فقرَّبتهُ إليه ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: كلوا ، وأمسكَ يده هو فلم يأكل ، قال: فقلت في نفسي هذه واحدة ، ثم

---

(١) وادي القرىٰ: منخفض في الحجاز علىٰ الطريق التجارية القديمة إلىٰ الشام بين الإعلاء والمدينة.

(٢) لم يحق لي في نفسي: أي لم يتحقق عندي تماماً.

(٣) بنو قريظة: حي من اليهود الذين كانوا بالمدينة وهم إخوة بني النضير ، أُبيدوا لنقضهم عهد رسول الله ﷺ.

(٤) العَذَق: (بالفتح) النخلة بحملها ج أعذُق وعِذْق.

(٥) بنو قَيْلة: (بفتح القاف) يريد الأوس والخزرج قبيلتي الأنصار وقَيلة: هي اسم أمٍّ لهم قديمة ، وهي قيلة بنت كاهل.

(٦) العَرَواء: قوة الحُمىٰ ومسُّها في أول رعدتها.

انصرفتُ عنه ، فجمعت شيئاً ، وتحوَّل رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ثم جئته به ، فقلت : إني رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتُكَ بها ، فأكل رسول الله ﷺ منها ، وأمرَ أصحابه فأكلوا معه ، قال : فقلت في نفسي هاتان اثنتان ، قال : ثم جئتُ رسول الله ﷺ وهو ببَقيع الغَرْقدِ[١] قد تَبِعَ جنازةً من أصحابه[٢] عليه شَملتان وهو جالس في أصحابه ، فسلمتُ عليه ، ثم استدرتُ[٣] أنظر إلى ظهره هل أرىٰ الخاتم الذي وصف لي صاحبي ، فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرتهُ ، عرف أني أَستثبتُ في شيء وُصف لي ، قال : فألقى رِداءه عن ظهره ، فنظرتُ إلى الخاتم فعرفتُهُ ، فانكببتُ عليه أُقبِّله وأبكي ، فقال رسول الله ﷺ : تحوَّل ، فتحولتُ فقصصتُ عليه حديثي كما حدثتُك يا بن عباس .

(البخاري)

(وسيرة ابن هشام)

---

(١) بقيع الغرقد : مقبرة أهل المدينة المنورة وهي داخل المدينة متصلة بالمسجد النبوي .

(٢) هو كلثوم بن الهدم ، وكان أول من توفي من المسلمين بعد مقدمه ﷺ المدينة .

(٣) استدرت : استدار أي دار واستدار بمعنىٰ ، إذا طاف حول الشيء وعاد إلىٰ الموضع الذي ابتدأ منه .

جراءة الغِفاري[١]

لما بلغ أبا ذرٍّ مبعثُ النبي ﷺ بمكةَ ، قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي فاعلمْ لي عِلْمَ هذا الرجل الذي يَزعُمُ أنه يأتيه الخَبَرُ من السماء ، فاسمع من قوله ثم ائتني ، فانطلقَ الآخر حتى قدم مكة وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبي ذر فقال: رأيتهُ يأمر بمكارم الأخلاق وكلاماً ما هو بالشعر ، فقال: ما شفيتني فيما أردتُ ، فتزوَّد وحمل شَنَّة[٢] له فيها ماء ، حتى قدم مكة ، فأتى المسجدَ ، فالتمس النبيَّ ﷺ ولا يَعرفهُ ، وكرِه أن يسأل عنه حتى أدركه (يعني) الليلُ ، فاضطجع ، فرآه عليٌّ ، فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبَه عن شيءٍ حتى أصبح ، ثم احتمل قُريبته[٣] وزاده إلى المسجد فظلَّ ذلك اليوم ولا يرى النبيَّ ﷺ حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه فمرَّ به علي فقال ما آنَ[٤] للرجل أن يعلمَ منَزلهُ ، فأقامه ، فذهب به معه ، ولا يسأله واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان يوم الثالثة ، فعلَ مثل ذلك ، فأقامه عليٌّ معه ، ثم قال له: ألا تحدثني ما الذي أقدمك هذا البلد؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلتُ ، ففعل ، فأخبره ، فقال: فإنه حقٌّ وهو رسول الله ﷺ ، فإذا أصبحتُ فاتَّبعني ، فإني

---

(١) جراءَة: جَرُء (ك) جَرَاءَةَ وجُرْأة وجَرَة وجَرَائِيَة علىٰ الأمر: أقدم عليه وجسر.
(٢) الشَّنَّـة: القِربة الصغيرة ج شِنان.
(٣) القِرْبَة: وعاء يوضع فيه اللبن أو الماء ج قِرَب وقِرْبات وقِربات وقِرَبات.
(٤) آن يئين أيناً: حان وقرب.

إن رأيت شيئاً أخافُ عليك قمتُ كأني أُريق[١] الماءَ ، فإن مضيتُ فاتبعني حتى تدخل مدخلي ففعل ، فانطلق يَقفُوه[٢] حتى دخل على النبي ﷺ ، ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلمَ مكانه ، فقال له النبي ﷺ : «ارجعْ إلى قومك فأخبِرْهُم حتى يأتيَك أمري» ، فقال : والذي نفسي بيده لأصرخنَّ بها بين ظَهرانيهم[٣] ، فخرج حتى أتى المسجد ، فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وثار[٤] القومُ فضربوه ، حتى أضجعوه ، وأتى العباس فأكبَّ عليه ، فقال : وَيلَكُم[٥] ألستم تعلمون أنه من غفار[٦]؟ وأن طريق تجاركم إلى الشام عليهم؟ فأنقذَهُ منهم ، ثم عاد من الغدِ لمثلِها وثاروا إليه ، فضربوه ، فأكبَّ عليه العباسُ فأنقذَه.

(مسلم ج٢)

---

(١) إراقة الماء هنا كناية عن الاستنجاء.

(٢) يقفوه : قفاه (ن) قَفْواً وقُفُوّاً : تبعه.

(٣) ظهْرَانَيهم : بين ظَهْرَانَيهم وبين أَظْهُرِهم وبين ظَهْرَيهم في معنىً واحد ، ويقال : «هو نازل بين ظهرانيهم» أي وسطهم ، وفي معظمهم.

(٤) ثار (ن) ثَوراً وثَوَراناً : هاج وغضب غضباً شديداً.

(٥) ويْلَكم : الويل هو الهلاك وحلول الشر ، يُدعىٰ به لمن وقع في هَلَكَةٍ يستحقها ، فيقال : «ويلَهُ وويلٌ له» فالنصبُ علىٰ إضمار الفعل ، تقديره «ألزمكَ اللهُ ويلاً» ، والرفع علىٰ الابتداء.

(٦) غفَار : من كنانة ، وهي رَهط أبي ذر رضي الله عنه ، ومنها أبو رُهم صحابيّ شهد أحداً ، وبايع تحت الشجرة ، وكانت تسكن شمالي الحجاز.

بيني وبين بَني أبي

الحماسة(١)

يعاتبني في الدَّين قومي وإنما ... ديوني في أشياء تُكسِبُهم حمدا
أَسُدُّ به ما قد أَخلُّوا وضيَّعوا ... ثُغورَ حقوقٍ ما أطاقوا لها سَدا(٢)
وفي جَفنةٍ ما يُغلَقُ البابُ دونَها ... مُكلَّلةً لحماً مُدفَّقةً ثُرْدا(٣)

(١) ما زال الشعر في كل أمة جلاء الأذهان وصيقل الخواطر ، بحيث توفرت عليه الرغبات ، وبُعثت إليه الهمم ، وله فضل في اللغة العربية ، يبقىٰ به علىٰ مدىٰ الزمان ، فقد جمع فيه العرب كل لفظة ناصعة وكلمة رشيقة رائعة ، حتى عاد الشعر بمثابة خزانة النفائس وموضع كل جمال .
هذه القصيدة مقتبسة من كتاب «الحماسة» التي عدها جميع الأدباء أفضل كتاب مجموع من شعر العرب ، فإن الذي اختارها ودوَّنها ، هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الشاعر العبقري الخبير بالنقد (١٧٢ ـ ٢٣١ هـ) ، وقد اعتبره الأدباء والنقاد شاعراً بصيراً بمحاسن الكلام ، خبيراً بالنقد ومطلعاً بهذا الفن ، يقول الزركلي صاحب «الأعلام» : «كان فصيحاً حلو الكلام ، وأحد أمراء البيان ، في شعره قُوة وجزالة ، يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقاطع» ، ويقول بطرس البستاني في «أدباء العرب» : «هو شاعر عبقري ، يجاري أحياناً الطبقة الأولىٰ من الشعراء المولدين ، وقد أغنىٰ اللغة بمعان لم تعرف قبله» .
وقائل هذه القصيدة هو المقنَّع الكِندي ، المقنع لقب غلب عليه ، وإنما لُقب به لأنه كان أجمل الناس وجهاً ، وكان إذا حسر اللثام عن وجهه أصابته العين ، ويلحقه عَنَتٌ ومشقة ، وهو شاعر مقِل من شعراء الإسلام في عهد بني أمية ، كان له شرف ومروءة في عشيرته ، وكان سمح اليد بمالِهِ ، لا يرد سائلاً عن شيء .
(٢) ثغورَ حقوق : أي مواضع الحقوق ، والمراد هنا أنهم ضيعوا الحقوق نفسها .
(٣) مكللة : كَلَّل فلاناً : ألبسه الإكْلِيل . مكللة لحماً : أي لُحمان الجفنة مثل الأكاليل علىٰ رؤوسها .
=

وفـي فَـرَسٍ نَهْـدٍ عتيـقٍ جَعلتـهُ حِجاباً لبيتي ثم أَخدمتهُ عَبدا[١]

وإن الـذي بيني وبيـن بنـي أبـي وبيـن بنـي عمـي لمختلـفٌ جـدا

فـإن أكلـوا لحمـي وَفَـرْتُ لحـومهـم وإن هَـدموا مجدي بنيتُ لهم مجدا[٢]

وإن ضيعـوا غيبـي حفظـتُ غُيـوبهـم وإنْ هُـم هَوَوْا غَيِّي هَويتُ لهم رُشدا[٣]

وإن زَجـروا طيـراً بنَحْـسٍ تمـرُّ بـي زجـرتُ لهم طيراً تمرُّ بهم سَعدا[٤]

ولا أحمـلُ الحقـد القـديـم عليهـمُ وليـس رئيس القـوم مَـن يحمـلُ الحِقـدا

لهم جُلُّ مالي إن تتابعَ لي غِنىً وإن قـلَّ مـالـي لـم أكلفهـمُ رِفـدا

وإنـي لَعبْـدُ الضيـفِ مـا دام نـازلاً ومـا شِيمةٌ لي غَيرَها تُشبه العبدا[٥]

(ديوان «الحماسة» لأبي تمام باب الأدب)

= الثُرْد «بضم الثاء»: الثَّـرْد هو الهشم والكسر ، والثُرْد: ما هَشم من الخبز وبُلَّ بماء القدر وغيره.

(١) النَّهْد: الجسيم المشرف من الخيل.
جعلته حجاباً لبيتي: لم يُرد بذلك أن الفرَس يحجب بيتَه مِن نَظرِ ناظر ، وإنما يريد أنَّ الفرس نُصبَ عينيه وأكبرُ همه.

(٢) فإن أكلوا لحمي: أي إن اغتابوني ، وتطعّموا لحمي.
وَفَرْتُ لحومهم: أي أمسكتُ عنهم وتركتُ أعراضهم موفورة.

(٣) إنْ هَوَوْا غَيِّي: أي إن أحبوا لي الغواية والضلالة.

(٤) زجروا طيراً: الزجر للطير وغيرها ، التيمُّن بِسُنوحها والتشاؤم ببُروحها ، السُّنُوح: مرور الطير بجانب اليمين. ويقابله البُرُوحُ: وهو المرور بجانب اليسار.
سَعداً: (منصوب على أنه صفة لـ «طيراً»): اليُمن ، ونقيض النحس.

(٥) غيرَها: انتصب «غير» على أنه مستثنى مقدم وذاك لأنه لما حال بين الصفة والموصوف وهما «شيمة» و«تشبه» وتقدم على الوصف صار كأنه تقدم على الموصوف لأن الصفة والموصوف بمنزلة شيء واحد.

عمر في الحكم

الدميري[١].

لما ثَـقُل أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، وأراد الناس منه أن يستَخلف ، فاستخلفَ عمر رضي الله عنه ، فقال الناس له: استخلفتَ علينا[٢] فَظّاً غليظاً ، فماذا تقول لربك؟ فقال: أقول استخلفتُ على خلقك خيرَ خلقك.

وهابَه الناسُ هيبةً عظيمة ، حتى تركوا الجلوس بالأفنية ، فلما بلغه رضي الله عنه هيبةُ الناس له؛ جمعهم ثم قام على المنبر حيث كان أبو بكر رضي الله عنه يَضعُ قدميه ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي ﷺ ثم قال: بلغني أنَّ الناس قد هابوا شِدَّتي وخافوا غِلظتي ، وقالوا: قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، ثم اشتدَّ علينا

---

(١) كمال الدين الدَّميري «٧٤٢ ـ ٨٠٨ هـ» باحث أديب من فقهاء الشافعية من أهل دميرة «بمصر» ، ولد ونشأ وتوفي بالقاهرة ، أقبل إلىٰ العلم وأفتىٰ ودرّس ، كانت له في الأزهر حلقة خاصة ، وكان يتكسَّب بالخياطة ، ثم توجه إلىٰ العلم والدراسة ، وعكف عليه ، حتى برع في الأدب والبحث واللغة ، وقد اعتنىٰ بالفقه ، حتى عُدَّ من مشاهير فقهاء الشافعية ، ومن مصنفاته الأخرىٰ «الديباجة» و«النجم الوهاج» و«أرجوزة في الفقه».

وكتابه «حياة الحيوان» معروف في فنه ، جمع فيه المصنف ما بين أحكام شرعية ، وأخبار نبوية ، ومواعظ نافعة ، وفوائد عظيمة ، وأمثال سائرة ، وأبيات نادرة ، وأسرار غريبة ، مع ذلك يجمع الكتاب بين الغث والسمين ، لأن المصنِّف فاضل محقق في العلوم الدينية ، لكنه لم يبلغ مبلغ الجاحظ وأمثاله في هذا الفن ، علىٰ أن الكتاب يحمل قيمة أدبية لا يُستهان بها ، كما ستلاحظون ذلك من خلال النص الذي بين أيديكم.

(٢) الفَظّ: رجل فظ: ذو فظاظة جافٍ غليظ ، في منطقه غِلَظٌ وخشونة.

وأبو بكر رضي الله تعالى عنه والِينا دونه ، فكيف الآن وقد صارتِ الأمور إليه؟ ولعمري من قال ذلك فقد صدق ، كنتُ مع رسول الله ﷺ فكنتُ عَبدَه وخادمه ، حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راض والحمد لله ، وأنا أسعد الناس بذلك ، ثم ولي أمرَ الناسِ أبو بكر رضي الله عنه فكنتُ خادمه وعونه ، أخلِط شدتي بلِينه ، فأكون سيفاً مسلولاً حتى يُغمدني[١] أو يدعني ، فما زلتُ معه كذلك حتى قبَضه الله تعالى وهو عني راض ، والحمد لله وأنا أسعدُ الناس بذلك ، ثم إني وَليتُ أمورَكم ، اعلموا أنَّ تلك الشدة قد تضاعفتْ ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدِّي على المسلمين ، وأما أهلُ السلامة والدين والقصد ، فأنا أَلْيَنُ لهم من بعضهم لبعض ، ولستُ أدعُ أحداً يظلم أحداً ويعتَدي عليه حتى أضعَ خدَّه على الأرض وأضعَ قدمي على الخدِّ الآخر حتى يُذعن[٢] للحق ، ولكم عليَّ أيها الناس ألاَّ أُخبئَ عنكم شيئاً من خَراجكم ، وإذا وقع عندي ألاَّ يخرج إلا بحقِّه ، ولكم عليَّ ألاَّ أُلقيكم في المهالك ، وإذا غِبتم في البُعوث[٣] فأنا أبو العيال حتى ترجعوا ، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم . قال سعيد بن المسيب: وفَّى واللهِ عمرُ ، زاد في الشدةِ في مواضعها واللينِ في مواضعه ، وكان رضي الله عنه أبا العيال حتى كان يمشي إلى المُغِيبات[٤] ، أي التي غابت عنهن أزواجهنَّ ، ويقول: أَلَكُنَّ حاجةٌ حتى أشتري لكن؟ فإنِّي أكره أن تُخدعن في البيع والشراء ، فيُرسلن بجواريهن معه فيدخلُ في السوق ووراءه من جواري النساء وغلمانهن ما لا يُحصى ، فيشتري لهن حوائجهنَّ ، ومن كان ليس عندها شيءٌ اشترى لها من عنده ، رضي اللهُ عنه.

(«حياة الحيوان» للدميري ، ج١)

---

(١) يُغمده: غمد السيف (ض) غَمْداً: أدخله في غمده.
(٢) يُذعن للحق: يخضع له ويطيع.
(٣) البُعوث: البَعْث: الجيش ج: بعوث.
(٤) المُغِيبات: أغابتِ المرأة: إذ غاب عنها زوجها فهي مُغِيبة.

أصحابُ الفيل

ابن هشام[١]

فلما نزل أَبرهةُ[٢] بالمُغَمَّس[٣] بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن

---

(١) ابن هشام (٢١٣ هـ).
هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المعافري ، المتقدم في علم النحو والنسب ، البصري المصري ، أصله من البصرة ، وبها ولد ، وفيها درج ونشأ ، ثم رحل إلىٰ مصر ، والتقى بالإمام الشافعي ، وتناشدا من أشعار العرب الشيء الكثير ، صنف ابنُ هشام ـ سوى تهذيبه سيرة ابن اسحاق ـ كتاباً في حِمير وملوكها ، و«التيجان» ، قال ابن خلكان في «وفيات الأعيان»: «وابن هشام هذا هو الذي جمع سيرة الرسول ﷺ من المغازي والسير لابن إسحاق وهذبها ولخصها» ، وقال السيوطي في «بغية الوعاة»: عبد الملك بن هشام البصري النحوي نزيل مصر مُهذِّب السيرة النبوية ، سمعها من زياد البكائي صاحب ابن إسحاق ونقَّحها وحذف من أشعارها جملة» ، ويقول عنه السُّهيلي في كتابه «الروض الأنف»: «إنه مشهور بحمل العلم ، مُتقدم في علم النسب والنحو».
و«سيرة ابن هشام» هي أقدم أثر وصل إلىٰ أيدينا عن آثار علماء الإسلام في هذا الفن الإسلامي الجليل ، وهو كتاب قيم جليل ، يُعد من أمهات الكتب التي كانت ولا تزال مرجعاً لتاريخ حياة الرسول ﷺ ، علىٰ أنه كتاب أدبي أثير ، يجد فيه القارىء متعة البيان ونزهة الكلام الجميل ، والأشعارُ الواردةِ في ثنايا الكلام تزيد من قيمة الكتاب الأدبية والفنية ، ولذلك لَقيتْ من نباهة الذكر ما لم يَلقه كتاب آخر من كتب السيرة ، كما نالتْ من عناية العلماء بشرح حوادثها وأبياتها والتعليق علىٰ أحاديثها ، وتخريجها ، وضبط كلماتها الشيء الكثير.

(٢) أبرهة: هو أبرهة الأشرم ملك اليمن الحبشي ، سُمي الأشرم لمَّا هُشم أنفه.

(٣) المُغَمَّس: موضع قرب مكة في طريق الطائف ، مات فيه أبو رغال ، وقبرهُ يُرجم ، لأنه كان دليل صاحب الفيل.

مقصود[١] على خيلٍ له ، حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموال تِهامة[٢] من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مئتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ـ وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ـ فهمَّت قريشٌ وكِنانة[٣] وهُذيل[٤] ومَن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنه لا طاقةَ لهم به ، فتركوا ذلك ، وبعثَ أبرهة حُناطة الحِميري إلىٰ مكة وقال له: سَلْ عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له: إنَّ الملك يقول: إني لم آتِ لحربٍ ، فلا حاجة لي بدمائكم ، فإن هو لم يُرد حربي فائتني به ، فلما دخل حُناطة مكة ، سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له: عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه ، فقال له ما أمره به أبرهة ، فقال له عبد المطلب: واللهِ ما نُريد حربَه ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيتُ الله الحرام وبيتُ خليله إبراهيم عليه السلام ـ أو كما قال ـ فإن يَمنعه منه فهو حَرَمُه وبيته ، وإن يُخلِّ بينَه وبينه فواللهِ ما عندنا دَفعٌ عنه ، فقال له حناطة: فانطلقْ معي إليه فإنه قد أمرني أن آتيه بكَ ، فانطلقَ معه عبدُ المطلب ومعه بعضُ بنيه ، حتى أتى العسكر ، فسأل عن ذي نفرٍ ـ وكان له صديقاً ـ حتى دخل عليه وهو في محبسه ، فقال له: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نَزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناءُ رجل أسير بيدي ملك يَنتظر أن يقتله غُدواً أو عشياً؟ ما عندي غَناء في شيء مما نزل بك ، إلا أن أنيساً سائسَ الفيل صديقٌ لي فأُرسل إليه وأُوصيه بك وأُعظِّم عليه حقَّك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفعَ لك عنده بخير إنْ قدر ذلك ، فقال: حسبي ، فبعثَ ذو نفر إلى أنيس فقال له: إن عبد المطلب

---

(١) الأسود بن مقصود: هو الأسود بن مقصود بن الحارث بن مُنبه ، كان النجاشي قد بعثه مع الفِيلة والجيش ، وكانت عدة الفيلة ثلاثة عشر فيلاً. فهلكت كُلُّها إلا فيل النجاشي ، وكان يسمىٰ محموداً.

(٢) تِهَامة: في جزيرة العرب وسميت تِهامة لشدة حرها وركود ريحها.

(٣) كِنَانة: من كلب من قُضاعة ، جدٌّ جاهلي ، بنوه قبيلة ضخمة ، يقال لها «كِنانة عذرة» منهم بنو عدي.

(٤) هُذَيل: جدٌّ جاهلي ، بنوه قبيلة كبيرة ، لهم منازل بين مكة والمدينة ، وكانوا أهل عدد وعُدة ومَنَعة ، اشتهر منهم كثيرون في الجاهلية والإسلام.

سيدُ قريش وصاحبُ عين مكة يُطعم الناس في السَّهل[١] والوحوشَ في رؤوس الجبال ، وقد أصابَ له الملك مئتي بعير ، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت، قال: أفعلُ، فكلَّم أنيس أبرهةَ فقال له: أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عَين مكة ، وهو الذي يُطعم الناس بالسهلِ ، والوحوشَ في رؤوس الجبال ، فائـذَنْ له عليك فلْيكُلِّمك في حاجته ، فأذِن له أبرهة ، قال: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجمَلهم ، فلما رآه أبرهةُ ، أجلَّه وأكرمه عن أن يُجلسه تحته وكره أن تَراه الحبشةُ يُجلسه معه على سرير مُلكه، فنزل أبرهةُ عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه ، ثم قال لترجمانه: قل له حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان ، فقال: حاجتي أن يَردَّ عليَّ الملك مئتي بعيرٍ أصابها لي ، فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه قل له: لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتُك ثم قد زهدتُ[٢] فيك حين كلَّمتني ، أتُكلِّمني في مئتي بعيرٍ أصبتُها لك، وتترُك بيتاً وهو دينُك ودين آبائك قد جئتُ لأهدمه لا تكلِّمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه ، فقال: ما كان يمتنع مني، قال : أنتَ وذلك ، فردَّ علىٰ عبدِ المطلب إبلهُ.

فلما انصرفوا عنه ، انصرف عبدُ المطلب إلى قريش ، فأخبرهم الخبرَ ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرُّز[٣] في رؤوس الجبال ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحَلْقةِ باب الكعبة وقام معه نفرٌ من قريش يدعون الله ويَستَنصرونه على أبرهةَ وجُنده.

وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَفِ[٤] الجبال يتحرَّزون فيها مما أبرهةُ فاعل ، فلما أصبحَ أبرهة تهيَّأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبأ جيشَه ،

---

(١) السَّهل: الأرض اللينة المنبسطة.
(٢) زهدتُ فيك: أي قلَّت رغبتي فيك ، الـزُّهد والـزَّهادة (س) ضد الرغبة والحرص علىٰ الشيء.
(٣) التحرز: تَحرَّزَ: جعل نفسه في موضع حصين مأمون.
(٤) شَعَفُ الجبال: الشَّعَفُ: رأس الجبل وأعلاه ج: شُعوف.

وكان اسمُ الفيل محموداً ، فلما وَجَّهوا الفيل إلى مكة أقبلَ نُفيل بن حبيب[١] حتى قام إلى جنب الفيل ، ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك محمود وارجع راشداً من حيث أتيت ، فإنك في بلد الله الحرام وأرسلَ أذنه ، فبركَ[٢] الفيل .

وخرج نُفيل بن حبيب يشتدُّ حتى أصعد في الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم ، فأبى ، فضربوا رأسه بالطَّبْرَزين[٣] ليقوم ، فأبى ، فأدخلوا محاجِنَ[٤] لهم في مراقِّه[٥] فبزَغوه[٦] بها ليقوم ، فأبى ، فوجَّهوه راجعاً إلى اليمن ، فقام يهرول[٧] ، ووجَّهوه إلى الشام ، ففعل مثل ذلك ، ووجَّهوه إلى المشرق ، ففعل مثل ذلك ، ووجَّهوه إلى مكة ، فبرك ، وأرسل اللهُ عليهم طيراً من البحر أمثال الخَطاطيف[٨] والبُلْسان[٩] مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حَجرٌ في منقاره ، وحَجران في رجليه أمثال الحمص والعدس ، لا تُصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابتْ ، وخرجوا هاربين يبتدرونَ[١٠] الطريق التي منها جاؤوا ، ويسألون عن نُفيل بن حبيب ليدلَّهم على الطريق إلى اليمن .

---

(١) نُفَيل بن حبيب: خثعمي ، شاعر جاهلي يلقب بذي الدين ، كان من «أدلة» أبرهة في زحفه على مكة ، تُنسب له أبيات في يوم الفيل .

(٢) فبرك الفيل ، بروكاً (ن): جَثم ، أي جلس على صدره .

(٣) الطبْرَزين: الفأس «بالفارسية» .

(٤) المِحْجَن: العصا المعوجة الرأس ، ج: مَحاجِن .

(٥) المَراقُّ (بتشديد القاف) مَراقُّ البطن: ما رقّ من أسفل البطن ولان ، واحدها: مَرَقٌّ ، وقيل: لا واحد لها ، وميمها زائدة .

(٦) بزغوه ، بزغ الدم بَـزْغـاً وبُزُوغاً (ن): أساله .

(٧) الهرولة: بين المشي والعَدْو ، وقيل: هي الإسراع .

(٨) الخطاطيف ، الخُطّاف: العصفور الأسود ، وهو الذي تدعوه العامة عصفور الجنة ، ج . خطاطيف .

(٩) البُلْسَان: قال ابن هشام قال عباد بن موسىٰ: «وأظنها «الزرازير» ، وقال أبو ذر الخشني في شرحه: الخطاطيف والبلشون ضربان من الطير ، والبلشون بالأردية: بكلا (الـزُّرْزُور: طائر أكبر من العصفور) .

(١٠) يبتدرون ، ابتدر القوم أمراً: أي بادر بعضهم بعضاً إليه أيهم يسبق إليه فيَغلب عليه .

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأُصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يَسقط أَنمُلة[١] أَنمُلة ، كلما سقطت أَنمُلة اتبعتها منه مِدَّةٌ[٢] تَمُثُّ[٣] قيحاً ودماً حتى قدموا صنعاء[٤] وهو مثل فَرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

فلمَّا بعث الله محمداً ﷺ كان مما يُعدِّد على قريش من نعمته وفضله بما ردَّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومُدَّتهم فقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ ـ ٥].

(«سيرة ابن هشام» ج١)

---

(١) الأَنمُلَةُ: المفصل الأعلىٰ الذي فيه الظفر من الأصابع ، وهي رأس الأصبع ج أنامل ، ويسقط أنملة أنملة: أي ينتثر جسمه انتثاراً.

(٢) المِدَّة «بكسر الميم وتشديد الدال»: ما اجتمع في الجرح من القيح.

(٣) تمثُّ ، مثَّ (ن) مثَّ الجُرحُ: سال ورشح.

(٤) صَنْعاء: عاصمة اليمن ، اشتهرت قبل الإسلام بقصورها.

مؤامرة قريش[١]

ولما رأتْ قريش أنَّ رسول الله ﷺ قد صارت له شِيعةٌ[٢] وأصحابٌ من غيرهم بغير بلدهم. ورأوا خروجَ أصحابِه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم مَنَعة[٣]، فحذِروا خروجَ رسول الله ﷺ إليهم، وعَرفوا أنه قد أجمعَ لحربهم، فاجتمعوا له في دار النَّدوة[٤]، وهي دار قُصي بنِ كلاب[٥] التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

لما أجمعوا لذلك واتَّعدوا أن يَدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ غَدَوْا في اليوم الذي اتَّعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزَّحمة[٦]، فاعترضهم إبليسُ في هيئة شيخ جليل، عليه بِتْلَةٌ[٧]، فوقف على باب الدار، فلما رأوا واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من

(١) المؤامرة: تدبير سري يشترك اثنان أو أكثر ضد فرد أو مؤسسة.

(٢) الشيعة: الفِرقة، الجماعة ج: شِيَعٌ.

(٣) المَنَعَةُ «بالتحريك» العِزة والقوة.

(٤) دار الندوة: كانت لقريش دار، وكانوا إذا أصابهم أمر نَدُّوا (حضروا) إليها، واجتمعوا للتشاور.

(٥) قُصَيٌّ بن كلاب: سيد قريش في عصره، ورئيسهم وهو الأب الخامس في سلسلة النسب النبوي، كان موصوفاً بالدهاء، كانت له ولاية الكعبة والحِجابة.

(٦) الـزَّحْمة: الزحم والمضايقة.

(٧) بِتْلَة: هيئته من التَّبتُّل والانقطاع إلىٰ الله، وفي نسخة «عليه بِتٌّ له» والبِتُّ: الكساء.

أهل نجد[١] سمع بالذي اتَّعدتُم له، فحضر معكم ليسمعَ ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونُصحاً، قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش.

فقال بعضهم لبعض: إنَّ هذا الرجل قد كان من أمره ما قد **رأيتم**، فإنا والله ما نَأمَنُـه على الوثوب علينا فيمن قد اتَّبعه في غيرنا، فأجمِعوا فيه رأياً، قال: فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد، وأغلِقوا عليه باباً، ثم تربَّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً[٢] النابغة[٣]، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يُصيبه ما أصابهم فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون، ليخرجنَّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتُم دونه إلى أصحابه، فلأوْشكوا أن يثبوا عليكم، فيَنزعوه من أيديكم، ثم يُكاثروكم[٤] به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: نُخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أُخرج عنا فوالله ما نُبالي أين ذهب وحيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلَحنا أمرنا وأُلفتنا كما كانت، فقال الشيخ النجدي: لا واللهِ ما هذا لكم برأي، ألم تروا حُسن حديثه، وحلاوةَ مَنطِقه، وغَلَبته على قلوب الرجال بما يَأتي به، واللهِ لو فعلتم ذلك، ما أمنتُم أن يحلَّ على حيٍّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قولِه وحديثه حتى يُتابعوه عليه، ثم يسيرُ بهم إليكم حتى يطأكم بهم في

(١) الشيخ النجدي: وإنما قال لهم إنه من أهل نجد لأنهم قالوا: لا يَدخلن معكم في المشاورة أحد من تِهامة، لأن هواهم مع محمد، ويمكن أن يكون ذلك لأجل أن نجداً يطلع منها قرنا الشيطان، وهناك الزلازل والفتن.

(٢) هو زهير بن أبي سلمىٰ «٦٠٩ م» حكيم الشعراء في الجاهلية، وفي أئمة الأدب من يفضله علىٰ شعراء العرب كافة.

(٣) هو النابغة الذبياني «نحو ٦٠٤ م» شاعر جاهلي من الطبقة الأولىٰ من أهل الحجاز، وأحسن الشعراء ديباجة، كان الأعشىٰ وحسان والخنساء ممن يعرضون عليه شعرهم بسوق عكاظ.

(٤) المسابقة: المغالبة، يقال: كاثروهم فكثروهم، أي: غالبوهم فغلبوهم.

بلادكم. فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعلُ بكم ما أراد، دَبِّروا فيه رأياً غير هذا، قال: فقال أبو جهل بن هشام: واللهِ إن لي فيه لرأياً، ما أراكم وَقعتُم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أنْ نأخذ من كل قبيلة فتىً شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نُعطي كل فتىً منهم سيفاً صارماً، ثم يَعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتُلوه، فنستريحَ منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدرْ بنو عبد مناف على حربِ قومهم جميعاً، فرَضُوا منا بالعَقْلِ[1]، فعقلناه لهم، قال: فقال الشيخ النجدي: القولُ ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرَّق القوم على ذلك وهم مُجمعون له.

فأتى جبريلُ عليه السلام رسول الله ﷺ فقال: لا تَبِتْ هذه الليلَة على فراشك الذي كُنت تَبيت عليه، قال: فلما كانت عَتَمة[2] من الليل اجتمعوا على بابه يَرصدونه حتى ينام، فيَثِبُون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانَهم قال لعلي بن أبي طالب: نَمْ علي فراشي وتَسجَّ[3] بُردي هذا الحضرميَّ الأخضر، فنَم فيه، فإنه لن يَخلص إليك شيء تكرهُه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام.

قال: لما اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل بنُ هشام، فقال ـ وهم على بابه[4] ـ إنَّ محمداً يَزعم إنْ تابعتُموه على أمره كُنتم ملوكَ العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجُعلتْ لكم جنانٌ كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا، كان له فيكم ذبحٌ، ثم بُعثتم من بعد موتِكم، فَجُعلت لكم نار تُحرقون فيها. قال: وخرج عليه رسول الله ﷺ فأخذ حَفنةً من تراب في يده، ثم قال: أنا أقول ذلك، أنتَ أحدهم، وأخذَ اللهُ تعالى على أبصارهم عنه، فلا يَرونه،

---

(١) العَقْلُ: الدِّية.

(٢) العَتَمة: ثلث الليل الأول بعد غيبوبة الشفق.

(٣) تسجَّ بُردِي: أي تَغطَّ والتَحِفْ ببُردي.

(٤) السبب المانع من الدخول عليه في الدار إما قِصَرُ الجدار، وإما مخافتهم أن يتحدث العرب بأنهم تسوَّروا الحيطان على بنات العم وهتكوا سِتر عورتهم.

فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من «يس» ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١ ـ ٩] حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات، ولم يبقَ منهم رجلٌ إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيَّبكم الله! قد واللهِ خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا قد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيّبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما تَرون ما بكم؟ قال: فوضع كلُّ رجل منهم على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلّعون فَيرون علياً على الفراش مُتسجياً ببُرد رسول الله ﷺ فيقولون: واللهِ إن هذا لمحمد نائماً عليه بُرده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علي رضي الله عنه عن الفراش، فقالوا: والله لقد كان صَدَقنا الذي حدَّثنا.

(«سيرة ابن هشام» ج٢)

شهادةٌ من عَدُوٍّ

عن عُبيد الله بن عبدِ الله بن عُتبة ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، أنه أخبره أن رسول الله ﷺ كتبَ إلى قيصرَ[1] يدعوه إلى الإسلام ، وبعث بكتابه إليه مع دِحية الكلبي[2] ، وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بُصرى ليدفعه إلى قيصر ، وكان قيصرُ لمَّا كشف اللهُ عنه جنودَ فارس مشىٰ من حمص[3] إلىٰ إيلياء[4] شُكراً لما أبَلاه اللهُ ، فلما جاء قيصرَ كتابُ رسول الله ﷺ ، قال حين قرأه : التمسوا لي إلىٰ هاهنا أحداً من قومه لأسألهم عن رسول الله ﷺ ، قال ابن عباس : فأخبرني أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا تُجاراً في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، قال أبو سفيان : فوجدنا رسولَ قيصر ببعض الشام ، فانطلق بي وبأصحابي حتى قدمنا إيلياء ، فأُدخلنا عليه ، فإذا هو جالس في مجلس مُلكه وعليه التاج ، وإذا حوله عظماء الروم ، فقال لترجمانه : سَلْهم أيُّهم أقرب نسباً إلىٰ هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي . قال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم إليه نسباً ، قال : ما قَرابة ما بينك وبينه؟

---

(١) قيصر : ملك الروم .

(٢) صحابي حضر كثيراً من الوقائع ، وكان يُضرب به المثل في حسن الصورة ، عاش إلىٰ خلافة معاوية .

(٣) حِمْصُ : بلد مشهور قديم كبير مُسوَّر ، بين دمشق وحلب في نصف الطريق ، فتحها أبو عبيدة بن الجراح علىٰ الصلح .

(٤) إيلِيَاء : اسم مدينة بيت المقدس .

فقلت: هو ابن عمي، وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري، فقال قيصر: أدنوه، وأمر بأصحابي فجُعلوا خلف ظهري عند كتفي، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إني سائل هذا الرجل عن الذي يزعم أنه نبي، فإن كذب، فكذبوه، قال أبو سفيان: والله لولا الحياء يومئذ من أن يأثر[١] أصحابي عني الكذبَ لكذبتهُ حين سألني عنه، ولكني استحييتُ أن يأثروا الكذب عني، فصدقته، ثم قال لترجمانه: قل له: كيف نَسبُ هذا الرجل فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نَسب، قال: فهل قال هذا القولَ أحدٌ منكم قبله؟ قلت: لا، فقال: كنتم تَتَّهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه مِن مَلِك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتَّبعونه، أم ضُعفاءهم؟ قلتُ: بل ضُعفاؤهم، قال: فيزيدون أو يَنقصون؟ قلتُ: بل يزيدون، قال فهل يَرتدُّ أحدٌ سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قالَ: فهل يَغدر؟ قلت: لا، ونحنُ الآن منه في مدة نحن نخاف أن يَغدر، قال أبو سفيان: ولم تُمكنني كلمةٌ أُدخل فيها شيئاً أنتقِصه به لا أخاف أن تؤثر عني غيرُها، قال: فهل قاتلتموه وقاتلكم؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان حربه وحربكم؟ قلت: كانت دُولاً[٢] وسِجالاً[٣] يُدال علينا المرة ونُدال عليه الأخرىٰ، قال فماذا يأمركم؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، فقال لتُرجمانه حين قلت ذلك له، قل له: إني سألتك عن نَسبه فيكم، فزعمت أنه ذو نسب، وكذلكَ الرسل تُبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان أحد منكم قال هذا القول قبلَه قلت رجل يَأتمُّ بقولٍ قد قيل قبله، وسألتُك: هل كنتم تَتَّهمونه بالكذب قبل

---

(١) أَثر الحديث عن القوم (ن ـ ض) أنبأهم بما سبقوا فيه من الأثر، والنبأ.

(٢) الدُّولة: بالضم في المال، وبالفتح في الحرب، وهي أن تُدال إحدىٰ الفئتين علىٰ الأخرىٰ وتغلب عليها.

(٣) سِجال، يقال: الحروب سجال أي سَجل منها علىٰ هؤلاء، وآخرُ علىٰ هؤلاء، والسَّجْل: الدلو، ج: سِجال وسُجول.

أن يقول ما قال؟ فزعمتَ أن لا ، فعرفتُ أنه لم يكن لِيدَع الكذب على الناس ويكذبَ على الله ، وسألتُك هل كان من آبائه مِن مَلك؟ فزعمتَ أن لا ، فقلت: لو كان من آبائه مَلِك قلت يطلب مُلك آبائهِ ، وسألتُك أشراف الناس يتَّبعونه أم ضُعفاؤهم؟ فزعمتَ أنَّ ضعفاؤهم اتَّبعوه ، وهم أَتباعُ الرسل ، وسألتُك هل يزيدون أو ينقصون؟ فزعمتَ أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يَتم ، وسألتك هل يرتد أحدٌ سَخْطةً لدينه بعد أن يَدخل فيه؟ فزعمتَ أن لا ، فكذلك الإيمان حتى تَخلطَ بشاشته القلوب لا يسخطه أحدٌ ، وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أن لا ، وكذلك الرسل لا يغدرون ، وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمتَ أن قد فعل ، وأنَّ حربكم وحربَه يكون دُولاً يُدال عليكم المرة وتُدالون عليه الأخرىٰ ، وكذلك الرسل تُبتلىٰ وتكون لها العاقبة ، وسألتك بماذا يأمركم؟ فزعمتَ أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ، ويأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، قال: وهذه صفة النبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه منكم ، وإن يكُ ما قلتَ حقاً فيوشك أن يملكَ موضع قدميَّ هاتين ، ولو أرجو أن أَخلص إليه لتجشَّمتُ[1] للقائه ، ولو كنتُ عندَه لغسلتُ قدميه ، قال أبو سفيان: ثم دعا بكتابِ رسول الله ﷺ فقُرىء ، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمدٍ عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلامٌ على من اتبع الهدى ، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تَسْلَم ، وأسلِم يُؤتك الله أجرَك مرتين ، فإن توليت ، فعليك إثم الأريسيِّين[2]. و﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]». قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته ، علتْ أصواتُ

---

(١) تجشَّم: تكلف.

(٢) الأرِيسِيِّينَ: واحدها الأَرِيسِيُّ نسبة إلىٰ الأَرِيس ، والأريس هو الفلاح ، وإنما قال النبي ﷺ ذلك لأن الفلاحين عندهم من أهل الفرس ، وهم عبدة النار ، فجعل عليه إثمهم ، وكان أهل الروم أهل صِنعة ، فكانوا يقولون للمجوسي: أريسي.

الذين حوله من عظماء الروم وكَثُرَ لَغطُهم[١] ، فلا أدري ماذا قالوا ، وأُمر بنا ، فأخرجنا ، فلما أن خرجتُ مع أصحابي وخلوت بهم ، قلت: لقد أَمِرَ[٢] أَمْرُ ابن أبي كبشة ، هذا مَلكُ بني الأصفرِ[٣] يخافه ، قال أبو سفيان: ما زلتُ ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر حتى أدخل الله ُقلبي الإسلام وأنا كارهٌ.

وفي رواية أخرىٰ: «قال الزهري: فدعا هرقلُ عظماء الروم ، فجمعهم في دار له ، فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرُّشد آخر الأبد وأن يَثْبت لكم ملككم؟ قال: فحاصوا[٤] حَيصةَ حُمُرِ الوَحش إلى الأبواب ، فوجدوها غُلقت ، فقال: عليَّ بهم ، فقال: إني إنما اختبرتُ شدَّتكم على دينكم ، فقد رأيتُ منكم الذي أحببت فسَجدوا له ، أو رضوا عنه».

(«صحيح البخاري» المجلد الثاني)

---

(١) اللَّغطُ «ويُحرَّك» الجلَبة والغوغاء ، أو أصواتٌ مبهمة لا تُفهم ج: ألغاط.

(٢) أَمِر (س) كثُر وكبر ، أَمِر أَمْرُ ابنِ أبي كبشة: أي ارتفع شأن النبي ﷺ ، كبشةُ كان رجلاً خالف قريشاً في عبادة الأصنام فشبهوا النبي ﷺ به.

(٣) مَلِكُ بني الأصفر: يُريد قيصر.

(٤) حاص الفرس حَيْصاً وحَيْصة (ض): حاد وعدل ، ويقال حاص القوم حَيْصَة: أي جالوا جولة يطلبون الفرار والمحيص.

الكَرمُ والمَعروف

الأمالي[(١)]

أَلــم تَعلمــي يـا عَمـركِ اللهَ أنني كريمٌ علي حين الكرامُ قليلُ[(٢)]
وأَنِّــي لا أَخــزىٰ إذا قيــل مُملــق سَخــيٌّ وأخزىٰ أن يُقـال بخيـلُ[(٣)]

(١) أبو علي القالي «٢٨٨ ـ ٣٥٦ هـ».
ولد بمنازجرد من ديار بكر ، توجه إلىٰ العراق ، وكانت يومئذ مهد العلم ومنتدىٰ الأدب ، فدخل بغداد ، وأكب علىٰ الاستفادة من جهابذة اللغة والرواية ، وكان الحُكم ينشطه علىٰ التأليف بواسع العطاء والإفراط في الإكرام ، حتى أحرز فيهما النبوغ والبراعة ، وأصبح أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب ، وعدَّه المؤرخون إماماً في اللغة وعلوم الأدب ، يصفه الضَّبِّيُّ في كتابه «بُغية الملتمس»: كان إماماً في اللغة متقدماً فيها متقناً لها ، فاستفاد الناس منه ، وعولوا عليه ، واتخذوه حجة فيما نقله ، ويقول ياقوت في «معجمه»: كفىٰ به فضلاً أن الإمام الزبيدي الذي كان إذا ذاك إماماً في الأدب كان ممن استفادوا منه وأقروا له بالفضل.
وكتابه «الأمالي» معروف بين العلماء والدارسين ، فإنه عزير المعاني وكثير الفوائد وقِمة فيما يحتوي عليه ، قال أبو محمد بن حزم: «لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً فإن كتاب أبي علي القالي أكثر لغة وشعراً».
من أشهر مؤلفاته «أمالي القالي» و«البارع» و«المقصور والممدود والمهموز» و«الأمثال».

(٢) عَمْرَكِ اللهَ: أي اسأل اللهَ أن يُـعَمِّركِ ، كأنه قال: عَمَّرْتُكِ اللهَ ، «عَمْرَكِ» من الأسماء الموضوعة موضع المصادر ، المنصوبة علىٰ إضمار الفعل المتروك إظهاره ، وأصله من عَمَّرْتَكِ الله تعميراً ، فحذف الفعل ووضع «عَمْرَكِ» في موضع «تعميراً» ، أو لعمر الله: أي وبقاء الله ، فإذا سقط اللام نُصِبَ انتصابَ المصادرِ.

(٣) مُمَلَّق ، أملق الرجل: إذا افتقر واحتاج ، وقيل هو الذي لا شيء عنده ، وأصله إنفاق المال وتبذيره إلىٰ حد يورث الإملاق والخصاصة.

إذا كُنتُ في القوم الطوال فَضلتُهم ... بعارفةٍ حتى يُقالَ طويل[1]
ولا خير في حُسن الجُسوم وطولها ... إذا لم يَزن حُسنَ الجسوم عُقول
و كائنْ رَأينا من فُروعٍ طويلة ... تَموتُ إذا لم يُحيِهنَّ أُصول[2]
فإن لم يكن جسمي طويلاً فإنني له ... بالفِعال الصالحات وَصول
ولم أرَ كالمعروف أمَّا مذاقه ... فَحُلوٌ وأما وَجهه فجميلُ

(أمالي أبي علي القالي)

---

(١) اسم جامع لك ما ندب إليه الشرع ونهىٰ عنه من المحسنات والمقبحات ج: عوارف، طويلٌ: ارتفع «طويلٌ» علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف كأنه قال: هو طويلٌ.

(٢) يعني أولاد آباء أشراف حَمدوا إذا لم يكن فيهم شرف آبائهم، كالشجر إذا لم يُحي الأصلُ الغصنَ، بطل الغصنُ، وكذلك الولد إذا لم يُهذبه أبوه.

ابن طاووس والمنصور

ابن عبد ربه[١]

عن مالك بن أنس قال: أرسل أبو جعفر[٢] المنصور إليَّ وإلى ابنِ طاووس[٣]، فأتيناه، فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فرش قد

---

(١) ابن عبد ربه (٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ).
هو أبو عمر شهاب الدين أحمد بن عبد ربه، أديب حسن الذوق في الاختيار، نشأ بقرطبة حاضرة الأندلس، ولم تُعرف عنه رحلة إلىٰ غير بلاد الأندلس.
كان في شبابه وَلوعاً بالغناء، ولكن ذلك لم يمنعه من التحصيل والدرس حتى عُدَّ في فقهاء الأندلس.
من شيوخه ابن مخلد بن يزيد، ومحمد عبد السلام القرطبي، وكان ابن عبد ربه ولوعاً بالمنافسة، معتداً بنفسه، ذكر صاحب «كشف الظنون» أن له كتاباً آخر سماه «اللباب في معرفة العلم والأدب».
يقول الفتح بن خاقان: «إنه حجة الأدب وإن له شعراً انتهىٰ منتهاه، وتجاوز سِماك الإحسان وسُهاه»، ويقول ابن سعيد: «إنه إمام أهل أدب المئة الرابعة وفرسان شعرائها في المغرب كله». وكتابه «العقد الفريد» هو موسوعة أدبية عامة، ويوشك من ينظر فيه أن يجزم بأنه لم يغادر شيئاً مما يهم الباحث في «علم العرب» إلا عرض له، ولذا يرجع إليه الأديب والمؤرخ واللغوي والنحوي والعروضي وصاحب الأخبار والقصص، فينال كلُّ بُغيته، يقول محمد سعيد العريان: «إن العقد الفريد مرجع لغوي يمكن الاستناد إليه في شيء من التطورات اللغوية لبعض معاني العربية بين الشرق والغرب».

(٢) المنصور: أبو جعفر المنصور «٩٥ ـ ١٥٨ هـ» ثاني خلفاء بني عباس.

(٣) ابن طاووس: هو عبد الله بن كيسان الهمداني (م ١٣٤ هـ) من عباد أهل اليمن وفقهائهم المشهورين ومن رجال الحديث الثقات.

نُضِّدت[١] ، وبين يديه أنطاع[٢] قد بُسطت ، وجَلاوزة[٣] بأيديهم السيوف يضربون الأعناق فأومأ إلينا أن اجلسا ، فجلسنا ، فأطرق عنا طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاووس فقال له: حدثني عن أبيك ، قال: نعم سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ أشركه الله في حكمه ، فأدخل عليه الجور في عدله» ، فأمسك ساعة ، قال مالك: فضممتُ ثيابي مخافة أن يَملأني من دمه ، ثم التفتَ إليه أبو جعفر ، فقال: عِظني يا بن طاووس ، قال: نعم يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالىٰ يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ[٤] ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ[٥] ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤] قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأ ثيابي من دمه ، فأمسك ساعة حتى اسودَّ[٦] ما بيننا وبينه. ثم قال: يا بن طاووس ناولني هذه الدواة ، فأمسكَ عنه ، (ثم قال: ناولني هذه الدواة ، فأمسك عنه) ، فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟ قال: أخشىٰ أن تكتب بها معصيةً لله ، فأكون شريكك فيها ، فلما سمع ذلك قال: قُوما عنِّي ، قال ابن طاووس: ذلك ما كنا نبغي (منذ اليوم).

قال مالك: فما زلتُ أعرفُ لابن طاووس فضله.

(الجزء الأول من «العقد الفريد»)

---

(١) نضد المتاع نَضْداً (ض) ، ونضّده تنضيداً: ضم بعضه إلى بعض متسقاً.

(٢) النِّطْع «بالكسر وبالفتح وبالتحريك»: بساط من الأديم ج أنطاع ونُطوع.

(٣) الجِلواز «بالكسر»: الشرطي «المخصص للملك» ج: الجلاوزة.

(٤) إرَم: عطف بيان لعاد وإيذان بأنهم عاد الأولىٰ القديمة ، وقيل إرم بلدتهم وأرضهم التي كانوا فيها ، ولم تنصرفْ قبيلة كانت أو أرضاً للتعريف والتأنيث.
وذات العِماد: المعنىٰ أنهم كانوا بدويين أهل المخيمات والعمد ، أو طوال الأجسام ، العِمَاد: ما يُسند به ، ج: عُمُد ، ويُقال: أهل العماد: أصحاب الأبنية العالية الرفيعة.

(٥) الوَتَـد «بالفتح والتحريك» ما رُزَّ في الأرض أو الحائط من خشب ج: أوتاد.

(٦) أي طال السكوت ، ولم يدر أحد منا ماذا سيحدثُ فيما بعد.

النَّجاشيُّ الكَريم

عن أُم سَلمة بنتِ أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت: لما نَزلنا أرضَ الحبشة جاورنا بها خيرَ جارٍ النجاشيَّ[1] ، أمِنَّا على ديننا ، وعَبدنا الله تعالىٰ ، لا نُؤذىٰ ولا نَسمع شيئاً نكرهُه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يَبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جليدين، وأن يُهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف[2] من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدَمُ[3] ، فجمعوا له أَدماً كثيراً ، ولم يَتركوا من بطارقته بطريقاً[4]، إلا أهدوا له هديةً ، ثم بعثوا بذلك عبدَ الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص فأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديَّته قبل أن تُكلِّما النجاشي فيهم ، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه ، ثم سَلاه أن يَسلِّمهم إليكما قبل أن يُكلِّمهم ، قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دارٍ عند خير جارٍ ، فلم يبق من بطارقته بطريقٌ إلا دفعا إليه هديته قبل أن يُكلِّما النجاشي ، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوىٰ[5] إلى بلد المَلِك منا غِلمانٌ سفهاء ، فارقوا دينَ قومهم ولم يَدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مُبتَدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بَعثنا إلى الملك فيهم أشرافَ قومهم ليردَّهم

(١) لقب ملك الحبشة «بتشديد الياء ، وتخفيفها أولىٰ».
(٢) استطرفه: عدَّه طريفاً وبديعاً.
(٣) الأدَم «بالتحريك» اسم للجمع: الجلد.
(٤) البِطْرِيقُ: القائد من قواد الروم تحت يده عشرة آلاف رجل ج: بطارقة.
(٥) ضوىٰ ضَيّاً وضُوِيّـاً (ض): انضم ولجأ وأتىٰ ليلاً.

إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يُسلمهم إلينا ولا يُكلمهم ، فإنَّ قومهم أعلىٰ بهم عيناً ، وأعلمُ بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما: نعم ، ثم إنهما قدَّما هداياهما إلى النجاشي ، فقبلها منهما ، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوىٰ إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دينَ قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاؤوا بدينٍ ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافَ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم عليهم ، فهم أعلىٰ بهم عيناً ، وأعلمُ بما عابوا عليهم وعاتَبوهم فيه ، قالت: ولم يكن شيءٌ أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يَسمع كلامهم النجاشي ، قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقاً أيها الملك ، قومُهم أعلىٰ بهم عيناً ، أعلمُ بما عابوا عليهم ، فأسلمهمْ إليهما فليردَّاهم إلي بلادهم وقومِهم ، قالت: فغضب النجاشي ، ثم قال: لاها الله[1] إذاً لا أُسلِّمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني علىٰ من سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك ، منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني ، قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول واللهِ ما علمنا وما أمرَنا به نبينا كائناً في ذاك ما هو كائن ، فلما جاؤوا ـ وقد دعا النجاشي أساقفَته فنَشروا مصاحفهم حوله ـ سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومَكم ولم تدخلوا ديني ولا في دينِ أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلَّمه جعفرُ بن أبي طالب فقال له: «أيها الملك ، كنا قوماً أهلَ جاهلية ، نعبدُ الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطَع الأرحام ، ونُسيء الجوار ، ويأكل القويُّ منا الضعيف ، فكُنا على ذلك حتى بعثَ اللهُ إلينا رسولاً منا نعرف نَسبه وصِدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده

---

(١) لاها اللهِ: الهاء هاء التنبيه قد يقسم بها فيقال: لاها اللهِ ما فعلته أي لا والله. . أُبدلت الهاء من الواو ، وفي ألف هاء مذهبان ، أحدهما أن تُثبت ألفها لأنَّ الذي بعدها مدغم ، والثاني أن تحذف لالتقاء الساكنين.

ونَعبده ونخلعَ ما كُنا نَعبد نحن وَآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمَرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلةِ الرحم وحُسن الجوار والكَف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقولِ الزور وأكل مال اليتيم وقَذفِ المحصنة ، وأمرنا أن نعبدَ الله وحده لا نُشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، قالت: فعدَّد عليه أمور الإسلام ، فصدَّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا اللهَ وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرَّمنا ما حرَّم علينا وأحلَلنا ما أحلَّ لنا ، فعدَا علينا قومُنا فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحلَّ ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك علىٰ مَن سواك ، ورَغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم ، فقال له النجاشي: فاقرأه علي ، قالت فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلَّتْ[1] لحيته وبكتْ أساقفته ، حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، قال النجاشي: إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة[2] واحدة ، انطلقا فلا والله لا أُسلمهم إليكما ولا يُكادون[3] ، قالت: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم[4] ، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، قال والله لأُخبرنه أنهم يزعمون أن عيسىٰ ابن مريم عبدٌ ، قال: ثم غدا عليه من الغد ، فقالَ: أيها الملك إنهم يقولون في عيسىٰ ابن مريم قولاً عظيماً ، فأرسلْ إليهم فسلْهم عما يقولون فيه ، قالت: فأرسلَ إليهم

---

(١) اخضلَّت: نديت وابتلت ، وأَخْضَلَه إخضالاً: بلَّه.

(٢) المشكاة: الكُوَّة «غير النافذة وقيل هي الحديدة التي يعلق عليها القنديل» أراد أن القرآن والإنجيل كلام الله تعالىٰ وأنهما من شيء واحد.

(٣) ولا يُكَادُون: لا يُمكرَون ، وقد ورد «أكاد» ويجوز أن يكون من أفعال المقاربة.

(٤) خَضرَاءَهم: خضراء القوم: سوادهم ومعظمهم.

ليسألهم عنه ، قالت : ولم ينزلْ بنا مثلُها قط ، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسىٰ ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول واللهِ ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن ، قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسىٰ ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقولُ فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ هو عبد الله ورسوله ، وروحُه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، قالت : فضرب النجاشي بيده إلى الأرضِ فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ما عدا عيسىٰ بن مريم ما قلت هذا العودَ[١] ، قالت: فتناخرت[٢] بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال: وإنْ نَخرتم واللهِ ، واذهبوا فأنتم شُيوم بأرضي (والشيوم ، الآمنون) من سَبَّكم غَرِم ، ثم قال: من سَبَّكم غرم ، ثم قال: من سَبَّكم غَرِم ، ما أحبُّ أن لي دُبراً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم ، (والدّبر بلسان الحبشة الجبل) ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ اللهُ مني الرشوة حين رد علي ملكي ، فآخذَ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيَّ فأُطيعَهم فيه ، قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

(«سيرة ابن هشام» ج١)

(١) هذا العودَ: منصوب على الظرفية ، أي مقدار هذا العود.
(٢) نخر نخيراً (ض ـ ن): مدَّ الصوت في خياشيمه ، كناية عن الإباء والاستنكار.

تجارةٌ رابحةٌ

طه حسين[١]

بلغ النبيُّ ﷺ وصاحبه أبو بكر قباء ، نزلا فيها بين جماعة من المسلمين من المهاجرين والأنصار ، وقد فرح النبيُّ بهجرتهِ إلىٰ المدينة وفرحتِ المدينة بهجرته إليها ، فهي في عيدٍ متصل ، والأنصار يستبقون إلى بِرِّ النبي وأصحابه من المهاجرين ، يُؤوونهم ، ويقومون بحاجاتهم ، ويُطرِفونهم[٢] بما يستطيعون أن يُطرفوهم به من الطيبات ، وقد تقدمَ النهار وصُليتِ الظهر ، وأقبلَ رجلٌ من الأنصارِ فوضع بين يدي النبيِّ رُطَباً ، وجعل النبيُّ

---

(١) الدكتور طه حسين «١٣٠٧ ـ ١٣٩٣ هـ».
ولد بمصر ، أصيب بالضرارة في صباه ، التحق بالأزهر بعد إتمام حفظ القرآن ، وعكف علىٰ دراسة الأدب العربي خاصة ، نال شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعات فرنسا ، وإنكلترا وإيطاليا ، وأسبانيا ، شغل منصب التدريس في كلية الآداب بالجامعة المصرية ، وتولىٰ الإشراف علىٰ إدارة شؤونها ، ثم انقطع إلىٰ التأليف والإنشاء ، وقد انحرف في بعض آرائه في كتابه «الشعر الجاهلي» وغيره ، مما آثار ضجة كبيرة في أوساط مصر وخارجها.
يتمتع باليد الطولىٰ والحذق التام في العربية ، ركز اهتمامه الكبير علىٰ مطالعة المصادر الأدبية القديمة وتذوق أسلوب كتب السيرة والتاريخ ، تتحلىٰ كتابته بأسلوب رشيق خاص ، يمتاز فيه بنقاء الكلمات وعذوبة العبارة وسهولة البيان ، ويحسن كتابة شيء كثير لا يعتقده ولا يتحمس له ، وتلك صناعة لا يُجيدها كل واحد ، ولذا إلىٰ اليوم يشار إليه بلقب «عميد الأدب العربي».
من مؤلفاته الشهيرة ، «علىٰ هامش السيرة» و«مستقبل الثقافة في مصر» ، و«الأيام» و«الأدب الجاهلي» و«ذكرىٰ أبي العلاء» و«ابن خلدون» و«مع المتنبي» وغيرها.

(٢) أطرف فلاناً: أعطاه ما لم يعط أحداً قبله.

وصاحباه أبو بكر وعمر يُصيبون من هذا الرُّطب ، وإنهم لفي ذلك ، فإذا شخص يرفع لهم ، ثم يدنو منهم ، ثم يُسلم عليهم ، ثم يجلس إليهم وإذا هو صهيب ، سابقُ الروم إلى الإسلام كما قال فيه رسول الله ﷺ.

وقد أقبلَ صُهيبٌ مجهوداً مكدوداً قد بلغ منه الإعياء وكاد يأتي عليه[١] الجوع ، وقد أصابه في طريقه رَمدٌ[٢] ، فهو لا يكاد يرى إلا في مشقة أي مشقة ، وقد ألقىٰ تحيةً إلى أصحابه ، ثم ألقى نفسه على الأرض ثم نظر فرأىٰ الرُّطب فانكبَّ عليه ، وجعل يأكل منه أكلاً غير رفيق ، يقول عمر بن الخطاب للنبي ﷺ : ألا ترىٰ يا رسول الله إلى صُهيب يأكل الرُّطب وهو رمد؟ فيقول له النبي : أتأكل الرطب وأنتَ رمد؟ فيقول صهيب وهو يُمعن[٣] في الأكل : إنما آكلُهُ بشق عيني الذي لم يَرمد ، فيبتسمُ رسول الله ويضحك القوم ، ويَمضي صهيب في أكل غير رفيق ، حتى إذا أرضى حاجته إلى الطعام جعل يُعاتب أبا بكر فيقول : وعدتني الصُّحبة ثم تركتني ، ثم يُعاتب النبيَّ فيقول : ووَعدتني يا رسول الله الصحبة ثم تركتني ، والله ما خلصتُ إليك[٤] حتى اشتريتُ نفسي من قريش بمالي أجمعَ ، وما تركتُ مكة إلا بمُدٍّ من دقيق عجنتُهُ بالأبواء[٥] ، وعِشتُ عليه حتى انتهيتُ إليك ، فيُجيبه رسولُ الله : ربحَ البيع أبا يحيىٰ! ربح البيع! ويُنزل الله هذه الآية الكريمة : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة : ٢٠٧] وقد أوجز صُهيبٌ قِصة هذا البيع الرابح .

وقد كان من أخلاقِ المسلمين الصادقين ألا يتكثَّروا[٦] ولا يَمُنُّوا

---

(١) أتىٰ عليه إتياناً : أهلكه .
(٢) الرَّمَد «بالتحريك» : هيجان العين بسبب ألمٍ فيها .
(٣) أبعد وتعمق فيه .
(٤) خلص إلىٰ المكان خلوصاً وخَلاصاً (ن) : وصل .
(٥) الأَبواء : قرية من أعمال الفرع من المدينة ، بينها وبين جحفة ثلاثة وعشرون ميلاً ، وبها قبر آمنة أم النبي ﷺ .
(٦) التكثُّر : الافتخار والاعتزاز .

بإسلامهم ، وقد ثابتْ[١] قريشٌ بعضَ الشيء إلى نفسِها بعد أن فاتها محمدٌ وأبو بكر ، وجعلتْ تتَبَّعُ من لقي من أصحاب محمد ، تحبِسهُم عن الهجرة ، وتُمسِكهم في العذاب ، وتَفْتِنهُم في دينهم وتَصدُّهم عن سبيل الله ، وكان صُهيبٌ من الذي حَبَستهم قريش ، يقول له أبو جهل وقد وَرِمَ أنفهُ وذهب به الغيظ كل مذهب[٢]: أتيتنا صُعلوكاً حقيراً لا تملِك من الدنيا شيئاً ، فأثريتَ عندنا وأصبحت ذا مال ، ثم أنتَ تريد أن تفوتنا بمالِك ونفسك إلى محمد وأصحابه! قال صهيب: فإن خلَّيتُ بينكم وبين مالي؛ أتُخلُّون بيني وبين ما أريد من الهجرة. قال قومٌ: نعم ، وقال أبو جهل: هيهات[٣]! إنَّ حاجتنا إلى مالك ليست أقلَّ من حاجتنا إلى نفسك ، فلَنمسِكنَّك في العذاب حتى نأخذَ مالك ثم نأتي على نفسك أو تعودَ من دينك إلى ما كنت عليه ، قال صهيب وفي صوته حزنٌ مُرٌّ: لو عاشَ عبدُ الله بنُ جدعان[٤] لما بلغتَ مني ما ترىٰ ، قال أبو جهل: سنُلحقكَ بعبد الله بنِ جدعان فأشكُنا إليه إن شئتَ ، ألستُم تزعمون أن الناسَ يَحيونَ حياةً ثانية بعد حياتهم هذه الأولىٰ ، فالْقَ عبدَ الله بن جدعان هناكَ إن شئتَ فاشكنا إليه ، قال صهيب: هيهاتَ! لن ألقاه قد وعدني رسولُ الله الجنةَ وهو في النار ، قال أبو جهل: ـ وقد استأثرَ به الغيظ[٥] ، فسطا على صهيب وضرب في وجهه ضرباً عنيفاً ـ ألا تسمعون يا معشر تَيم[٦] إنَّ سيدكم

---

(١) ثاب ثُؤُوباً وثَوَباناً (ن): عاد رجع ويقال: ثاب القوم: اجتمعوا واتحدوا.

(٢) أي بلغ منه الغيظُ غايَتهُ.

(٣) هيهاتَ: كلمة معناها البعد ، وهي كلمة مصروفة وغير مصروفة والمستعمل منها غالباً الفتح بلا تنوين ونصبها بمنزلة «كيف» و«رُبَّتَ» و«ثَمَّتَ».

(٤) جواد معروف ، ورُبما كان النبي ﷺ يَحضُر طعامه وكانت له جَفْنَةٌ يأكل منها القائم والراكب لِعِظَمها.

(٥) أي ملك عليه عقلهُ ومشاعرَهُ.

(٦) تيم بن مُرَّة بن كعب بن لُؤَي بن قريش جدٌّ جاهلي من نسله أبو بكر الصديق وطلحة الصحابيان.

عبدُ الله بن جدعان في النار ، وإن عبدَه هذا الروميَّ سيصيرُ إلى الجنة! ما رأيتُ كاليوم حُمقاً ولا خُرقاً.

ولَبِثَ صُهيب في حبسه أياماً لا يُرزق من الطعام إلا ما يعصمه من الموت ، ولكنَّ الإسلام كان في ذلك الوقت قد فشا في أحرار مكة ورقيقِها ، فيحتالُ بعض أولئك وهؤلاء ، وإذا صهيبٌ قد انسلَّ من مَحبسِه وركب راحلته ، وأخذ طريقه إلى المدينة.

وعلمتْ قريشٌ بأن صُهيباً قد انسلَّ من محبسه ، وبأنه يُوشك أن يَفوتها ، فتُرسل في أثره الخيلَ ، ويُدركُ القومُ صهيباً ولم يَمض في طريقه إلا قليلاً ، فلما رآهم قد أقبلوا؛ وعلم أنهم يوشكون أن يأخذوه وأن يردُّوه إلى الفتنة والعذاب وقفَ لهم ، ونثَر ما في كنانته[1] من السِّهام ، وقال لهم في صوت الحازم المصمم: علمتُم يا معشر قريشٍ أني مِنْ أرماكم رجلاً ، وأنكم واللهِ لا تصلون إليَّ حتى أرميَكم بكل ما بين يَديَّ من سهم ، ثم أضربَكم بسيفي ما بقي منه شيء في يدي ، فاختاروا بين الموت وبين مالي أدلُّكم عليه فتأخذونَه وتُخلُّون بيني وبين الطريق ، ولم يَطُل تفكير قريش ولا ائتمارُها ، وإنما آثروا العافية والسلامة والمال ، فقالوا: قد رضينا ، فدلَّنا على مالك ، فأنبأهم بمكانه وانصرفوا عنه ، ومضى هو في طريقه حتى بلغ رسولَ الله وقد أدركه من الجَهد والكَدِّ ومن الظمأ والجوع ما كاد يأتي عليه.

(«الوعد الحق» طه حسين)

(١) الكِنَانة: كنانة السهام ـ بالكسر ـ جُعبة من جلد لا خشب فيها أو بالعكس.

جُودُ أعرابيٍّ

الأصبهاني[١]

حدَّثني مروان بن حفصةَ وكان لي صديقاً قال: كان المنصور قد طلبَ معنَ بن زائدةَ[٢] طلباً شديداً وجعل فيه مالاً ، فحدّثني معنُ بن زائدة باليمن أنه اضُطر لشدةِ الطَّلب إلىٰ أن أقام في الشمس حتى لوَّحتْ[٣] وجههَ وخففتْ عارضيه ولِحيته ، ولبسَ جُبَّة صوفٍ غليظة ، وركب جملاً من الجمال النَّقالة ليمضي إلى البادية فيُقيم بها ، وكان قد أبلى في حرب يزيد بن

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني (٢٨٤ ـ ٣٣٦ هـ).
ولد بأصبهان في خلافة المعتضد بالله ، وهي السنة التي مات بها البحتري الشاعر ، روىٰ عن عالم كثير يطول تعدادهم منهم الأخفش ، والطبري ، وابن قدامة ، كان شاعراً جيداً وكاتباً بارعاً ونسّابة أخبارياً معروفاً ، جامعاً بين سعة الرواية والحذق في الدراية.
قال الثعالبي في «يتيمة الدهر»: «وكان من أعيان أدباء بغداد ، له شعر يجمع إتقان العلماء ، وإحسان ظرفاء الشعراء» ، ونقل ابن خلكان عن التنوخي أنه قال: «كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والنسب ما لم أر قط من يحفظ مثله».
وكتابه «رنات المثاني والمثالث» بأسلوب علمي دقيق ولغة أنيقة سهلة ينم عن معرفته واطلاعه الواسع علىٰ الأدب واللغة والتاريخ ، له مصنفات كثيرة ، منها «الأغاني» و«مقاتل الطالبيين».

(٢) (١٥١ هـ): جواد معروف من أجواد العرب.

(٣) لوح تلويحاً: أهلك.

عمر بن هُبيرةَ(١) بلاءً حسناً غاظ المنصور وجدَّ في طلبه ، **قال معن: فلما** خرجتُ من باب حرب(٢) تبعني أسودُ متقلِّداً سيفاً حتى إذا غبتُ عن الحرس قَبض على خطام جملي فأناخه(٣) ، **وقبض عليّ ، فقلت له: مالك؟ قال:** أنت طَلبَةُ(٤) أمير المؤمنين ، قلت: ومن أنا حتى **يَطلبني أمير المؤمنين؟** قال: معنُ بن زائدةَ ، فقلت: يا هذا اتقَ الله وأين **أنا مِن معن؟ قال: دع هذا** عنك فأنا والله أعرفُ به منك ، فقلت له: فإن كانت القصة كما تقول ، **فهذا** جوهرٌ حملته معي يفي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاء بي ، **فخذه** ولا تسفك دمي ، قال: هاته ، فأخرجته إليه ، فنظر إليه ساعة وقال: صدقتَ في قيمته ، ولست قابله حتىٰ أسألك عن شيء فإن صدَقتني أطلقتُك ، فقلت: قل ، قال: إن الناس قد وصَفوك بالجود ، **فأخبرني هل** وهَبتَ قط مالك كله؟ فقلت: لا ، قال: فنِصفه؟ قلت: لا ، قال: فثُلثه؟ قلت: لا ، حتى بلغ العُشر ، فاستحييتُ ، فقلت: أظنُّ أني قد فعلته يا هذا ، فقال: ما أراك فعلتَه ، أنا والله راجل ، ورزِقي من أبي جعفر عشرون درهماً ، وهذا الجوهر قيمتهُ آلاف دنانير ، وقد وهبتهُ لك ووهبتُك لنفسك ولجودك المأثور عنك بين الناس ولِتعلمْ أنَّ في الدنيا أجودَ منك ، فلا تُعجبك نفسك ولتحقِز بعد هذا كلَّ شيء تفعلهُ ، ولا تتوقف عن مكرمة ، ثم رمىٰ بالعقد في حِجري ، وخلّىٰ خِطام البعير وانصرف ، فقلت: يا هذا قد والله فضحتني ، ولَسفْكُ دمي أهون عليَّ مما فعلتَ ، فخذْ ما دفعته إليك فإني غنيٌّ عنه ، فضحك ثم قال: أردتَ أن تُكذِّبني في مقالي

---

(١) يزيد بن عمر بن هبيرة: (٨٧ ـ ١٣٢ هـ) خطيب وأمير قائد من ولاة الدولة الأموية ، واستفحل أمر الدعوة العباسية في زمن إمارته ، فرحل إلىٰ واسط ، وتحصّن بها ، حتى بعث إليه السفاح مَن قَتله بقصر واسط في خبر طويل فاجع.

(٢) موضع ببغداد ، ينسب إلىٰ حرب بن عبد الله البلخي أحد قواد المنصور ، وفي مقبرة باب حرب أحمد بن حنبل وبشر الحافي وأبو بكر الخطيب البغدادي ، وخرِب جميعُ ما كان يجاورها من المحال وبقيتْ وحدها.

(٣) أناخ الإبل إناخة: أبركها.

(٤) الطَّلِبَةُ «بكسر اللام»: ما طلبته.

هذا ، والله لا آخذه ولا آخذُ بمعروف ثمناً أبداً ، ومضىٰ ، فوالله لقد طلبتهُ بعد أن أمِنتُ وبذلتُ لمن جاءني به ما شاء فما عرفتُ له خبراً ، وكأنَّ الأرض ابتلعته.

(«رنات المثالث والمثاني» ، الجزء الثالث)

مع اليتامى

حجية بن المضرِّب[١]

لَجَجْنا ولجَّتْ هذه في التَّغضُّبِ ... ولطَّ الحجابِ دوننا والتَّنقبِ[٢]

تلومُ على مالٍ شفاني مكانهُ إليكِ ، ... فلومي ما بَدا لكِ واغضبي[٣]

رأيتُ اليتامى لا تَسدُّ فُقورهم ... هدايا لهم في كل قَعْبٍ مُشعَّبِ[٤]

فقلتُ لعَبدينا أريحا عليهمُ ... سأجعل بيتي مثل آخر مُعْزَبِ

بنيَّ أحقُّ أن ينالوا سَغابة[٥] وأن ... يشربوا رنقاً لدى كل مشرب

---

(١) حجية بن المضرب :
هو حجية بن المضرِّب الكندي : شاعر جاهلي مقل ، من نصارىٰ كِندة ، أدرك الإسلام ، كان فارساً ناجحاً ، وكان من حديثه أنه كان جالساً ذات يوم بفناء بيته ، فخرجتْ جارية بقَعْب فيه لبن ، فقال لها : أين تريدين بالقَعب؟ فقالت : بني أخيك اليتامىٰ ، فوجمَ وأطرق لشدة الحزن ، فلما أراح راعياه إبله ، قال لهما : رداها نحو بني أخي ، ثم دخل منزله فعاتَبتهُ امرأته ، فقرضَ هذه الأبيات .

(٢) لِجاجة (س ـ ض) لَجَّ في الأمر : تمادىٰ عليه وأبىٰ أن ينصرف عنه ، لَطَّ لَطّاً ولَطَطاً (ض) الشيءَ : سَتره وأخفاه ، ولطَّ الحجابَ : سدَلَه وأرخاه .

(٣) أي شفاني مصرِفُه الذي صرفته إليه .
إليكِ : اسم من أسماء الفعل بمعنىٰ تَنَحَّ وابعد ، وعطفَ عليه قوله «فلومي» ، ما بدا لك في موضع الظرف ، أي ما ظهر لكِ .

(٤) فُقُورٌ ، بمعنىٰ مَفَاقِر وحوائج ، الفقر : الحاجة ج : فُقُورٌ ، يقال شكا إليه فُقُوره ، أي حاجاتهِ ، ويقال سدَّ اللهُ مَفَاقِرَه ، أي أغناه وسدّ وُجوهَ فقرهِ .
مُشعَّب : مفرق ، مشتت .

(٥) سَغَابَة : الجوع مع التعب .

:كرتُ بهم عظامٍ من لو أتيته حريباً لآساني لدى كل مركب[١]
أخي والذي إن أدعه لِمُلمَّةٍ يجبني وإن أغضبْ إلى السيف يَغضب
فلا تحسبيني بلْدماً إن نَكحته ولكنّي حُجَيَّةُ بنُ المضرِّب[٢]
رحمت بني معدان إذ ساف مالهم وحق لهم مني ورب المحصب[٣]
فإن تَقعدي فأنت بعضُ عيالنا وإن أنتِ لم ترضي بذلك فاذهبي

(حُجية بن المضرِّب ، «الحماسة»)

---

(١) حريباً ، حَرْباً (الرجلَ (ن) : سلب مالَهَ فهو حريب ج : حَرْبىٰ وحُرْبىٰ وحُرَباءُ .
(٢) البَلْدَم : السيف الّذي لا يقطع .
(٣) المُحصَّب : موضع رمي الجمار بمنىٰ ، وقيل هو الشّعب الذي مخرجه إلىٰ الأبطح بين مكة ومنىٰ ، يُنام فيها ساعة من الليل ثم يخرج إلىٰ مكة .
ساف : ساف المالِ سَوْفاً (ن) هلك .
حُقَّ لهم ، من : حُقَّ وهو حقيق به ومحقوق به ، أي خليق له .

الكَعبةُ المقدَّسة

ابن جبير[١]

البيتُ المكرَّم له أربعةُ أركان ، وهو قريب من التربيع ، وأخبرني زعيم الشَّيبيين الذي إليهم سِدانة البيت ، أن ارتفاعهُ في الهواء من الصَّفح[٢] الذي يُقابل باب الصفا ـ وهو من الحجر الأسود إلى الركن اليماني ـ تسعٌ وعشرون ذراعاً ، ومن سائر الجوانب ثمانٍ وعشرون ، وأول أركانه الركن الذي فيه الحجر الأسود ومنه ابتداء الطواف ، ويَتقهقر[٣] الطائف عنه ليمسَّ الحجر

---

(١) ابن جبير الأندلسي (٥٤٠ ـ ٦١٤ هـ).
هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ، رحالة أديب ولد في بلنسية (بأندلس). نزل بشاطبة واستفاد من أبيه وابن عبد الله الأصيلي ، صرف عنايته إلىٰ الآداب فأحرز فيها البراعة ، وتقدم في نظم الشعر الرقيق وحذق الإقراء وصناعة القريض ، تشرف بالحج وغادر إلىٰ بغداد والشام واستفاد بهما ، قال المؤرخ الكبير ابن الأبار «إنه عُنِيَ بالآداب فبلغ فيها الغاية ، وتقدم في صناعة النظم والنثر ونال بذلك دنيا ثم زهد».
أولع بالترحل والتجوال ، فزار المشرق ثلاث مرات وهي التي ألف فيها «رحلته» التي تحتوي علىٰ ما شاهده من غرائب المشاهد وعجائب البلدان وبدائع المصانع ، وهي كتاب ممتع أثير ، حافل بالمشاهد والتجارب التي اكتسبها أثناء تجواله في عجائب البلدان ورؤيته لغرائب المشاهد واطلاعه علىٰ الشؤون والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي كانت سائدة في تلك الحقبات من الزمن.
ومن كتبه «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان» وهو ديوان شعره. و«نتيجة وَجد الجوانح في تأبين القرن الصالح».

(٢) الصفح: الجانب ، ج: صِفاح.

(٣) قَهْقَرةٌ وتَقَهْقُرٌ: الرجوع إلىٰ الخلف.

جميعه ببدنه ، والبيتَ المكرم عن يساره ، وأول ما يلقىٰ بعده الركنَ العراقي ، وهو ناظرٌ إلى جهة الشمال ، ثم الركنَ الشامي وهو ناظر إلى جهة الغرب. ثم الركنَ اليماني وهو ناظر إلى جهة الجنوب ، ثم يعود إلى الركن الأسود وهو ناظر إلى جهة الشرق ، وعند ذلك يُتم شوطاً واحداً. وبابُ البيت الكريم في الصفح الذي بين الركن العراقي وركن الحجر الأسود وهو قريب من الحجر بعشرة أشبار.

وذلك الموضع الذي بينهما من صفح البيت ـ يسمى الملتزمَ ، وهو موضع استجابةٍ للدعاء ، والبابُ الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبراً ونصفِ شبر ، وهو فضّة مذهبّة ، بديعُ الصنعة ، رائق الصفة ، يستوقف الأبصار حُسناً وخشوعاً ، للمهابَةِ التي كساها اللهُ بيتهُ ، وللباب نَقَّارتان[1] من الفضة كبيرتان ، يَتعلَّق عليهما قفل الباب ، وهو ناظر للشرق ، وسعته ثمانيةُ أشبار ، وطولهُ ثلاثةَ عشر شِبراً ، وغِلظُ الحائط الذي ينطوي عليه[2] الباب خمسةُ أشبار.

وداخلُ البيت الكريم مفروشٌ بالرخام المجزَّع[3] ، وحيطانهُ كلُّها رُخامٌ مُجزَّع قد قام على ثلاثة أعمدة من السَّاج[4] مُفرطةِ الطُّول ، وبين كل عمود وعمودٍ أربعُ خُطا ، وهي على طول البيت متوسطةٌ فيه ، فأحد الأعمدة وهو أولها يُقابل نصف الصفح الذي يَحفُّ الرُّكنان اليمانيان ، وبينه وبين الصفح مقدارُ ثلاث خطا ، والعمود الثالث ـ وهو آخرها ـ يُقابل الصفح الذي يَحفُّ به الركنان العراقي والشامي ـ ودائر البيت كله من نصفه الأعلىٰ مطليٌّ بالفضة المذهبة الثخينة يُخيل للناظر إليها أنها صفيحة ذهب لِغلظها ، وهي تحفُّ بالجوانب الأربعة وتُمسك نصفَ الجدار الأعلىٰ ، وسَقفُ البيتِ مُجلَّلٌ[5]

(١) نَقَّارَة: قدر ما ينقر الطائر ، والمراد منها حلقة مُدَوَّرة يُعلَّق فيها القفل.
(٢) أي ينضم فيه الباب ، يقال: طوىٰ الصحيفة فانطوىٰ.
(٣) المُجَزَّعُ: كل ما فيه سواد أو بياض.
(٤) السَّاج: شجر من أقوىٰ الأشجار وأصلبها.
(٥) مَكْسُوٌّ: ملبوس.

بكساءٍ من الحرير الملوّن.

وظاهرُ الكعبة كلِّها من الأربعة الجوانب مكسوٌّ بستورٍ من الحرير الأخضر، وسَداها[١] قُطنٌ، وفي أعلاها رسمٌ بالحرير الأحمر مكتوب فيه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧]. وقد كُتب اسمُ الإمام الناصر لدين الله في سعةٍ مقدارها ثلاثةُ أذرع يُطيف بها كلها، قد شُكل في هذه الستور من الصَّنعة الغريبة التي ترى فيها أشكال محاريب رائعة، وكتابة مقروءة مرسومة بذكر الله تعالىٰ وبالدعاء للناصر العباسي الآمرِ بإقامتها وكل ذلك لا يُخالف لونها.

وعدد السُّتور من الجوانب الأربعة أربعةٌ وثلاثون ستراً، وفي الصَّفحين الكبيرين منها ثمانيةَ عشر، وفي الصفحين الصغيرين ستةَ عشر، وله خمسةُ مضاوٍ ليدخلَ منها الضَّوء، وعليها زجاجٌ عراقي بديع النقش أحدها في وسَط السقف، ومع كل ركن مضوى[٢]، وبين الأعمدة أقواسٌ من الفضة عددُها ثلاثَ عشرة وأحدها من ذهب.

وأولُ ما يلقىٰ الداخل على الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الأسود، وفيه صندوقان فيهما مصاحف وقد علاهما في الركن بُويبان من فضةٍ كأنهما طاقان مُلصَقان بالركن، وبينهما وبين الأرض أزيدُ من قامة، وعن يمينه الركنُ المسمَّى بزاوية العراق، وفيه بابٌ يسمى بباب الرحمة يُصعَدُ منه إلى السطح المكرم.

(رحلة ابن جبير)

---

(١) السَّدىٰ: السدىٰ من الثوب: ما مُدَّ منه.

(٢) المِضوىٰ: مكان الضوء ج مَضَاوٍ.

ساعة مع الفُضيل بن عياض

ابن الجوزي[١]

وعن الفضل بن الربيع[٢] قال: حج أمير المؤمنين الرشيد، فأتاني، فخرجت مسرعاً فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتكَ. فقال: ويحك قد حَكَّ في نفسي شيء فانظر لي رجلاً أسأله. . . .

قلت: هاهنا الفضيل بنُ عياض قال: امض بنا إليه، فأتيناه، فإذا هو قائم يُصلي يتلو آية من القرآن يُردِّدها، فقال: اقرع الباب، فقرعت الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: مالي ولأمير

---

(١) عبد الرحمن ابن الجوزي (٥٠٨ ـ ٥٩٧ هـ).
هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، كان آية من آيات زمانه، وكان يُعد من أئمة وقته في صناعة الوعظ والتاريخ والحديث والضرب على الوتر الحساس وموضع الداء، مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى «مشرعة الجوز» من محالها، يقول أبو الفرج: «كان علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف» ويقول ابن خلكان: «كان علامة عصره، إمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ» وقال الشيخ موفق الدين المقدسي: «كان إمام أهل عصره في الوعظ وصنف في فنون العلم تصانيف كثيرة».
له ثلاثمئة مصنف منها «زاد المسير في علم التفسير» و«تلبيس إبليس» و«صولة العقل على الهوىٰ» و«عجائب البدائع» و«صيد الخاطر» وغيرها من الكتب النافعة التي يرجع إليها أهل العلم والدارسون.

(٢) (١٠٥ ـ ١٨٧ هـ) شيخ الحرم المكي من أكابر العباد الصلحاء كان ثقة في الحديث، أخذ عنه الشافعي رحمه الله تعالىٰ.

المؤمنين؟ فقلت: سبحانَ الله أما عليك طاعة؟ أليس قد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس للمؤمن أن يُذل نفسه» ، فنزلَ ، ففتح البابَ ، ثم ارتقىٰ إلى الغرفة ، فأطفأ المصباح ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا فجعلنا نجول[1] عليه بأيدينا ، فسبقت كفُّ هارون قبلي إليه ، فقال: يا لها[2] من كفٍّ! ما ألينَها إن نَجتْ غداً من عذاب الله عز وجل ، فقلتُ في نفسي: لَيُكلِّمنه الليلة بكلامٍ نَقيٍّ من قلب تَقيٍّ فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله ، فقال: إن عمر بن عبد العزيز لما وُلي الخلافة دعا سالم بن عبد الله[3] ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة[4] فقال لهم: إني قد ابتُليت بهذا البلاء ، فأشيروا علي ، فعد الخلافة بلاءً وعددتَها أنتَ وأصحابك نعمةً ، فقال له سالم بن عبد الله: إن أردتَ النجاة غداً من عذاب الله (فصُم الدنيا ولْيَكُن إفطاركَ من الموت) وقال له محمد بن كعب القرظي: إن أردتَ النجاة من عذاب الله فليكن كبيرُ المسلمين عندك أباً وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً ، فوقِّر أباك ، وأكرم أخاك ، وتحنَّن على ولدك ، وقال له رجاء بن حيوة: «إن أردت النجاة غداً من عذاب الله عز وجل؛ فأحبَّ للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إذا شئت» وإني أقول لك: إنني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزلُّ فيه الأقدام ، فهل معك رحمك الله من يُشير عليك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غشي عليه ، فقلت له: ارفِق بأمير المؤمنين ، فقال: يا بن أم الربيع تقتُله أنت وأصحابك ، وأرفق به أنا؟ ثم أفاق ، فقال له: زدني رحمك الله ، فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز

---

(١) جال بالشيء جولاناً (ن): طاف به.

(٢) يا لها من كف: اللام تأتي لعدة معان: منها التعجب المجرد عن القسم ، وتُستعمل في النداء ، وهو المراد هنا.

(٣) هو سالم بن عبد الله بن الخطاب (١٠٦ هـ) أحد فقهاء المدينة السبعة ومن سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم ، توفي في المدينة المنورة.

(٤) رجاء بن حيوة (١١٢ هـ) شيخ أهل الشام في عصره من الوعاظ العلماء وهو الذي أشار علىٰ سليمان باستخلاف عمر بن عبد العزيز.

شُكي إليه فكتب عمر: يا أخي أُذكِّرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن يُنصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء، قال: فلما قرأ الكتاب، طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز، فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعتَ قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقىٰ الله عز وجل، قال: فبكى هارون بكاءً شديداً، ثم قال له: زدني رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ العباس عم المصطفىٰ ﷺ جاء إلىٰ النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أمِّرني علىٰ إمارة، فقال له النبي ﷺ: «إن الإمارة حسرةٌ وندامة يوم القيامة، فإن استطعتَ أن لا تكون أميراً فافعل» فبكى هارون بكاءً شديداً، قال له زدني رحمك الله، فقال: يا حسنَ الوجه أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجهَ من النار فافعل، وإياكَ أن تُصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ: قال: «من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة» فبكى هارون وقال له: عليك دَين؟ قال: نعم دينٌ ربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم أُلهم حُجَّتي، قال: إنما أعني دينَ العباد، قال: إنَّ ربي لم يأمرني بهذا، أمر ربي أن أوحِّده وأطيع أمره، فقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨] فقال له: هذه ألف دينار، خُذْها فأنفقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادتك، فقال: سبحان الله، أنا أدلُّك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلَّمك الله ووفقك ثم صمتَ فلم يُكلمنا، فخرجنا من عنده.

فلما صرنا على الباب، قال هارون: أبا عباس إذا دللتني علىٰ رجل، فدلني علىٰ مثل هذا، هذا سيد المسلمين، فدخلتْ عليه امرأة من نسائه فقالت: يا هذا قد ترىٰ ما نحن به من ضيق الحال، فلو قبلتَ هذا المال فتُفرجنا به، فقال لها: مثَلي ومثَلكم كمثل قومٍ لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه، فلما سمع هارون هذا الكلام قال: ندخل فعسىٰ أن يقبل المال، فلما علم الفضيل خرج، فجلس في السطح على

باب الغرفة ، فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه ، فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا قد آذيتَ الشيخ منذ الليلة ، فانصرف رحمك الله ، فانصرفنا.

(صفة الصفوة جزء ٢)

آخرُ مقتولٍ للحجّاج

ابن خلكان[١]

وكان سعيدُ بن جبير[٢] مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس[٣] لما خرج على عبد الملك بن مروان[٤] . فلما قُتل عبد الرحمن

---

(١) ابن خلكان (٦٠٨ ـ ٦٨١).
هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي ، الفاضل البارع البصير بالعربية والمتفنن فيها ، جيد القريحة ، الآية في الأدب والشعر ، ولد في إربل (بالقرب من الموصل علىٰ شاطىء دجلة الشرقي) وانتقل إلىٰ مصر ، فأقام فيها مدة ، وتولىٰ نيابة قضائها ، وسافر إلىٰ دمشق ، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام ، وعزل بعد عشر سنين ، فعاد إلىٰ مصر ، وأفتىٰ ودرس ، وأقام بها نحو سبع سنين ، وولي التدريس في كثير من مدارس دمشق.
كان شاعراً أديباً وإماماً عالماً فقيهاً ، كثير الاطلاع ، حلو المذاكرة وافر الحرمة ، فيه رياسة كبيرة ، وكان نسيج وحده في علم الأدب والتأليف ، يقول أبو العباس : «ابن خلكان هو المؤرخ الحجة والأديب الماهر» ، ويقول الذهبي : «كان إماماً فاضلاً متقناً ، علامة في الأدب والشعر وأيام الناس» ، ويقول الشيخ تاج الدين الفزاري في تاريخه : «كان قد جمع حسن الصورة وفصاحة المنطق وغزارة الفضل وثبات الجأش ونزاهة النفس».
وكتابه «وفيات الأعيان» معجم تاريخي شهير يمتاز بغزارة المادة وكثرة الفوائد وحسن العبارة ، والاقتصاد في الوصف ، والبعد عن المبالغة ، ويدل علىٰ ما كان يتحلىٰ به ابن خلكان من التفرد في علم الأدب والتاريخ.

(٢) (٤٥ ـ ٩٥ هـ) تابعي كان أعلمهم علىٰ الإطلاق ، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر.

(٣) (٧٠٤ هـ) هو الكندي لجأ بعد الانهزام إلىٰ ملك الترك في سجستان حيث قتل.

(٤) (٤٦ ـ ٨٦ هـ) الخليفة الأموي الخامس المعروف.

وانهزم أصحابه من دير الجماجم[١] ، هرب فلحق بمكة ، وكان واليها يومئذ خالد بن عبد الله القسري[٢] ، فأخذه وبعث به إلى الحجاج بن يوسف الثقفي[٣] مع إسماعيل بن واسط البجلي ، فقال له الحجاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير ، قال: بل أنت شقي بن كُسير ، قال: بل أمي أعلم باسمي منك ، قال: شَقيتْ أمك وشَقيتَ أنت ، قال: الغيب يعلمه غيرك ، قال : لأُبدلنك بالدنيا ناراً تتلظىٰ ، قال: لو علمتُ أن ذلك بيدك لاتخذتُك إلهاً ، قال: فما قولك في محمد؟ ، قال: نبيُّ الرحمة وإمام الهدى ، قال: فما قولك في علي أهو في الجنة أو هو في النار؟ قال: لو دخلتُها وعرفتُ من فيها عرفتُ أهلها ، قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لستُ عليهم بوكيل ، قال: فأيهم أعجب إليك؟ ، قال: أرضاهم لخالقي ، قال: فأيهم أرضىٰ للخالق؟ قال: عِلْم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم ، قال: أُحِبُّ أن تصدقني ، قال: إن لم أحبك لن أكذبك ، قال: فما بالك لا تَضحك؟ قال: وكيف يضحك مخلوق خُلق من طين والطين تأكلهُ النار؟ ، قال: فما بالنا نضحك؟ قال: لم تستوِ[٤] القلوب.

ثم أمر الحجاج باللؤلؤ ، والزبرجد ، والياقوت ، فجمعه بين يديه ، فقال سعيد: إن كنت جمعتَ هذا لتتَّقي به فزع يوم القيامة فصالحٌ ، وإلا ففَزعةٌ واحدة تَذهل كل مرضعة عما أرضعت ، ولا خير في شيء جُمع للدنيا إلا ما طاب وزكا ، ثم دعا الحجاجُ بالعود والناي ، فلما ضرب بالعود ونُفخ في الناي بكى سعيد ، فقال: ما يبكيك؟ هو اللعب! قال سعيد: هو

(١) دَيْرُ الجَمَاجِم: موضع في العراق قريب من الكوفة.
(٢) (١٢٦ هـ) والي العراق ولاه الخلفة الوليد علىٰ مكة ، واتخذ مقره في واسط ، ونشأ علىٰ مذهب الحجاج.
(٣) (٩٥ هـ) قائد وخطيب ولد في الطائف ، اشتهر بولائه للبيت الأموي ، ولاه عبد الملك بن مروان إمرة جيشه ، فقضىٰ علىٰ ابن الزبير وابن الأشعث ، وتولىٰ مكة والمدينة والطائف والعراق ، وسع حدود الإمبراطورية العربية في آسيا الوسطىٰ ، قضىٰ علىٰ الخوارج ، وشكل القرآن الكريم.
(٤) الاستواء: هو التساوي.

الحزن ، أما النفخ ، فذكرني يوماً عظيماً يوم النفخ في الصور ، وأما العود فشجرة قطعت في غير حق ، وأما الأوتار فمن الشاة تُبعث معها يوم القيامة ، قال الحجاج: ويلك يا سعيد ، قال: لا ويل لمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة ، قال الحجاج: اختر يا سعيد أيَّ قتلةٍ أقتلك ، قال: اختر لنفسك يا حجاج ، فوالله لا تَقتلني قتلةً إلا قَتلك مثلها في الآخرة ، قال: أفتريد أن أعفوَ عنك؟ قال: إن كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر ، قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه ، فلما خرج ضحك ، فأُخبر الحجاج بذلك ، فرده ، وقال: ما أضحكك؟ قال: عجبتُ من جراءتك على الله وحِلم الله عليك ، فأمر بالنطع فبُسط وقال: اقتلوه فقال سعيد: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩] قال: وجِّهوا به لغير القبلة ، قال سعيد: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥] ، قال: كُبُّوه لوجهه ، قال سعيد: أما إني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: وأن محمداً عبده ورسوله ، خُذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة ، ثم دعا سعيد فقال: اللهم لا تُسلِّطه على أحد يَقتلهُ بعدي.

وكان قَتلهُ في شعبان خمس وتسعين للهجرة بواسط[1] ، ومات الحجاج بعده في شهر رمضان من السنة المذكورة ولم يُسلِّطه الله عز وجل بعده على قتل أحد إلىٰ أن مات ، وقال أحمد بن حنبل: قَتل الحجاجُ سعيد بن جبير وما علىٰ وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه.

ثم مات الحجاج بعده في شهر رمضان من السنة ، وقيل بل مات بعده بستة أشهرٍ ، ولم يسلطه الله تعالىٰ بعده علىٰ قتل أحدٍ حتى مات ، ولما قتله سال منه دم كثير ، فاستدعىٰ الحجاج الأطباء وسألهم عنه ، وعمن كان قتله قبله ، فإنه كان يسيل منهم دمٌ قليل ، فقالوا له: هذا قتلتَه ونفسُه معه ،

(١) وَاسِط: مدينة في العراق بين البصرة والكوفة ، أنشأها الحجاج (٧٠٢ ـ ٧٠٥) كانت قاعدة العراق العجمي في العهد الأموي ، أخذت بالانحطاط في العهد العباسي.

والدم تَبعٌ للنفس ، ومن كنت تقتله قبله ، كانت نفسُه تذهب من الخوف ، فلذلك قلَّ دمهم.

وقيل للحسن البصري: إن الحجَّاج قد قتل سعيد بن جبير ، فقال: اللهم ائت علىٰ فاسقِ ثقيف ، واللهِ لو أنَّ مَن بين المشرق والمغرب اشتركوا في قتله ، لكبَّهم الله عز وجل في النار.

ويقال: إن الحجاج لما حضرتْهُ الوفاة كان يَغيب ويُفيق ، ويقول: مالي ولسعيد بن جبير؟! وقيل: إنه في مُدة مرضه ، كان إذا نام رأىٰ سعيد بن جبير ، آخذاً بمجامع ثوبه ويقول له: يا عدو الله ، فيم قتلتني؟ فيستيقظ مذعوراً ويقول: مالي ولسعيد بن جبير؟ ويقال: إنه رُؤي الحجاج في المنام بعد موته ، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني بكل قتيل قتلته قتلةً ، وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة.

(وفيات الأعيان لابن خلكان)

صَلَفُ مَلِك (١)

الأغـانـي (٢)

قال أبو عمرو الشيباني: لما أسلم جَبلة بن الأيهم الغساني(٣) وكان من ملوك آل جفنة(٤)؛ كتب إلىٰ عمر رضي الله عنه يستأذن في القدوم عليه، فأذن له عمر، فخرج إليه في خمس مئة من أهل بيته من عَكّ(٥) وغسان، حتى إذا كان علىٰ مرحلتين كتب إلى عمر يُعلمه عن قدومه، فسُر عمر رضوان الله عليه، وأمر الناس باستقباله، وبعث إليه بأنزال(٦)، وأمر جبلة

(١) الصلف: التكبر والترفع.

(٢) كتاب «الأغاني» لمؤلفه أبو الفرج الأصبهاني ثروة لغوية قيّمة، وذخيرة عظيمة من ذخائر الأدب العربي، ولولاه لبقيت نواح جميلةٌ للغة العربية مطوية مغمورة علىٰ غُرها وبهائها، ولحُرمنا تلك اللغة الأثيرة التي كان يتكلم بها أهل اللغة في منازلهم وعلىٰ موائدهم، وفي مواضع ابتهاجهم وارتياحهم، وحسبنا شهادةً ما قال فيه الصاحب بن عباد: «هو مشحون بالمحاسن المنتخَبة والفِقر الغريبة، فهو للزاهد فكاهة، وللعالم مادة وزيادة، وللبطل رحلة وشجاعة، وللمُتظرف رياضة وصناعة، وللملك طِيبة ولذاذة».

(٣) جبَلَةُ بن الأَيهَم الغَسَّاني (٢٠ هـ) يعتبره مؤرخو العرب آخر ملوك الغَسَاسِنَة، شارك الروم في معركتي دَومة الجندل واليرموك.

(٤) آل جَفْـنَـةَ (الغساسنة): سُلالة عربية يمنية الأصل، اعتنقوا المسيحية المُونُوفِيزِيّة في نهاية القرن الثالث. عملوا في الجيش البِيزَنْطِي.

(٥) عَكّ: قبيلة عربية، مساكنهم في تهامة اليمن شمالي جدة، كانوا في طليعة أهل الردة، ناصروا عمرو بن العاص بفتح مصر.

(٦) النُّـزُل (بضمتين) والنُّـزْل (بسكون الزاي) ما هُيِّيءَ للضيف أن ينزل عليه، الطعام والفضل، ج: أنزال.

مئتي رجل من أصحابه فلبسوا السلاح والحرير ، وركبوا الخيول معقودة أذنابها ، وألبسوها قلائد الذهب والفضة ، ولبس جبلة تاجه وفيه قرطا مارية وهي جدته ، ودخل المدينة ، فلما انتهىٰ إلى عمر رحب به . وألطفه وأدنى مجلسه ، ثم أراد عمر الحج فخرج معه جبلة ، فبينا هو يطوف بالبيت وكان مشهوداً بالموسم؛ إذ وطىء إزاره رجلٌ من بني فزارة[1] فانحلَّ ، فرفع جبلة يده؛ فهشم أنف الفزاري ، فاستعدىٰ عليه عمرَ رضوان الله عليه ، فبعث إلى جبلة فأتاه فقال: ما هذا؟ قال: نعم ، يا أمير المؤمنين إنه تعمَّد حل إزاري ، ولولا حُرمة الكعبة لضربتُ بين عينيه بالسيف ، فقال له عمر: قد أقررت ، فإما أن تُرضي الرجل ، وإما أن أقيده[2] منك ، قال جبلة: ماذا تصنع بي؟ قال: آمر بهَشم أنفك كما فعلت ، قال: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين وهو سُوقة[3] وأنا ملك؟! قال: إن الإسلام جمعك وإياه فلست تَفضُله إلا بالتقىٰ والعافية ، قال جبلة: قد ظننت يا أمير المؤمنين أني أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية ، قال عمر: دع عنك هذا ، فإنك إن لم تُرض الرجل أقدتُه منك ، قال: إذاً أتنصَّر ، قال: إن تنصَّرتَ ضربتُ عنُقك لأنك قد أسلمت ، فإن ارتددت قتلتُك ، فلما رأىٰ جبلة الصدق من عمر قال: أنا ناظرٌ في هذا ليلتي هذه ، وقد اجتمع بباب عمر من حي هذا وحي هذا خلق كثير حتى كادت تكون بينهم فتنة ، فلما أمسوا أذن له عمر في الانصراف حتى إذا نام الناس وهدؤوا تحمَّل جبلة بخيله ورَواحله إلى الشام ، فأصبحت مكة وهي منهم بلاقعُ[4] ، فلما انتهى إلى الشام تحمل في خمسمئة رجل من قومه حتى أتىٰ قسطنطينية ، فدخل على هرقل فتنصَّر هو وقومه ، فسُر هرقل بذلك جداً ، وظنَّ أنه فتح من الفتوح عظيم ، وأقطعه[5]

---

(١) بنو فَزَارةَ: من عرب الشمال ، عبدوا الوثن «حلال» ثم أسلموا سنة ٦٣٠ م.

(٢) أقاد القاتل بالقتيل: قتله به بدلاً منه ، القَوَدُ: القصاص.

(٣) السُّوقَة (بالضم): الرعية للواحد والجمع والمذكر أو المؤنث ، وقد يجمع سُوَقاً كصُرَدٍ ، سموا سُوْقَة لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم.

(٤) البلقع: الأرض القفر ، ج بَلاَقِع.

(٥) أَقْطَعَهُ قطيعةً: أي منحه قطعة أرض من الخراج ، أو جعل له غلتها رزقاً.

حيث شاء ، وأجرى عليه من النُّزل ما شاء ، وجعله من محدثيه وسُمّاره ، ثم إن عمر رضي الله عنه بدا له أن يكتب إلىٰ هرقل يدعوه إلىٰ الله جل وعز وإلىٰ الإسلام ، ووجَّه إليه رجلاً من أصحابه وهو جُثامة بن مساحق الكِناني ، فلما انتهىٰ إليه الرجل بكتاب عمر أجاب إلى كل شيء سوىٰ الإسلام ، فلما أراد الرسول الانصراف قال له هرقل : هل رأيتَ ابن عمك هذا الذي جاءنا راغباً في ديننا؟ قال : لا ، قال : فالقه ، (قال الرجل) فتوجهت إليه فلما انتهيت إلى بابه رأيت من البهجة والحسن والسرور ما لم أر بباب هرقل مثله ، فلما أدخلت عليه إذا هو في بهوٍ[١] عظيم وفيه من التصاوير ما لا أُحسن وَصفه ، وإذا هو جالس على سرير من قوارير[٢] قوائمه أربعة أسد من ذهب ، وإذا هو رجل أصهب[٣] سبال[٤] وعُثنون[٥] ، وقد أمر بمجلسه فاستقبل به وجه الشمس ، فما بين يديه من آنية الذهب والفضة يلوح فما رأيت أحسن منه . فلما سلَّمتُ رد السلام ورحب بي وألطفني ولامني على تركي النزول عنده ، ثم أقعدني علىٰ شيء لم أثبته ، فإذا هو كرسي من ذهب فانحدرت عنه ، فقال : مالك؟ فقلت : إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا ، فقال جبلة أيضاً مثل قولي في النبي ﷺ حين ذكرته وصلىٰ عليه ، ثم قال : إنك يا هذا إذا طهرت قلبك لم يضرك ما لبسته ولا ما جلست عليه ، ثم سألني عن الناس وألحف في السؤال عن عمر ، ثم جعل يفكر حتى رأيت الحزن في وجهه ، فقلت : ما يمنعك من الرجوع إلى قومك والإسلام؟ قال : أبعد الذي قد كان؟ قلت : ارتد الأشعث بن قيس[٦]

---

(١) البَهْوُ : البيت المقدم أمام البيوت ج أبهاء وبُهُوٌّ .

(٢) شجر يشبه الدُّلب تُعمَلُ منه الرِّحال والموائد .

(٣) من في شعره حُمرة أو شُقرة .

(٤) السَّبَلَةُ : ما علىٰ الشارب من الشعرِ ، أو مقدم اللحية ، ج : سِبَال .

(٥) العُثْنُونُ : (بضم العين) اللحية ، ج : عَثانين .

(٦) (٢٣ ق هـ ـ ٤٠ هـ) الأشعث الكندي ، أمير كندة في الجاهلية والإسلام أسلم وشهد اليرموك ، امتنع عن تأدية الزكاة في خلافة أبي بكر فقبض عليه ، وأرسل موثوقاً إلىٰ أبي بكر في المدينة ، ولكنه أطلقه وزوَّجه أخته أم فروة ، فأقام في المدينة وشهد =

ومنعهم الزكاة وضربهم بالسيف ثم رجع إلى الإسلام ، فتحدثنا ملياً ثم سلمتُ عليه وانصرفت ، فلما قدمت علىٰ عمر سألني عن هرقل وجبلة ، فقصصت عليه القصة من أولها إلىٰ آخرها ، فقال : أو رأيتَ جبلة يشرب الخمر؟ قلت : نعم ، قال : أبعده الله تعجل فانية اشتراها بباقية ، فما ربحت تجارته ، وذكر الزبير بن بكار أن معاوية لما ولي بعث إلىٰ جبلة ، فدعاه إلىٰ الرجوع إلىٰ الإسلام ووعده إقطاع الغوطة[١] بأسرها ، فأبىٰ ولم يقبل.

(الأغاني)

= الوقائع وأبلىٰ البلاء الحسن ، روىٰ له البخاري ومسلم.

(١) الغُوطَةُ: هي البساتين المحدقة بدمشق ترتوي من نهر «بردىٰ» شهيرة بفاكهتها «المشمش».

الفرزدق وإبليس[1]

أطعتُك يا إبليسُ سبعين حِجةً فلما انتهى شيبي وتم تمامي[2]
فررتُ إلى ربي وأيقنتُ أنني ملاقٍ لأيام المنونِ حِمامي[3]
ألا طالما قد بتُّ يُوضعُ ناقتي أبو الجِن إبليسُ بغير خِطام[4]
يُبشرني أنْ لن أموت وأنه سيخلدني في جنة وسلام

(١) الفرزدق (١١٤ هـ) نشأ في بادية بصرة ، وشب وترعرع علىٰ البداوة وكلها جفاء وشكيمة ، قيل إنه نظم الشعر صغيراً ، وهو ثالث الشعراء المقدمين في صدر الإسلام وهم الأخطل والفرزدق وجرير ، وهو يمتاز من بينهم بالفخر الذي يبني عليه أساس هجائه .
في هجائه لونان: لون يقوم علىٰ فُحش الألفاظ والمعاني وهتك الأعراض ، ولون يقوم علىٰ تغلب روح الفخر فيه علىٰ روح الهجاء . تتَّسم أشعاره باندفاع عاطفي قوي ترتكز عليه ميزته وتستند إليه عبقريته .
وشعره جزل فخم لكنه صلب الألفاظ خشنها ، وكان المفضَّل الضبيُّ يُقدمه علىٰ سائر شعراء زمانه ، وقال فيه أبو عبيدة: «لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب» وقال أبو الفرج الأصبهاني: «الفرزدق مقدم علىٰ الشعراء الإسلاميين ، ومحله في الشعر أكبر من أن يُنَبه عليه بقول» .
وقال جرير : «الفرزدق نبعة الشعر» .
وشعره كذلك وثيقة تاريخية لكثير من الحوادث التي وقعت في أيامه ، وستلمسون كل ذلك في هذه القصيدة التي يهجو فيها إبليس .
(٢) حِجَّة: سَنة ، ج: حِجَج ، تم تمامي: تمت حياتي وبلغت نهايتي .
(٣) أيام المَنُون: حوادث الدهر وأوجاعه ، الحِمَامُ: الموت .
(٤) طالما: كثيراً ما ، ما من حروف الصلة مثل قولك: أينما تجلس أجلس ، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ ، ألا: من حروف التنبيه ، يُوضِع ناقتي: أوضَعَ الناقة: جَعَلَها تُسرع في سيرها .

فقلت له هلاً أُخيَّكَ أخرجتْ يَمينُك من خُضر البحورُ طوامي[١]
رميت به في اليمِّ لما رَأيته كفِرقة طَودي يَذبُل وشمام[٢]
وآدم قد أخرجته وهو ساكن وزوجتَه من خير دار مقام
وأقسمتَ يا إبليس أنك ناصح له ولها إقسام غير إثام[٣]
سأجزيك من سوءات ما كنت سقتني إليه جروحاً فيك ذات كِلام[٤]
تُعيّرها في النار والنار تلتقي عليك بزقُّوم لها وضرام[٥]

(١) أُخَيَّك: تصغير «أخاك» أراد به فرعون الذي غرق مع جيشه في البحر الأحمر.
هَلاَّ: كلمة تحضيض مركبة من هل ولا، فإن دخلت على الماضي أفادت اللوم على ترك الفعل نحو «هلا آمنت».
طَوَامٍ: طما يطمو طُمُوّاً (ن) وطمى يطمي طَمْياً (ض): البحر امتلأ وفاض وطغى، وهي طامية، ج طَوَامٍ.
(٢) كفرقةِ طَوْدَي: أي كقطعة مرتفعة من جبلي يَذْبُلَ وشَمَام وهما في أرض باهلة بالحجاز.
(٣) غير إثام: الإثام: الإثم أي خالياً من الإثم.
(٤) سوءات: السوءة: الخلة القبيحة.
الكَلم: الجرح، ج كلام وكلوم.
(٥) تُعَيّرها: من عَيَّرِ الدراهم أي وَزنها، يريد أنك تمتحن جراحك بالنار وتذوقها بها.
الزَّقُّوم: شجرة جهنم.
الضِّرَام: الاشتعال والتلهب.

عمر بن عبد العزيز وبيت مال المسلمين

الـدينـوري[١]

استفتح عمرُ ولايته ببيع أموال سليمان[٢] ورِباعه[٣] وكسوته وجميع ما كان يملكه؛ فبلغ ذلك أربعةً وعشرين ألف دينار ، فجمع ذلك كله وجعله في بيت المال ، ثم دخل على زوجته فاطمة ابنة عبد الملك فقال لها:

---

(١) ابن قتيبة الدينوري (٢٣١ ـ ٢٧١ هـ).
مسلم بن قتيبة الدينوري النحوي اللغوي ، صاحب «المعارف» ، و«أدب الكاتب» ، كان نحوياً ولغوياً بارعاً ، فاضلاً ثقة ، حدث عن إسحاق بن راهويه وأبي حاتم وغيرهما ، وروىٰ عنه ابنه أحمد ودرستويه ، ومن مؤلفاته الشهيرة تفسير القرآن الكريم ، وغريب الحديث ، وعيون الأخبار ، وطبقات الشعراء ، وكتاب إعراب القراءات وغيرها ، أقام مدة بالدينور قاضياً فنُسب إليها ، و«قتيبة» تصغير قَتبة أي معىٰ ، ج: أقتاب ، والدينور بلدة من بلاد الجبل عند قرميسين (مدينة بالعراق) خرج منها خلق كثير ، يقول ابن خلكان: «كان فاضلاً ثقة ومتقناً في الأدب بارعاً في اللغة والنحو».
وكتابه «الإمامة والسياسة» كتاب قيّم جليل يستهوي كل أديب وعالم لبيب ، فهو فريد في موضوعه رشيق في أسلوبه ، جمع فيه المؤلف من طرائف الأخبار ونوادر التاريخ وضروب الآراء ونُكت السياسة المهمة التي تتعلق بالإمامة والسياسة ، مع ما أضفىٰ عليه لون الخطب الرقيقة والرسائل البديعة ونوابغ الكلم ، كما أن الكتاب يتحلّىٰ بوفرة المادة ورشاقة الأسلوب وجمال التعبير وروعة البيان مما زاد أناقة الكتاب ، وقيمته ، وجعله حاجة الأدباء ، وحجة الباحثين ، وزاد الدارسين.

(٢) هو سليمان بن عبد الملك بن مروان (٥٤ ـ ٩٩ هـ) الخليفة الأموي كان عاقلاً فصيحاً طموحاً إلىٰ الفتح والانتصار.

(٣) الرَّبع: الدار ، الموضع الذي يرتبعون فيه في الربيع ، ج: رِباع ورُبُوع.

يا فاطمة ، فقالت: لبيك يا أمير المؤمنين ، فجعل يبكي ، وكان لها محباً وبها كلفاً[١] ، ثم استفاق من بكائه فقال لها: اختاريني أو اختاري الثوب الذي عمل لك أبوك ، وكان قد عمل لها أبوها عبد الملك ثوباً منسوجاً بالذهب منظوماً بالدر والياقوت أنفق عليه مئة ألف دينار ، فقال لها: إن اخترتني فإني آخذ الثوب فأجعله في بيت المال وإن اخترتِ الثوب فلستُ لك بصاحب ، فقالت: أعوذ بالله يا أمير المؤمنين من فراقك ، لا حاجة لي بالثوب ، فقال عمر: وأنا أفعلُ بكِ خصلة ، أجعل الثوب في آخر بيت المال وأنفق ما دونه ، فإن وصلتُ إليه أنفقته في مصالح المسلمين وإنما هو من أموال المسلمين وأنفقت فيه ، وإن بقي الثوب ولم أحتج إليه فلعلَّ أن يأتي بعدي من يرده إليك ، قالت: افعل ما بدا لك ، ثم دخل عليه ابنٌ له وعليه قميص قد تَذَعْذَعَ[٢] ، فقال له عمر: رَقِّع قميصك يا بني ، فوالله ما كنت قط بأحوج إليه منك اليوم.

ذكروا عن عبد الأعلىٰ بن أبي المشاور ، أنه أخبرهم قال: قدم جرير[٣] شاعر أهل العراق وأهل الحجاز علىٰ عمرَ أوَّل ما استُخلِف ، فدخل عليه وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، ثم قال: إنَّ الخلفاء كانت تتعاهد فيَّ فيما مضىٰ بجوائز وصلات ، ثم أنشأ يقول:

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلَفنا ... من الخليفةِ ما نَرجو من المطر

وقال:

كم باليمامةِ[٤] من شعثاءَ[٥] أرملة[٦] ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

---

(١) الكِلْف: العاشق الودود.
(٢) تبدَّد وتفرق.
(٣) أحد الأعاظم من الشعراء الأمويين. اشتهر بالهجاء لا سيما هجو خصميه الأخطل والفرزدق.
(٤) اليمامة: بلاد وسط الجزيرة العربية وهي اليوم واحة في المملكة العربية السعودية ينمو فيها النخيل.
(٥) الأشعث: مُغبر الرأس ، مؤنث شَعْثاء ، ج: شُعث.
(٦) أَرملَة: التي مات عنها زوجها ، ج أَرامِل وأَرَامِلَةٌ ، وهو أرملُ وهي أرملة.

يَدعوك دعوة ملهوفٍ كأنَّ به خبلاً[١] من الجن أو مسّاً من البشر

وقال:

هذي الأرامل قد قضَّيتَ حاجتها فَمنْ لحاجةِ هذا الأرملِ الذكر

وقال:

أنتَ المُبارك والمهديُّ سيرتهُ تعصي الهوى وتَقوم الليل بالسُّور

قال: فبكى عمر وهمَلت عيناه[٢]، وقال: ارفعْ حاجتك إلينا يا جرير. قال جرير: ما عودتني الخلفاءُ قبلك، قال: وما ذلك؟ قال: أربعةُ آلاف دينار وتوابعها من الحُملان[٣] والكسوة، قال عمر: أمن أبناء المهاجرين أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أبناء الأنصار أنت؟ قال: لا، قال: أفقير أنت من فقراء المسلمين؟ قال: نعم، قال: فأكتبُ لك إلى عامل بلدِك أن يُجري عليك ما يجري على فقير من فقرائهم، قال جرير: أنا أرفعُ من هذه الطبقة يا أمير المؤمنين، قال: فانصرف جرير، فقال عمر: رُدوه عليَّ، فلما رجع قال له عمر: قد بقيتْ خصلة أخرىٰ، عندي نفقةٌ وكسوة أعطيك بعضها، ثم وصلها بأربعة دنانير فقال: وأين تقع مني هذه يا أمير المؤمنين؟! فقال عمر: إنها والله لمن خالص مالي، ولقد أجهدتُ لك نفسي، فقال جرير: والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مالٍ كسبته، ثم خرج فلقيه الناس فقالوا له ما وراءك؟ قال: جئتكم من عند خليفة يُعطي الفقراء، ويمنع الشعراء وإني عنه لراضٍ.

(«الإمامة والسياسة» لابن قتيبة).

---

(١) الخَبَل: الجنون.

(٢) هملت العين هَمْلاً وهَمَلاَناً (ض، ن): سالت وفاضت.

(٣) الحَمَل (محركة): الخروف أو هو الجذع من أولاد الضأن فما دونه، ج: حُمْلان وأحمال.

إحياءُ الموءودات

قال صَعصعةُ جَدُّ الفرزدق: خرجت باغياً ناقتين لي، فرُفعتْ لي نارٌ فسِرتُ نحوها وهَممتُ بالنزول. فجعلتِ النار تضيء مرةً وتخبو أخرىٰ، فلم تزل تفعلُ ذلك حتى قلت: اللهم لكَ عليَّ إن بلَّغتني هذه النار ألا أجد أهلها يُوقدون لكُربة يقدِرُ أحدٌ من الناس أن يُفرِّجها(١) إلا فرجتُها عنهم.

فلم أسر إلا قليلاً حتى أتيتُها فإذا حي من بني أنمار(٢)، وإذا بشيخ حادِرٍ(٣) أشعرَ(٤) يُوقدها في مقدم بيته، والنساء قد اجتمعنَ إلى امرأة ماخِضٍ(٥) قد حبَسْتهُنَّ ثلاث ليال، فسلَّمتُ، فقال الشيخ: من أنت؟ قلت: أنا صعصعةُ بن ناجية، قال: مرحباً بسيدنا، ففيمَ أنت يا بن أخي؟ فقلتُ: في بغاء ناقتين لي، عُميَ عليَّ أثرهما فقال: قد وجدتهما بعد أن أحيا الله بهما أهل بيت من قومك، هما في أدنىٰ الإبل، قلتُ: ففيمَ تُوقد نارَك منذ الليلة؟ قال: أُوقدها لمرأةٍ ماخضٍ قد حبسَتْنا منذ ثلاث ليال، وتكلمتِ النساء، فقلن: قد جاء الولد، فقال الشيخ: إن كانَ غلاماً؛ فوالله

(١) فَـرَّج اللهُ الغمَّ يفَرِجُه: كشفه وفرّجه (ض).

(٢) بنو أنمار: أنمار: هو أنمار بن أراس بن عمر، جد جاهلي قديم من نسله بنو خثعم وبجيلة وعبقر وعلقمة.

(٣) حادر: حسن جميل.

(٤) أشعر: كثير الشعر.

(٥) من النساء التي دنا وقت الولادة منها.

ما أدري ما أصنع به ، وإن كانتْ جارية فلا أسمعنَّ صوتها إني أقتلها ، فقلت : يا هذا ذَرْها ، فإنها ابنتُك ورزقُها علىٰ الله ، فقال : أقتُلها ، فقلتُ : أنشدك الله[١] ، فقال : إني أراكَ بها حفياً[٢] فاشترها مني ، فقلت : إني أشتريتها منك ، فقال : ما تُعطيني؟ قلت : إحدىٰ ناقتي ، قال : لا ، قلتُ : فأَزيدُك الأخرىٰ ، فنظر إلى جملي الذي تحتي فقال : لا ، إلا أن تَزيدني جملَكَ هذا ، فإني أراه حسنَ اللون شاب السِّن ، فقلت : هو لكَ والناقتان ، علىٰ أن تُبلِّغني أهلي عليه ، قال : قد فعلتُ ، فابتعتُها منه بلَقُوحين وجمل ، وأخذتُ عليه عهدَ الله وميثاقَه ليُحسِننَّ بِرَّها وصلتها ما عاشتْ حتى تَبينَ منه أو يُدركها الموت .

فلمَّا برزتُ من عنده حدَّثتني نفسي ، وقلت : إن هذه المَكرُمة ما سبقني إليها أحد من العرب ، فآليتُ آلا يئد أحد بنتاً له إلا اشتريتُها منه بلَقوحين وجمل ، فبعث الله عز وجل محمداً عليه السلام وقد أحييتُ مئة موءودة إلا أربعاً ، ولم يشاركني في ذلك أحد حتى أنزل الله تحريمه في القرآن .

وقد فخر بذلك الفرزدق في عدة من شعره ، ومنها قصيدتُه التي أولها :

أبي أحد الغيثين صعصعةُ الذي ... متى تَخلُف الجوزاء والدلو[٣] يُمطر

أجارَ بناتِ الوائدين ومن يُجر ... على الفَقر يعلم أنه غير مخفر[٤]

أنا ابنُ الذي رد المنيةَ فضلُهُ ... فما حسبٌ دافعتُ عنه بمُعور[٥]

(الأغاني)

---

(١) نشد بالله نَشْداً ونِشْدَة ونِشْدَاناً (ن) : استحلف ، وفلاناً نَشْداً : قال له : أَنشُدُك اللهَ أي أسألك بالله .

(٢) حَفِي به حَفَاوة (س) : بالغ في الإكرام وإظهار السرور فهو حفي .

(٣) برجان في السماء تسببان المطر ، والجوزاء سميت بذلك لاعتراضها في جوز السماء ، أي وسطها .

(٤) نقض عهده وغدره .

(٥) أعورَ الشيءُ : بدت عورته ، الشيء المُعوِر : لا حافظ له ، والرجل المُعوِر : قبيح السيرة .

الصُّورةُ والسِّيرة

عباس بن مرداس[١]

تَرى الرجلَ النحيفَ فتَزدريه ... وفي أثوابه أسدٌ مَزيرٌ[٢]
ويُعجبكَ الطَّريرُ فتبتَليه ... فيُخلفُ ظنَّكَ الرجلُ الطريرُ[٣]
فما عظمُ الرجالِ لهمْ بفخرٍ ... ولكنْ فخرُهم كرمٌ وخِيرُ
بُغاثُ الطيرِ أكثرُها فِراخاً ... وأمُّ الصقرِ مِقْلاتٌ نَزورُ[٤]
ضِعافُ الطيرِ أطولُها جُسوماً ... ولم تَطُلِ البُزاةُ ولا الصقورُ
لقد عَظُمَ البعيرُ بغيرِ لُبٍّ ... فلم يستغنِ بالعِظَمِ البعيرُ
يُصرِّفُه الصبيُّ بكلِّ وَجْهٍ ... ويَحبسُه على الخَسْفِ الجريرُ[٥]

---

(١) عباس بن مرداس (نحو ١٨ هـ).
عباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي من مصر ، شاعر فارس من سادات قومه ، أمه الخنساء الشاعرة ، أدرك الجاهلية والإسلام وأسلم قبيل فتح مكة ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، كان بدوياً قحاً ، لم يسكن مكة ولا المدينة ، وكان ينزل في بادية البصرة ، مات في خلافة عمر.

(٢) المَزِير: شديد القلب ، النافذ في الأمور.
في أثوابه: أي في باطنه ، يريد أنك إذا فتَّشت عنه واستشففتَ ما وراء ظاهره وجدتَه أسداً قوياً مرهوب الجانب.

(٣) الرجل الطَّرير: ذو طُرَّةٍ وهيئة حسنةٍ وجمال.

(٤) بُغَاث: من طير السماء ، ويقال: وهو كل طائر ليس من جوارح الطير وهو اسم للجنس من الطير الذي يصاد ، ج بُغُثٌ.
المِقْلاَتُ: التي لا يعيش لها ولد وقد أقلتت ، وقيل: هي التي تلد واحداً ثم لا تلد بعد ذلك ، والاسم القَلَت ، وهو الهلاك ، والمقلات: مفعال منه. النَّزُور: المرأة القليلةُ الولدِ واللبنِ ، واستعمل ذلك في الطير توسعاً.

(٥) الخسْف: الهوان والإذلال ، وأصله أن تُحبَس الدابةُ على غير عَلَفٍ ثم استعير فوضع موضع الهوان.

وتَضربهُ الوليدةُ بالهراوَى فلا غِيَرٌ لديه ولا نكير[1]
فإن أكُ في شراركمُ قليلاً فإني في خياركم كثير
(الحماسة)

= الجَرِير: حبل من أدمٍ يُخطَم به البعيرُ ، ج: أَجِرَّة وجُرَّان.

(١) الهِرَاوة: العصا ، والجمع هَرَاوَى.
الغِيَرُ: من تغير الحال وهو اسم بمنزلة العِنَب ، ويجوز أن يكون جمعاً ، مفرده غِيَرَةٌ ، وغاره من أخيه يغيره غَيْراً: وَدَاهُ (أعطاه الدية) والاسم منها الغِيْرَةَ ، والجمع الغِيَر.

تدبير حرب

- ١ -

ابن المقفع[١]

قال بيدبا: زعموا أنه كان في جبل من الجبال شجرةٌ من شجر الدَّوح[٢] ، فيها وِكرُ ألفِ غُراب ، وعليهن والٍ من أنفسهن ، وكان عند هذه الشجرة كهفٌ[٣] فيه ألفُ بومةٍ ، وعليهنَّ والٍ منهن ، فخرج ملك البوم

---

(١) عبد الله بن المقفع (١٤٢هـ).
هو عبد الله بن المقفع الفارسيُّ الأصلِ ، العربيُّ الدين واللغةِ والحاسيةِ ، ولد بفارس ، ونشأ فيها على الثقافة الفارسية ، ثم قدم إلى البصرة مركز الثقافة العربية ، فاتصل بعلمائها ، وجالس شعراءها وأدباءها ، فأدرك من كل هذا قسطاً وافراً من جمال الأدب وروعة البيان وجزالة التعبير وفخامة الأسلوب.
وكان آية في الترجمة وكتابة الرسائل وكتاب «كليلة ودمنة» نسخة صادقة للأصل ومثال خالد فريد للترجمة ، قال فيه ابن سلام: «سمعت مشائخنا يقولون: لم يكن في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع» ، وعدَّه ابن النديم من مقدمة بلغاء الناس العشرة ، وأقرَّ له الجاحظ بالفضل والتقدم فقال: «ومن المعلمين ثم البلغاء المتقدمين عبد الله بن المقفع ، كأن مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة».
والكتاب «كليلة ودمنة» الذي وضعه بيدبا الفيلسوف الهندي بالسنسكريتية ، ونقله ابن المقفع من الفارسية إلى العربية ، كتاب يحتوي على مجموعة من الحكم والقصص الأخلاقية المؤثرة ، تدور حول ما يجب أن يلتزم به الأمراء في حكمهم ، وضع الكتاب على ألسن البهائم والطير ، كي يستفيد به العقلاء ويتنزه به الدهماء والجماهير.
وقد بلغ ابن المقفع في عملية الترجمة القمة في الوضوح والليونة واسترسال الكلام ورشاقة الأسلوب ، في أسهل لفظ وأبلغ أسلوب وأنبل تركيب ، مما لم يتأت لغيره ممن حاولوا بث الحِكَم والآراء الفلسفية في ثوب الأدب الجميل والأسلوب الأخاذ البليغ.

(٢) الدَّوح: جمع دَوحة ، وهي الشجرة العظيمة.

(٣) الكهف: كالبيت المنقور في الجبل أو كالغار فيه ، فإذا صغر فهو غارج: كهوف.

لبعض غدواته وروحاته ، وفي نفسه العداوة لملك الغِرْبان ، وفي نفس الغربان وملكها مِثلُ ذلك للبوم ، فأغار مَلِك البوم في أصحابه علىٰ الغربان في أوكارها ، فقتل وسبىٰ منها خلقاً كثيراً ، وكانتِ الغارة ليلاً ، فلما أصبحتِ الغربان اجتمعت إلى ملكها فقلن له: قد علمتَ ما لقينا الليلة من مَلك البُوم ، ومالنا إلا من أصبح قتيلاً أو جريحاً ، أو مكسور الجناح أو منتوف الريش أو مقطوف الذنب ، وأشدُّ مما أصابنا ضُراً علينا جراءتُهن علينا ، وعلمُهن بمكاننا ، وهن عائدات إلينا غير منقَطعات عنا ، لعلمهن بمكاننا ، فإنما نحن لك ، ولك الرأي أيها الملك ، فانظر لنا ولنفسك وكان في الغربان خمسةٌ معترفٌ لهن بحسن الرأي ، يُستند إليهن في الأمور وتُلقىٰ عليهن أزمة الأحوال ، وكان الملك كثيراً ما يُشاورهن في الأمور ويأخذ آراءهن في الحوادث والنوازل.

فقال الملك للأول من الخمسة: ما رأيك في هذا الأمر؟ قال : رأيي قد سبقتنا إليه العلماء ، وذلك أنهم قالوا: ليس للعدو الحَنِق[١] إلا الهربُ منه ، قال الملك للثاني: ما رأيك أنت في هذا الأمر؟ قال: رأيي ما رأىٰ هذا من الهرب ، قال الملك: لا أرىٰ لكما ذلك رأياً ، أن نرحل عن أوطاننا ونخليها لعدونا من أول نكبة أصابتنا منه ، ولا ينبغي لنا ذلك ، ولكن نجمعُ أمرنا ونستعد لعدونا ونذكي نار الحرب فيما بيننا وبين عدونا ، ونحترس من الغُرَّة[٢] إذا أقبل إلينا ، فنلقاه مُستعدين ، ونقاتله قتالاً غير مراجعين فيه ، ولا مُقصرين عنه ، وتَلقى أطرافُنا أطراف العدو ، ونحترز بحصوننا ونُدافع عدونا بالأناةِ[٣] مرة ، وبالجلاد[٤] أخرىٰ ، حيث نُصيب فرصتنا وبُغيتنا ، وقد ثنَينا[٥] عدونا عنا .

(١) الحَنِق: الشديدُ الغيظِ.
(٢) الغُرَّة: الغفلة.
(٣) الأناة: التأني والتريُّث.
(٤) الجِلاَد: الشدة والقوة.
(٥) ثنينا: ثناه ثنياً (ض) : صرفه .

ثم قال الملك للثالث: ما رأيك أنتَ؟ قال: ما أرىٰ ما قالا رأياً ، ولكن نبثُّ العيون ونبث الجواسيس ، ونُرسل الطلائع[١] بيننا وبين عدونا ، فنعلم أيُريد صُلحنا أم يريد حربنا ، أم يريد الفدية ، فإن رأينا أمره أمرَ طامعٍ في المال ، لم نكره الصلح على خراج نُؤديه إليه في كل سنة ندفع به عن أنفسنا ، ونطمئن في أوطاننا ، فإنَّ من آراء الملوك إذا اشتدت شوكة عدوهم فخافوه علىٰ أنفسهم وبلادهم أن يَجعلوا الأموال جُنَّة[٢] البلاد والملك والرعية ، قال الملك للرابع: فما رأيك في هذا الصلح؟ قال: لا أراه رأياً ، بل نفارق أوطاننا ونصبر على الغربة وشدة المعيشة خيرٌ من أن نضيع أحسابنا ، ونخضع للعدو الذي نحن أشرف منه ، مع أن البوم لو عرضنا ذلك عليهن لما رضينَ منا إلا بالشطط[٣] ، ويقال في الأمثال: قاربْ عدوَّك بعضَ المقاربة تنل حاجتك ، ولا تُقاربه كل المقاربة فيجترىءُ عليك ، ويضعف جندك ، وتذل نفسك ، ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة في الشمس ، إذا أملتها قليلاً زاد ظلها ، وإذا جاوزت بها الحد في إمالتها نقص الظل ، وليس عدونا راضياً بالدون في المقاربة ، فالرأي لنا ولك المحاربة.

قال الملك للخامس: ما تقول أنت؟ وماذا ترىٰ؟ آلقتالَ أم الصلحَ ، أم الجَلاء عن الوطن؟ قال: أما القتال؛ فلا سبيل للمرء إلى قتال من لا يَقوىٰ عليه ، وقد يُقال إنه من لا يعرف نفسه وعدده وقاتل من لا يقوىٰ عليه؛ حمل نفسه على حَتْفها[٤] ، مع أن العاقل لا يستصغر عدواً ، فإنَّ من استصغر عدوَّه؛ اغترَّ به ، ومن اغترَّ بعدوه؛ لم يسلم منه ، وأنا للبوم شديد الهيبة ، وإن أضربْنَ[٥] عن قتالنا ، وقد كنتُ أهابها قبل ذلك فإن الحازم لا يأمن

---

(١) الطليعة: قوم يبعثون أمام الجيش ليطَّلعوا طِلْعَ العدو ، واحد وجمع ، ج طلائع ، (والطِّلْع: اسم من الاطلاع يقل «اطلع طِلْعَ العدو»).

(٢) الجُنَّة: ترس ، سترة ، ج جُنَن.

(٣) الشَّطَطَ: تجاوز الحد والتباعد عن الحق.

(٤) الحتف: الموت ، يقال مات حتف أنفه ، أي: مات علىٰ فراشه بدون قتل ، ج: حتوف.

(٥) أضرب عن الشيء: أعرض عنه.

عدوه على كل حال ، فإن كان بعيداً لم يأمن سطوته، وإن كان مكثباً[١] لم يأمن وثبته، وإن كان وحيداً لم يأمن مكره ، وأحزمُ الأقوام وأكيسُهم من كره القتال لأجل النفقة فيه ، فإن ما دون القتال النفقةُ فيه من الأموال والقول والعمل ، والقتال النفقة فيه من الأنفس والأبدان ، فلا يكوننَّ القتال للبوم من رأيك أيها الملك ، فإن من قاتل من لا يَقوىٰ عليه فقد غرَّر بنفسه ، فإذا كان الملك محصناً للأسرار [٢]، متخيراً للوزراء ، مَهيباً في أعين الناس ، بعيداً من أن يُقدرَ عليه ، كان خليقاً ألا يُسلب صحيح ما أوتي من الخير ، وأنت أيها الملك كذلك ، وقد استشرتني في أمر جوابك مني عنه في بعضه علانية ، وفي بعضه سر ، وللأسرار منازل: منها ما يدخل في الرهط ، ومنها ما يُستعان فيه بالقوم ، ومنها ما يدخل فيه الرجلان ، ولست أرى لهذا السر على قدر منزلته أن يُشارك فيه إلا أربعة آذان ولسانان ، فنهض الملك من ساعته ، وخلا به ، فاستشاره ، فكان أول ما سأله عنه الملك أنه قال: هل تعلم ابتداء عداوة ما بيننا وبين البوم؟ قال: نعم: كلمة تكلم بها غراب ، قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب: زعموا أن جماعة من الكراكي[٣] لم يكن لها ملك ، فأجمعت أمرها علىٰ أن يُملِّكنَ عليهنَّ ملك البُوم ، فبينما هي في مجمعها ، إذ وقع لها غراب ، فقالت: لو جاءنا هذا الغراب لاستشرناه في أمرنا ، فلم يلبثنَ دون أن جاءهن الغراب ، فاستشرنه ، فقال: لو أن الطير بادت من الأقاليم ، وفُقد الطاووس والبط والنعام والحمام من العالم لما اضطررتن إلىٰ أن تُملِّكن عليكن البوم التي هي أقبحُ الطير منظراً وأسوؤها خلقاً ، وأقلُّها عقلاً ، وأشدها غضباً ، وأبعدها من كل رحمة ، مع عماها وما بها من العشا[٤] بالنهار ، وأشد من ذلك وأقبح أمورها سَفهُها وسوء أخلاقها ،

---

(١) أكثبه: دنا منه ، ويقال: كثيب الرمل ، وذلك لاجتماعه ودنو بعضه من بعض.
(٢) محصناً للأسرار: كاتماً لها.
(٣) الكَركي (بالضم): طائر معروف أغبر اللون ، طويل العنق والرجلين أبتر الذَّنَب ، قليل اللحم ، يأوي إلىٰ الماء أحياناً ، ج: الكراكيّ.
(٤) العشَا: سوء البصر بالليل والنهار.

إلا أن ترين أن تُملِّكنها وتكنَّ أنتنَّ تُدبِّرن الأمور دونها برأيكن وعقولكن.

ثم إن البوم تَجمع ـ مع ما وصفتُ لكن من الشؤم ـ سائر العيوب: فلا يكوننَّ تمليكُ البوم من رأيكنَّ ، فلما سمع الكراكي ذلك من كلام الغراب؛ أضربنَ عن تمليك البوم ، وكان هناك بُومٌ حاضر قد سمع ما قالوا ، فقال للغراب: لقد وَترتَني[١] أعظم التِّرة ، ولا أعلم أنه سلفَ مني إليك سوءٌ أوجبَ هذا ، وبعد فاعلم أن الفأس يُقطع به الشجر ، فيعود يَنبُت ، والسيفُ يقطع اللحم ، ثم يعود فيندَمل ، واللسان لا يندمل جرحه ولا تؤسى مَقاطعه[٢] ، والنصل من السَّهم يغيب في اللحم ثم يُنزَع فيخرج ، وأشباه النصل من الكلام إذا وصَلت إلىٰ القلب لم تُنزع ولم تُستخرج ، ولكل حريق مطفىء ، فللنار الماء ، وللسُّم الدواء ، وللحزن الصبر ، ونار الحقد لا تخبو أبداً ، وقد غرستُم ـ معاشر الغربان ـ بيننا وبينكم شجر الحقد والعداوة والبغضاء.

فلما قضىٰ البوم مقالته ، ولَّىٰ مُغضَباً ، فأخبر ملكَ البوم بما جرىٰ وبكل ما كان من قول الغراب ، ثم إن الغراب ندم علىٰ ما فرط منه ، وقال: والله لقد خَرُقتُ[٣] في قولي الذي جلبتُ به العداوة والبغضاء علىٰ نفسي وقومي! وليتني لم أخبر الكراكي بهذه الحال! ولا أعلمتُها بهذا الأمر! ولعل أكثر الطير قد رأىٰ أكثر مما رأيت ، وعلم أضعاف ما علمت ، فمنعها من الكلام بمثل ما تكلمتُ اتقاء ما لم أتقِ ، والنظر فيما لم أنظر فيه من حذار العواقب ، لا سيما إذا كان الكلام أفظع كلام ، يَلقىٰ منه سامعه وقائله المكروه مما يُورث الحقد والضغينة[٤] ، فلا ينبغي لأشباه هذا الكلام أن تُسمىٰ كلاماً ، ولكن سهاماً ، والعاقل ـ وإن كان واثقاً بقوته وفضله ـ

---

(١) وتراً وتِرَة (ض): إذا أصابه بمكروه.
(٢) تؤسىٰ مقاطعه ، أسا الجرح يأسوه أسواً وأساً (ن): داواه ، تؤسىٰ مقاطعه ، أي: تُدَاوىٰ مواضع قطعه.
(٣) خرُق خُرقاً (س ، ك): سَفه ، وأساء التصرف.
(٤) الضغينة: الحقد.

لا ينبغي أن يحملَه ذلك على أن يَجلب العداوة علىٰ نفسه ، اتكالاً على ما عنده من الرأي والقوة ، كما أنه وإن كان عنده الترياق لا ينبغي له أن يشرب السم اتكالاً على ما عنده ، وصاحبُ حسن العمل وإن قصَّر به القول في مستقبل الأمر كان فضلُه بيّناً واضحاً في العاقبة والاختبار ، وصاحبُ حسن القول وإن أعجب الناس منه حُسن صفته للأمور ، لم تُحمد عاقبة أمره ، وأنا صاحب القول الذي لا عاقبة له محمودة ، أليس من سفهي اجترائي علىٰ التكلم في الأمر الجسيم لا أستشير فيه أحداً ولم أعمل فيه رأياً؟ ومن لم يستشر النصحاء الأولياء ، وعمل برأيه من غير تكرار النظر والرؤية ، لم يغتبط[1] بمواقع رأيه ، فما كان أغناني عما كسبت يومي هذا ، وما وقعتُ فيه من الهم! وعاتب الغرابُ نفسه بهذا الكلام وأشباهه وذهب ، فهذا ما سألتني عنه من ابتداء العداوة بيننا وبين البوم.

وأما القتال فقد علمتَ رأيي فيه ، وكراهتي له ، ولكن عندي من الرأي والحيلة غير القتال ما يكون فيه الفرجُ إن شاء اللهُ تعالىٰ ، فإنه رُبَّ قومٍ قد احتالوا بآرائهم حتى ظفروا بما أرادوا ، ومن ذلك حديثُ الجماعة الذي ظفروا بالناسك ، وأخذوا عَريضه[2] ، قال الملك : وكيف كان ذلك؟

قال الغراب : زَعموا أن ناسكاً اشترىٰ عَريضاً ضخماً ليجعله قُرباناً ، فانطلق به يَقوده ، فبصُر به قوم من المكَرة ، فائتمروا بينهم أن يأخذوه من الناسك ، فعرضَ له أحدهم ، فقال له : أيها الناسك ، ما هذا الكلبُ الذي معك؟ ثم عرض الآخر ، فقال له : أيها الناسك ، ما هذا الكلبُ الذي معك؟ ثم عرض له الآخر ، فقال لصاحبه : ما هذا ناسك ، لأن الناسك لا يقود كلباً ، فلم يزالوا مع الناسك علىٰ هذا ومثله حتى لم يشكَّ أن الذي يقودَه كلب ، وأن الذي باعه إياه سحرَ عينه ، فأطلقه من يده ، فأخذه الجماعة المحتالون ومضوا به ، وإنما ضربتُ لك هذا المثل لما أرجو أن نُصيب من حاجتنا بالرِّفق والحيلة ، وإني أريد من الملك أن يَنقرني علىٰ

---

(١) الاغتباط : الفرحة والسرور.

(٢) العريض من المَعْزِ : ما أتىٰ عليه سنة ، ج : عُرُضَان وعِرْضان.

رؤوس الأشهاد ، ويَنتف ريشي وذَنبي ، ثم يطرحني في أصل هذه الشجرة ، ويَرتحل الملك وهو وجنوده إلى مكان كذا ، فأرجو أني أصبر وأطّلع على أحوالهم ، ومواضع تحصينهم وأبوابهم فأخادعهم ، وآتي إليكم لنهجم عليهم ، وننال منهم غرضنا إن شاء الله تعالىٰ.

قال الملك: أتطيب نفسك لذلك؟ قال: نعم ، وكيف لا تطيب نفسي لذلك ، وفيه أعظم الراحات للملك وجنوده؟ ففعل الملك بالغراب ما ذَكر ، ثم ارتحلَ عنه ، فجعل الغراب يئِنُّ ويهمس[١] حتى رأته البوم وسمعنه يئنُّ ، فأخبرن ملكهن بذلك ، فقصد نحوه ليسأله عن الغربان ، فلما دنا منه؛ أمر بوماً أن يسأله ، فقال له: من أنتَ ، وأين الغربان؟ فقال: أما اسمي ففلان ، وأما ما سألتني عنه فإني أحسبك ترىٰ أن حالي حال من لا يعلمُ الأسرار ، فقيل لملك البوم: هذا وزيرُ ملك الغربان وصاحب رأيه ، فنسأله بأي ذنبٍ صنع به ما صنع؟ فسُئل الغراب عن أمره فقال: إن ملكنا استشار جماعتنا فيكنَّ ، وكنت يومئذ بمحضر من الأمر ، فقال: أيها الغربان ، ما ترون في ذلك؟ فقلت: أيها الملك لا طاقة لنا بقتال البوم: لأنهنَّ أشد بطشاً وأشد قلباً منا ، ولكن أرىٰ أن نلتمس الصلحَ ثم نبذلُ الفدية في ذلك منا ، وإلا هرَبنا في البلاد ، وإذا كان القتال بيننا وبين البوم كان خيراً لهن وشراً لنا ، فالصلحُ أفضل من الخصومة ، وأمرتُهن بالرجوع عن الحرب ، وضربت لهنَّ الأمثال في ذلك ، وقلتُ لهن: إن العدو الشديد لا يُرد بأسه وغضبه مثلُ الخضوع له ، ألا ترين إلىٰ الحشيش كيف يَسلم من عاصف الريح لِلينه ، ومَيله معها حيث مالت ، فعصَينني في ذلك ، وزعمن أنهن يُردن القتال واتهمنني فيما قلت ، وقلن: إنك قد مالأت[٢] البوم علينا ، ورَدَدْنَ قولي ونصيحتي ، وعذَّبنني بهذا العذاب ، وتركني الملك وجنوده وارتحل ، ولا علم لي بهن بعد ذلك.

---

(١) همس همساً (ض) الهمْس: الصوت الخفي.
(٢) مالأه علىٰ كذا ممالأة: ساعده.

تدبير حرب

- ٢ -

فلما سمع مَلك البُوم مقالةَ الغُراب قال لبعض وزرائه: ما تقول في الغراب؟ وما ترىٰ فيه؟ قال: ما أرىٰ إلا المعاجلة له بالقتل ، فإن هذا أفضلُ عدد الغربان ، وفي قتله لنا راحة من مكره ، وفقده علىٰ الغربان شديد ، ويُقال: من ظفر بالساعة التي فيها يَنجح العمل ثم لا يعاجله بالذي ينبغي له؛ فليس بحكيم ، ومن طلب الأمر الجسيم فأمكنه ذلك فأغفله؛ فاته الأمر ، وهو خَليقٌ ألا تعود له الفرصة ثانية ، ومن وجد عدوه ضعيفاً ، ولم يُنجز قتله ؛ ندم إذا استقوىٰ ولم يقدر عليه ، قال الملك لوزير آخر: ما تَرىٰ أنت في هذا الغراب؟ قال: أرىٰ ألا تقتله ، فإن العدو الذليل الذي لا ناصر له أهلٌ لأن يُستبقىٰ ويُرحم ويُصفح عنه ، لاسيما المستجير الخائف ، فإنه أهل لأن **يؤمَّن**

قال ملك البوم لوزير آخر من وزرائه: ما تقول في الغراب؟ قال: أرىٰ أن تستبقيه وتُحسن إليه ، فإنه خليق أن يَنصحك ، والعاقل يرى مُعاداةَ بعض أعدائه بَعضاً ظفراً حسناً ، ويرىٰ اشتغال بعض الأعداء ببعض خلاصاً لنفسه منهم ، ونجاةً كنجاة الناسك من اللص والشيطان حين اختلفا عليه ، قال الملك له: وكيف كان ذلك؟

قال الوزير: زعموا أن ناسكاً أصاب من رجل بقرةً حلوباً ، فانطلق بها يقودها إلى منزله ، فعرضَ له لِص أراد سرقتها ، واتَّبعه شيطان يريد اختطافه ، فقال الشيطان لِلِّص: من أنت؟ قال: أنا اللص ، أريد أن أسرقَ

هذه البقرة من الناسك إذا نام ، فمن أنت؟ قال : أنا الشيطان أريد اختطافه إذا نام وأذهبَ به ، فانتهيا على هذا المنزل ، فدخل الناسك منزله ، ودخلا خلفه ، وأدخل البقرة فربطها في زاوية المنزل ، وتعشَّى ونام ، فأقبل اللص والشيطان يأتمران فيه ، واختلفا علىٰ من يبدأ بشغله أولاً ، فقال الشيطان للص : إن أنتَ بدأت بأخذ البقرة فرُبما استيقظ وصاح ، واجتمع الناس ، فلا أقدرُ علىٰ أخذه ، فأنظرني[١] ريثما آخذه ، وشأنكَ وما تريد ، فأشفقَ اللص إن بدأ الشيطان باختطافِه فربما استيقظ ، فلا يقدر علىٰ أخذ البقرة ، فقال : لا ، بل أنظرني أنت حتى آخذ البقرة ، وشأنكَ وما تريد ، فلم يزالا في المجادلة هكذا حتى نادىٰ اللص ، أيها الناسك انتبه ، فهذا الشيطان يريد اختطافك ، ونادىٰ الشيطان : أيها الناسك انتبه ، فهذا اللص يريد أن يسوق بقرتك ، فانتبه الناس وجيرانُه بأصواتهما ، وهربَ الخبيثان ، قال الوزير الأول الذي أشار بقتل الغراب : أظن أن الغراب قد خدعكن ، ووقع كلامه في نفس الغبي منكن موقعه ، فتُردن أن تضعن الرأي في غير موضعه ، فمهلاً مهلاً[٢] أيها الملك عن هذا الرأي ، فلم يلتفت الملك إلى قوله ، وأمر بالغراب أن يُحمل إلىٰ منازل البوم ، ويُكرم ويُستوصىٰ به خيراً ، ورفق بالغراب ، ولم يزدد له إلا إكراماً ، حتىٰ إذا طاب عيشه ونبتَ ريشه ، واطَّلع علىٰ ما أرد أن يطلع عليه راغ روغةً[٣] ، فأتىٰ أصحابه بما رأىٰ وسمع ، فقال للملك : إني قد فرغتُ مما كنت أريد ، ولم يبقَ إلا أن تَسمع وتُطيع ، قال له : أنا والجند تحتَ أمرك ، فاحتكم كيف شئتَ .

قال الغراب : إن البوم بمكان كذا ، في جَبلٍ كثير الحطب ، وفي ذلك الموضع قطيعٌ[٤] من الغنم مع رجل راع ، ونحن مصيبون هناك ناراً ،

---

(١) أنظِرني ريثما آخذ : أي أمهلني حتىٰ آخذ . ريثما : ما من حروف الصلة مثل قوله تعالىٰ : ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ ، أو ظرفية .

(٢) مهلاً مهلاً : أي أمهل ، والتكرار للتأكيد ، وهو مصدر نائب منابَ فعله يستوي في المذكر والمؤنث ، مفرداً ومثنىٰ وجمعاً .

(٣) راغ روغةً وروْغاً ورَوَغاناً (ن) : حاد عن الطريق مكراً وخديعة .

(٤) قطيع : الطائفة من الغنم ، ج الأقطاع والقُطْعان والقِطاع والأقاطيع علىٰ غير قياس .

ونُلقيها في أنقاب البوم ، ونقذف عليها من يابس الحطب ، نتراوح عليها ضرباً بأجنحتنا ، حتى تضطرم النار في الحطب ، فمن خرج منهن احترق ومن لم يخرج مات بالدخان موضعه ، ففعل الغربان ذلك فأهلكن البوم قاطبة ، ورجعن إلىٰ منازلهن سالمات آمنات .

ثم إن ملك الغربان قال لذلك الغراب : كيف صبرت علىٰ صحبة البوم؟ ولا صبر للأخيار علىٰ صحبة الأشرار؟ فقال الغراب : إن ما قلته أيها الملك لكذلك ، ولكن العاقل إذا أتاه الأمر الفظيع العظيم الذي يخاف من عدم تحمُّله الجائحةَ علىٰ نفسه وقومه ، لم يجزعْ من شدة الصبر عليه ، لما يرجو من أن يعقبه صبره حُسنَ العاقبة وكثيرَ الخير ، فلم يجد لذلك ألماً ، ولم تكره نفسهُ الخضوع لمن هو دونه ، حتى يبلغَ حاجته ، فيغتبط بخاتمة أمره ، وعاقبة صبره ، فقال الملك : أخبرني عن عقول البوم ، قال الغراب : لم أجد فيهن عاقلاً إلا الذي كان يحثهن علىٰ قتلي ، وكان حرَّضهن علىٰ ذلك مراراً ، فكن أضعف شيءٍ رأياً ، فلم ينظرن في أمري ، ويذكرن أني قد كنتُ ذا منزلة في الغربان ، وأني أعد من ذوي الرأي ولم يتخوَّفن مكري وحيلتي ، ولا قبلن من الناصح الشفيق ، ولا أخفين دوني أسرارهن ، وقد قال العلماء : يَنبغي للملك أن يُحصِّن أموره من أهل النميمة ، ولا يُطلع أحداً منهم علىٰ مواضع سره ، فقال الملك : ما أهلك البوم في نفسي إلا البغي ، وضَعف رأي الملك ، وموافقته وزراء السوء ، فقال الغراب : صدقتَ أيها الملك ، إنه قلما ظفر أحد بغنىً ولم يَطغ ، وقلَّ من أكثر من الطعام إلا مَرِض ، وقلَّ من وثق بوزراء السوء وسَلم من أن يقع في المهالك ، وكان يقال : لا يَطمعنَّ ذو الكبر في حُسن الثناء ولا الخَبُّ[1] في كثرة الصديق ، ولا السَّيِّء الأدبِ في الشرف ، ولا الشحيحُ في البر ، ولا الحريصُ في قلة الذنوب ، ولا الملك المختال المتهاون بالأمور ، الضعيفُ الوزراءِ في ثبات ملكه ، وصلاح رعيته ، قال الملك : لقد احتملتَ مشقة شديدة في تصنُّعك للبوم ، وتضرُّعك لهن ، قال الغراب : إنه من

(١) الخَبُّ : الخدَّاع . ج خُبوب .

احتمل مشقةً يرجو نفعها ، ونحّىٰ عن نفسه الأنفة والحمية ، ووطّنها[١] علىٰ الصبر حَمد غِبَّ[٢] رأيه ، كما صبر الأَسود على حَمل ملك الضفادع علىٰ ظهره ، وشبع بذلك وعاش ، قال الملك : وكيف كان ذلك؟ .

قال الغراب : زعموا أن أسود من الحيات كبُر ، وضعُف بصره ، وذهبتْ قَوته ، فلم يَستطع صيداً ، ولم يقدر علىٰ طعام ، وأنه انساب[٣] يلتمس شيئاً يعيش به ، حتى انتهىٰ إلى عينٍ كثيرة الضفادع ، قد كان يأتيها قبل ذلك فيُصيبُ من ضفادعها رزقَه فرمىٰ نفسه قريباً منهن مُظهراً للكآبة والحزن ، فقال له ضفدعٌ: مالي أراك أيها الأسود كئيباً حزيناً؟ قال: ومن أحرىٰ بطول الحزن مني ، وإنما كان أكثر معيشتي مما كنت أصيب من الضفادع فابتُليت ببلاء ، وحُرِّمت عليَّ الضفادع من أجله ، حتى إني إذا التقيت ببعضها لا أقدر علىٰ إمساكه ، فانطلق الضفدع إلى ملك الضفادع ، فبشَّره بما سمع من الأسود ، فأتىٰ مَلك الضفادع إلىٰ الأسود ، فقال له : كيف كان أمرك؟ قال: سَعيتُ منذ أيام في طَلب ضفدع ، وذلك عند المساء ، فاضطررتُهُ إلىٰ بيت ناسك ، ودخلت في أثره في الظلمة ، وفي البيت ابن للناسك فأصبتُ إصبعه ، فظننت أنها الضفدع ، فلدغتهُ فمات ، فخرجتُ هارباً ، فتتبعني الناسك في أثري ، ودعا عليَّ ، ولعنني ، وقال: كما قتلتَ ابني البريء ظلماً وتعدياً ، أدعو عليك أن تذل وتَصير مركباً لملِك الضفادع ، فلا تستطيع أخذها ، ولا أكلَ شيءٍ منها إلا ما يتَصدَّق به عليك ملكُها ، فأتيتُ إليك لتركَبني ، مُقراً بذلك راضياً به ، فرغب ملك الضفادع في ركوب الأسود ، وظن أن ذلك فخرٌ له وشرف ، ورِفعة ، فركبه واستطاب ذلك ، فقال له الأسود: قد علمتَ أيها الملك أني محروم ، فاجعل لي رزقاً أعيش به ، قال ملك الضفادع : لعمري لا بد لك من رزق يقوم بك إذ كنت مَركبي ، فأمر له بضِفدعين يؤخذان في كل يوم ، ويُدفعان إليه ، فعاش

---

(١) وطّن نفسه علىٰ الأمر : حملها عليه وروّضها له .

(٢) غِب : عاقبة ، ج أغباب .

(٣) الانسياب : سير الحية .

بذلك ، ولم يضرَّه خضوعه للعدو الذليل ، بل انتفع بذلك وصار له رزقاً ومعيشة ، وكذلك كان صبري علىٰ ما صبرتُ عليه ، التماساً لهذا النفع العظيم الذي اجتمع لنا فيه الأمن والظفر ، وهلاكُ العدو والراحة منه ، ووجدت صرعة[١] اللِّين والرفق أسرعَ وأشد استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة ، فإن النار لا تزيد بحدتها وحرها إذا أصابت الشجرة علىٰ أن تحرق ما فوق الأرض منها ، والماء ببرده ولينه يستأصل ما تحت الأرض منها ، ويقال: أربعة أشياء لا يستقل قليلها: النار والمرض والعدو والدين ، قال الغراب: وكل ذلك كان من رأي الملك ، وأدبه وسعادة جده ، وإنه كان يقال: إذا طلب اثنان أمراً ظفر به منهما أفضلهما مروءة ، فإن اعتدلا في المروة فأشدهما عزماً ، فإن استويا في العزم ، فأسعدهما جداً ، وكان يقال: من حارب الملك الحازم الأريب المتضرع[٢] الذي لا تُبطره السراء ، ولا تُدهشه الضراء ، كان هو داعي الحتف إلىٰ نفسه ، ثم لاسيما إذا كان مثلك أيها الملك العالم بفروض الأعمال ، ومواضع الشدة واللين ، والغضب والرضا ، والمعاجلة والأناة ، الناظر في أمر يومه وغده ، وعواقب أعماله ، قال الملك للغراب: بل برأيك وعقلك ونصيحتك ويُمن طالعك كان ذلك ، فإنَّ رأي الرجل الواحد ، العاقلِ الحازم ، أبلغ في هلاك العدو من الجنود الكثيرة ، من ذوي البأس والنجدة ، والعدد والعدة ، وإن من عجيب أمرك عندي طُول لبثك بين ظهراني[٣] البوم تسمع الكلام الغليظ ، ثم لم تسقط بينهن بكلمة ، قال الغراب: لم أزل متمسِّكاً بأدبك أيها الملك ، أَصحبُ البعيد والقريب ، بالرفق واللين ، والمبالغة والمؤاتاة ، قال الملك: أصبحتُ وقد وجدتك صاحب العمل ، ووجدت غيرك من الوزراء أصحاب أقاويل ، ليس لها عاقبةٌ حميدة فقد منَّ الله علينا بك منَّةً عظيمة لم نكن قبلها نجد لذة الطعام

---

(١) الصرعة: الحالة.

(٢) التضرع: حسن الاحتيال والتقرب في رَوَغان ومكر وخديعة.

(٣) بين ظهرانَيِ البومِ: أي وسطهن ، وهو بفتح النون ولا تكسر سماعياً.

ولا الشراب ولا النوم ولا القرار ، وكان يقال: لا يجد المريض لذة الطعام والنوم حتى يبرأ ، ولا الرجل الشره الذي قد أطعمه سلطانه في مال وعمل في يده حتى يُنجزه له ، ولا الرجل الذي قد ألحَّ عليه عدوه وهو يخافه صباحاً ومساءً حتى يستريح منه قلبه ، ومن وضع الحمل الثقيل عن يديه أراح نفسه ، ومن أمن عدوه ثَلج صدره.

(«كليلة ودمنة» ، باب البوم والغربان)

بين يدي الموت

وممَّن وجد نفسه عند إحاطة الموت به تميمُ بن جميل ، فإنه القائل بين يدي المعتصم ، وقد قدَّم السيف والنَّطع لقتله :

أرىٰ الموت بين السيف والنطع كامِناً ... يلاحظني[1] من حيثما أتلفتُ
وأكبرُ ظنّي أنَّك اليوم قاتلي ... وأيُّ امرىء مما قضىٰ الله يُفلِت
وأيُّ امرىء يُدلي بعذر[2] وحُجَّةٍ ... وسيفُ المنايا بين عينَيه مُصلَتُ
وما حَزَني أني أموتُ وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مُوقتُ
ولكنَّ خلفي صبية قد تركتُهم ... وأكبادهم من حسرةٍ تتفتَّتُ[3]
كأني أراهم حين أُنعىٰ إليهمُ ... وقد خَمشوا[4] تلك الوجوه وصوَّتوا
فإن عشت عاشوا خافضين بنعمة ... أذودُ[5] الرَّدى[6] عنهم وإن مِت مُوِّتوا
فكم قائل لا أبعدَ اللهُ دارَه ... وآخرُ جَذلان[7] يُسَرُّ ويَشمَتُ

فعفا عنه المعتصم وأحسنَ إليه وقلَّده عملاً[8] .

(العقد الفريد)

خُطبة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه

البيهقي[١]

الحمدُ لله رب العالمين ، أحمده وأستعينه ، ونسألهُ الكرامة فيما بعد الموت ، فإنه قد دنا أجلي وأجلكم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أَرسله بالحق بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً ، ليُنذر من كان حياً ويحقَّ القول علىٰ الكافرين ، ومن يُطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً أوصيكم بتقوىٰ الله ، والاعتصام بأمر الله الذي شرع لكم وهداكم به ، فإن جوامع هدىٰ الإسلام بعد كلمة الإخلاص السمعُ والطاعة لمن ولاه اللهُ أمركم ، فإنه من يُطعِ الله وأولي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقد أفلح وأدىٰ الذي عليه من

---

(١) إبراهيم بن محمد البيهقي نحو (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ).
لا يعرف شيء عن مؤلف الكتاب سوىٰ أن اسمه «إبراهيم بن محمد البيهقي» كما جاء في المقدمة وصفحة عنوان الكتاب ، وكما نقل عنه الدميري في «حياة الحيوان» عند الكلام علىٰ خلافة عبد الملك بن مروان ، وأنه كان يعيش في زمن المقتدر بالله (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ)» كما يستفاد من الخبر الذي أورده المؤلف في باب حسن المسايرة في نفس الكتاب.
وكتابه «المحاسن والمساوىء» كتاب أدبي رشيق قيم ، يحتوي علىٰ طائفة من ضروب الآداب وغرر الكلام ، وأبحاث هذا الكتاب تدور حول النفس الإنسانية وما يعلق بها من الأوصاف والأفعال ، وما يعتريها من دواعي الخير أو نوازع الشر ، وما تتعطر به الأخلاق الفاضلة والشمائل الحميدة ، يقول محمد إبراهيم الذي قام بتحقيق هذا الكتاب :
«إن هذا الكتاب اجتمع فيه من روائع الشعر ورصين القول والحكم والأمثال ما لم يجتمع في كتاب مع تناسب الأبواب وإحكام الوضع وجمال التصنيف».

الحق ، وإياكم واتباع الهوىٰ ، فقد أفلح من حُفظ من الهوىٰ والطمع والغضب ، وإياكم والفخر[١] ، ما فخر من خُلق من تراب ، ثم إلىٰ التراب يعود ، ثم يأكله الدود[٢] ، ثم هو اليوم حي وغداً ميت؟ فإن يوماً بيوم ، وساعة بساعة ، وتوقَّوا دعاء المظلوم ، وعُدُّوا أنفسكم في الموتىٰ ، واصبروا فإن العمل كله بالصبر ، واحذروا والحذر ينفع ، واعملوا والعمل يُقبل ، واحذروا ما حذَّركم الله واتقوا وتَوقَّوا ، فإن الله قد بين لكم ما أهلك به من كان قبلكم ، وما نجَّى به من نجَّىٰ قبلكم ، قد بيَّن لكم في كتابه حلاله وحرامه وما يحب من الأعمال وما يكره ، فإني لا آلوكم ونفسي[٣]، والله المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، واعلموا أنكم ما أخلصتم لله من أعمالكم ، فربكم أطعتم ، وحظَّكم حفظتم ، واغتبطتم وتطوعتم به لدينكم ، فاجعلوه نوافل[٤] بين أيديكم تستوفوا لسلفكم ، وتُعطوا جرايتكم[٥] حين فقركم وحاجتكم إليها . ثم تفكَّروا عباد الله في إخوانكم وصحابتكم الذين مضوا ، قد ورَدوا علىٰ ما قدموا[٦] فأقاموا عليه ، وحلوا في الشقاء والسعادة فيما بعد الموت ، إن الله ليس له شريك وليس بينه وبين أحد من خلقه نَسبٌ يعطيه به خيراً ، ولا يَصرف عنه سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره ، فإنه لا خيرَ في خيرٍ بعدَه النار ؛ ولا شر في شرٍّ بعده الجنة ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، صلوا علىٰ نبيكم ﷺ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(المحاسن والمساوىء للبيهقي)

---

(١) إياكم والفخرَ ، الفخرَ : من المنصوب باللازم إضماره مثل قولك في التحذير : إياك والأسدَ ، أي : اتق نفسك أن تتعرض للأسد .

(٢) الدُّوْد : من الحيوانات الصغار عديمة الفقار .

(٣) لا آلوكم ونفسي ، ألا أُلُوّاً وأَلِيّاً (ن) : قصّر وأبطأ أو ترك ، ويقال : لم يأل جهداً أي بذل قُصارىٰ جهدِهِ وأجهدَ نفسَه ، لا آلوكم ونفسي ، أي : أجهد نفسي وإياكم .

(٤) النافلة : العطية والغنيمة ، ج نوافل .

(٥) الجَرَايَة : ما يناله الجندي كل يوم .

(٦) ما قدموا : أي ما قدموه من الأعمال الصالحة وجزاؤها النعيم والجنة .

الإمام الشافعي رحمه الله

الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف ، القرشي المطَّلبي الشافعي ، يجتمع مع رسول الله ﷺ في عبد مناف المذكور ، وباقي النسب إلىٰ عدنان معروف ، لقي جدُّه شافع رسولَ الله ﷺ وهو مترعرع ، وكان أبوه السائبُ صاحب راية بني هاشم يوم بدر ، فأُسر ، وفدىٰ نفسه ، ثم أسلم ، فقيل له : لِمَ لَمْ تُسلم قبل أن تفدي نفسك؟ فقال : ما كنت أَحرم المؤمنين مَطْمعاً لهم فيَّ. وكان الشافعي كثيرَ المناقب جمَّ المفاخر[١] منقطع القرين ، اجتمعتْ فيه من العلوم بكتاب الله وسنةِ الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة رضي الله عنهم وآثارهم ، واختلافِ أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة العربية والشعرِ حتى إن الأصمعي[٢] مع جلالة قدره في هذا الشأن قرأ عليه أشعار الهُذليين ـ ما لم يجتمع في غيره ، حتى قال أحمدُ بن حنبل : ما عرفتُ ناسخ الحديث من منسوخه حتىٰ جالستُ الشافعي ، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام[٣] :

---

(١) الجم : الكثير من كل شيء ، ج جِمام وجُمُوم.

(٢) الأصمعي (٨٢٨ م) : من مشاهير لغويي العرب ، حفظ لغة البدو ، له المجموعة الشعرية «الأصمعيات» ولولاه كنا فقدنا الكثير من دواوين العرب وأشعارهم.

(٣) أبو عبيد القاسم بن سلام (٧٧٠ ـ ٨٣٧ م) لُغوي فقيه ، كان ورعاً حسن الرواية ، أشهر كتبه «الغريب المصنف».

ما رأيت رجلاً قط أكملَ من الشافعي ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل قلت لأبي: أيّ رجل كان الشافعي؟ فإني سمعتك تُكثر من الدعاءِ له؟ فقال: يا بُني كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن ، هل لهذين من خَلَفٍ أو عنهما من عِوض؟ وقال أحمد: ما بِتُّ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له ، وقال يحيىٰ بن معين: كان أحمدُ بن حنبل ينهانا عن الشافعي ، ثم استقبله يوماً والشافعي راكب بغلة وهو يمشي خلفه ، فقلت: يا أبا عبد الله تنهانا عنه وتمشي خلفه؟ فقال: اسكت ، لو لزمتُ البغلة لانتفعتُ ، وحكى الخطيب في تاريخ بغداد عن ابن عبد الحكم قال: لما حملت أمُّ الشافعي به رأت كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقض بمصرَ ثم وقع في كل بلد منه شظيّة[١] ، فتأول أصحابُ الرؤيا أنه يخرج منها عالم يخصُّ علمهُ أهل مصر ثم يتفرق في سائر البلدان. وقال الشافعي: قدمتُ علىٰ مالك بن أنس وقد حفظت «الموطأ» ، فقال لي: أحضر من يقرأ لك ، فقلتُ : أنا قارىء ، فقرأت عليه الموطأ حفظاً ، فقال: إن يكُ أحدٌ يُفلح فهذا الغلام ، وكان سفيان بن عيينة إذا جاءه شيء من التفسير أو الفتيا التفت إلىٰ الشافعي فقال: سلوا هذا الغلام ، وقال الحميدي[٢]: سمعت الزنجيَّ بن خالد[٣] يعني مُسلماً يقول للشافعي: أفتِ يا أبا عبد الله فقد والله آن لك أن تفتي ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقال محفوظ بن أبي توبة البغدادي[٤]: رأيت أحمد بن حنبل عند الشافعي في المسجد الحرام فقلت: يا أبا عبد الله هذا سفيان بن عيينة في ناحية المسجد يحدث ، فقال: إن هذا يفوت وذاك لا يفوت ، وقال أبو حسان الريادي: ما رأيتُ محمد بن الحسن يُعظم أحداً من أهل العلم تعظيمه للشافعي ، ولقد جاءه يوماً فلقيه وقد ركب محمد بن الحسن ، فرجع محمد إلىٰ منزله وخلا به يومه إلىٰ الليل ، ولم يأذن لأحد

---

(١) شظية: كل قطعة من شيء ، ج شظايا.

(٢) الحميدي (٤٨٨ هـ): أديب مؤرخ محدث حافظ من مؤلفاته «جذوة المقتبس».

(٣) الزنجي بن خالد (١٧٩ هـ) تابعي من كبار الفقهاء ، كان إمام أهل مكة وهو الذي أذن للشافعي بالإفتاء.

(٤) محفوظ بن أبي توبة ، أبو حسان الريادي: من أصحاب الشافعي ومعاصريه.

عليه ، والشافعي أول من تكلم في أصول الفقه وهو الذي استنبطه ، وقال أبو ثور[١] : من زعم أنه رأىٰ مثل محمدَ بن إدريس في علمه وفصاحته ومعرفته وثباته وتمكنه فقد كذب ، كان منقطع القرين في حياته ، فلما مضىٰ لسبيله لم يُعتضْ[٢] منه ، وقال أحمد بن حنبل : ما أحد ممَّن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي في رقبته مِنة ، وكان الزعفراني[٣] يقول : كان أصحاب الحديث رُقوداً حتى جاء الشافعي فتيقَّظوا ، ومن دعائه : «اللهم يا لطيف أسألك اللُّطف فيما جرت به المقادير» وهو مشهور بين العلماء بالإجابة وأنه مجرب . وفضائله أكثر من أن تُعد ، ومولدهُ سنة خمسين ومئة ، وقد قيل إنه ولد في اليوم الذي توفي فيه الإمام أبو حنيفة ، وكانت ولادته بمدينة غزة[٤] وقيل بعسقلان[٥] وقيل : باليمن والأول أصح ، وحُمل من غزة إلىٰ مكة وهو ابن سنتين فنشأ بها ، وقرأ القرآن الكريم ، وحديث رحلته إلىٰ مالك مشهور ، فلا حاجة إلىٰ التطويل فيه ، وقدم بغداد سنة خمس وتسعين ومئة ، فأقام بها سنتين ، ثم خرج إلىٰ مكة ثم عاد إلىٰ بغداد سنة خمس وتسعين ومئة ، فأقام بها شهراً ثم خرج إلىٰ مصر وكان وُصوله إليها في سنة تسع وتسعين ومئة وقيل : إحدى ومئتين ولم يزل بها إلىٰ أن تُوفي يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومئتين ، ودُفن بعد العصر من يومه بالقَرافة الصُّغرىٰ[٦] وقبره يُزار بها بالقرب من المُقطَّم[٧] . قال الرَّبيع بنُ سليمان

---

(١) أبو ثور (٢٤٦ هـ) : صاحب الإمام الشافعي وناقل الأقوال القديمة عنه ، كان أحد الفقهاء الأعلام .

(٢) اعتاض فلاناً : سأله العوض ، ومنه ؛ أخذ العوض .

(٣) الزعفراني : فقيه من رجال الحديث ثقة ، يقال لم يكن في وقته أفصح منه ولا أبصر باللغة .

(٤) غَزَّة : مدينة بفلسطين كانت منذ القديم ملتقىٰ طريق القوافل بين مصر وسورية ، دخلها الجيش المصري في حرب فلسطين منذ ذلك الحين تعرف بقِطاع عزة .

(٥) عسقلان : مدينة بالشام على ساحل البحر قريب غزة ، ويقال لها عروس الشام .

(٦) القرافة الصغرىٰ : خطة بالفسطاط من مصر وهي اليوم مقبرة أهل مصر . وبها محال واسعة وسوق قائمة وهي من متفرجات أهل القاهرة ومصر في أيام الموسم .

(٧) المُقَطَّم : وهو الجبل المشرف علىٰ القرافة .

المرادي[١]: رأيتُ هلال شعبان وأنا راجع من جنازته ، وقال: رأيته في المنام بعد وفاته ، فقلت: يا أبا عبد الله ، ما صنع الله بك؟ فقال: أجلسني علىٰ كرسي من ذهب ، ونثر علي اللؤلؤ الرطب. وذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي[٢] في كتاب «طبقات الفقهاء» ما مثاله ، وحكى الزعفراني عن أبي عثمان بن الشافعي قال: مات أبي وهو ابن ثمان وخمسين سنة. وقد اتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو وغير ذلك علىٰ ثِقته وأمانته وعدالته وزُهده وورعه ونزاهة عِرضه وعفة نفسه وحسن سيرته وعلو قدره وسخائه.

(«تاريخ ابن خلكان» الجزء الثاني)

---

(١) ربيع بن سليمان المرادي: صاحب الإمام الشافعي وراوي كتبه وأول من أملىٰ الحديث بجامع ابن طولون.

(٢) أبو إسحاق الشيرازي (٣٩٣ ـ ٤٧٠ هـ) هو الفيروز آبادي الملقب بجمال الدين ، عالم جليل من علماء بغداد وأعيانها.

عليٌّ زَين العابدين (١)

هـذا الـذي تعرفُ البَطحاءُ وَطأَتـه | والبيـتُ يَعـرفـهُ والحـلُّ والحَـرَمُ (٢)
هـذا ابـنُ خيـر عبـادِ الله كُلِّهـم | هـذا التقـيُّ النَّقـيُّ الطـاهـرُ العلـمُ
إذا رأتـه قُـريـش قـال قـائلهـا | إلـىٰ مكـارم هـذا ينتهـي الكَـرم
ينمـي إلـىٰ ذِروة العـز التـي قَصُـرت | عـن نيلهـا عُـرُب الإسـلام والعجـمُ (٣)
يكـاد يُمسكـه عِـرفـانَ رَاحتـه | ركـنُ الحطيـم إذا مـا جـاء يستلـمُ (٤)
فـي كفـه خيـزران ريحـه عَبِـقٌ مـن | كـفٍّ أروعَ فـي عِـرنينـه شَمَـمُ (٥)

(١) لما حج هشام بن عبد الملك في أيام أبيه ، طاف بالبيت وجهد أن يصل إلىٰ الحجر الأسود ليستلمه . فلم يقدر . فنُصب له كرسي ، ومعه جماعة من أعيان الشام ، إذ أقبل الإمام زين العابدين ، وكان من أجمل الناس وجهاً ، وأطيبهم أرجاً ، فطاف بالبيت ، فلما انتهىٰ إلىٰ الحجر الأسود تنحّىٰ له الناس حتى استلم الحجر الأسود ، فقال رجل من أهل الشام لهشام : من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبةَ؟ فقال هشام : لا أعرفه ، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ، وكان الفرزدق حاضراً فقال : أنا أعرفه ، ثم اندفع فأنشد هذه القصيدة الغراء .

(٢) بطحاء : كل موضع متسع ، وهو موضع بعينه يقال له بطحاء مكة وأبطحها ، وتقع مكة في وسطها .

(٣) الذِروة (بالضم والكسر) : أعلىٰ الشيء ، ج : ذُرىً وذِرىً .

(٤) عرفان : معرفة (مفعول لأجله) .

(٥) خَيْزران : القصب وكل غصن لين يتثنىٰ .
عَبِق : الذي تفوح منه رائحة الطيب .
الأروع : من يروعك حسنه أو شجاعته .
العِرْنين : الأنف كله أو ما صلب منه ، ج : عَرَانين .
الشَّمَم : ارتفاع قصبة الأنف مع حسنها واستوائها .

يُغضي حياءً ويُغضى من مهابته ... فلا يُكلَّم إلا حين يبتسم
يَنشقُّ نور الهدىٰ عن نور غُرَّته[1] ... كالشمس تَنجاب عن إشراقها الظُّلم
مُنشَقَّةٌ من رسول الله نبعتُه ... طابتْ عناصره والخِيم والشِّيم[2]
فليس قولك منْ هذا بضائره ... العرب تَعرف من أنكرتَ والعجم[3]
سَهل الخيلقة لا تُخشى بوادرُهُ ... يَزينه اثنان حُسن الخُلق والشِّيَمُ[4]
ما قال «لا» قط إلا في تشهُّدِه ... لولا التشهد كانتْ «لاؤه» نعم[5]

(الفرزدق)

---

(١) الغُرَّة: من كل شيء أوله ومن الرجل: وجهه ، ج: غُرَر.
(٢) النبعة: شجرة تصنع منها القسي ، وهي أجود الشجر . يقال: هو من نبعة كريمة ، أي أصل كريم.
الخِيمُ: الطبيعة.
(٣) العُرْب والعَرَب: (لغتان) معروف ، ج: أعرُب وعُروب.
(٤) البوادر: البادِرَة ، الحدة أو ما يبدو من الإنسان عند حدته ، ج: بوادر.
(٥) التشهد: وهو قول المصلى في التشهد: أشهد أن لا إله إلا الله.

الشيخ أحمد السرهندي

العلامة عبد الحي الحسني[١]

شيخ الإسلام والمسلمين ، أحمدُ بن عبد الأحد بن زين العابدين رضي الله عنه ، ولد بسرهند في شوال سنة إحدىٰ وسبعين وتسعمئة ، وأخذ أكثر العلوم والطريقة الجشتية عن أبيه ، واستفاد بعض العلوم العقلية عن الشيخ

---

(١) العلامة عبد الحي الحسني (١٢٨٦ ـ ١٣٤١ هـ).
يعتبر العلامة عبد الحي الحسني من الكتاب والمؤلفين المعدودين في العربية الذين نبغوا في الهند ، وتجرد إنشاؤهم العربي عن الآثار العجمية إلىٰ حد بعيد.
ولد في بيت كله علم ودين وصلاح وإرشاد ، وكان أبوه فاضلاً كاتباً وشاعراً ، فتربىٰ في حجر الدين والعلم ، وظهر فيه النبوع المبكر ، يُبشر بمستقبل مشرق ، قرأ الكتب الدراسية السائدة علىٰ أشهر عُلماء عصره ، وكان متألماً لواقع المسلمين ، فلم يزل يخدم ندوة العلماء بدافع إنهاض المسلمين تطوعاً ، حتى حاز ثِقة أعضاء الندوة ، فاختاروه مديراً لها.
كان مُتضلِّعاً من العلوم ، كاتباً مترسلاً بارعاً في الفقه والحديث والسير والتاريخ ، وقد ألف في هذه المواضيع تأليفات تدل علىٰ تذوقه العربي وملكته الراسخة في مجال الأدب والتاريخ ، يقول سماحة الشيخ الندوي:
«كان راسخ القدم في آداب اللغة العربية والفارسية والأردية ، سائل القلم في العربية ، علىٰ كتابته رواء وطلاوة ، وفي عبارته عذوبة وملاحة».
وكتابه «نزهة الخواطر» (في ثمانية مجلدات) مكتبة تاريخية عظيمة خلَّفها للأجيال القادمة ، يحتوي علىٰ تراجم الرجال الذين نبغوا في الهند من القرن الإسلامي الأول إلىٰ سنة وفاة المؤلف ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) والعلامة عبد الحي الحسني ـ كما يروي سماحة الشيخ الندوي ـ أشبه في أسلوب الكتاب ومنهجه وتعبيراته بابن خلكان في الدقة والأمانة ، وتحرِّي الصدق والقياسات اللائقة والدقيقة في تخير الأوصاف والنعوت.
من مؤلفاته العظيمة الأخرىٰ في العربية «معارف المعارف» ، «تلخيص الأخبار» ، «الثقافة الإسلامية في الهند» و«الهند في العهد الإسلامي».

كمال الدين الكشميري ، وأسند الحديث عن الشيخ يعقوب بن الحسن الصرفي الكشميري الذي أخذ عن الشيخ شهاب الدين بن حجر الهيثمي المكي ، ثم تناول الحديث المسلسل بالأولية[١] عن القاضي بهلول البدخشي ، عن الشيخ عبد الرحمن فهد ، عن أبيه الشيخ عبد القادر وعمه شيخ جار الله ، عن أبيهما الحافظ عز الدين عبد العزيز ، عن جده الحافظ الرحلة تقي الدين محمد بن فهد العلوي الهاشمي والحافظ الحجة شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، وللشيخ أحمد إجازة برواية الكتب الحديثية وغيرها عن القاضي المذكور ، ولما فرغ من تحصيل ما تيسَّر له من العلوم الظاهرة وكان إذ ذاك ابن سبع عشرة سنة اشتغل بالتدريس والتصنيف ، ومما صنفه في تلك الأيام رسالة في إثبات النبوة ، وأخرىٰ في الرد علىٰ الشيعة الإمامية[٢] ، وغير ذلك مما أثنىٰ عليه العلماء ، وألبسه أبوه خرقة الخلافة ، فلما تُوفي أبوه عام سبعة وألف ارتحل إلى دهلي يريد الحج ، فقاده قائد توفيق من الله عز وجل إلىٰ الشيخ الأجل رضي الدين عبد الباقي النقشبندي رضي الله عنه ، فأخذ عنه الطريقة النقشبندية[٣] ، واشتغل بها وتدرج في أيام معدودات إلىٰ أوج القطبية والفردية[٤] ثم إلىٰ ما شاء الله تعالىٰ حتى بشره الشيخ بحصول رتبة التكميل والترقي إلىٰ مدارج الخلافة ، ولم يزل يُكرمه ويجله ويفتخر به ويُثني عليه بما لا يبلغ وصفه.

فرجع إلىٰ سرهند[٥] وجلس علىٰ مسند الإرشاد ، وأخذ في الدرس

---

(١) المسلسل بالأولية : هو الحديث الذي يرويه التلميذ عن شيخه في أول لقائه ، وهو قوله ﷺ : «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالىٰ ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

(٢) الشيعة الإمامية إحدىٰ شُعبتي الشيعة الكبيرتين ، تقابل الزيدية سميت بها لأنها تعتد بالإمامة وتجعلها صلب مذهبها ، وتقصرها علىٰ أهل البيت.

(٣) الطريقة النقشبندية : أقوىٰ طريقة صوفية في ضبط البهيمية ، أسسها محمد بن بهاء الدين البخاري (١٣٨٩ هـ) في فارس وتمتاز بطريقة خاصة في الذكر.

(٤) القطبية والفردية : مرتبة عظيمة من مراتب الإحسان والسلوك عند الصوفية.

(٥) سَرْهِند : مقاطعة «شاهجان آباد» كانت مدينة عامرة في القديم.

والإفادة ، وكان يدرس في علوم شتى من الفقه والأصول والكلام والتفسير والحديث والتصوف ، وربما يشتغل «بالهداية» و«البزدوي» و«شرح المواقف» و«البيضاوي» و«المشكاة» و«البخاري» و«العوارف» وله مكتوبات في ثلاثة مجلدات ، وهي الحجج القواطع علىٰ تبحره في العلوم الشرعية ، وفيها ما لا يتبادر إلىٰ الأذهان لمن ليس لهم دَرك في مقامات العرفان ، فشدوا النطاق[١] في خصامه ، وسعوا[٢] إلىٰ جهانكير بن أكبر سلطان الهند ، فأمر بإحضار الشيخ ورضي بجوابه ، فعرضوا عليه أن الشيخ ما سجد للسلطان تكبراً ، مع أنه ظِلُّ الله وخليفته ، بل لم يتواضع تواضعاً جارياً. فغضب عليه السلطان وحبسَه في قلعة كواليار ، وكان شاهجهان ولد جهانكير مخلصاً للشيخ ، فأرسل إليه أفضل خان والمفتي عبد الرحمن من رجاله مع بعض كتب الفقه قبل أن يحضر عند السلطان وقال: إنَّ سجدة التحية تجوز للسلاطين فإن تسجدوا للسلطان عند اللقاء؛ فأنا ضامن من أن لا يصل إليكم ضرر منه ، فلم يقبل الشيخ وقال: هذه رُخصة ، والعزيمة أن لا يُسجد لغير الله سبحانه . فلبثَ في السجن ثلاث سنين ، وحفظ القرآن في تلك الحالة ، ثم أخرجه السلطان من السجن بشرط أن يُقيم في عسكره ، ويدور معه ، فأقام في معسكره ثماني سنوات ، وبعد وفاة السلطان رخَّصه ولدهُ شاهجهان المذكور فعاد إلىٰ سرهند ، وصرف عمره بالدرس والإفادة.

قال الشيخ محسن بن يحيىٰ البكري التيمي في «اليانع الجني»: ولقد بلَّغه الله سبحانهُ من الولاية منزلةً لا يُرام فوقها ، وهدىٰ به بعَهده ، ثم بأصحابه من بعده خلقاً لا يُحصيهم إلا من أحصىٰ رمل عالجٍ عدداً ، فلا ترىٰ ناحيةً من نواحي المسلمين في بلاد الهند وخراسان وما وراء النهر[٣] من بلاد الترك والتَّتر إلىٰ أقصىٰ ثَغرٍ بالمشرق ثم أرض العراق

---

(١) شد النطاق: النِّطاق: ما يُشَد به الوسَطُ ، ج: نُطق ، والمراد بذلُ أقصىٰ جهدِه.
(٢) سعىٰ إليه سعياً (ف): قصد ، بفلان ، عند الأمير: نَمَّ عليه ووشىٰ به.
(٣) ما وراء النهر: اسم أطلقه العرب علىٰ البلاد الواقعة شمالي نهر أمودريا (تركستان الروسية) حتى أواسط آسيا.

والجزيرة وبلاد الحجاز والشام وقسطنطينية وما والاها؛ إلا وقد نَمى فيها طريقتهُ ، وجرىٰ علىٰ ألسنة أهلها ذكره ، إليه يَنتمون وبه يتبركون ، بل دخلت طريقتهُ إلىٰ أقصىٰ المغرب مثل فاس[(١)] وغيرها ، يُعرف ذلك بمراجعة «المنح البادية» لمحمد بن عبد الرحمن الفاسي وغير ذلك ، وفي هذا حجة واضحة علىٰ جليل شأنه عند الله ورفيع مكانه في أولياء الله ، حيث أشاع طريقته في مشارق أرضه ومغاربها ، وعمَّ هذه الأمة برغائب فُيوضه وغرائبها ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ .

ومن مُصنفاته المشهورة الأسفارُ الثلاثة من مكاتيبه ، بحرٌ من العلم والحقائق وكنز من الرموز والدقائق ، ورسائل مفردة «كالمبدأ والمعاد» ، و«المعارف اللدنية» و«المكاشفات الغيبية» ، وغير ذلك. وله رضي الله عنه في بيان العقائد علىٰ مذهب الماتريدية[(٢)] ولتهذيب طريقة الصوفية النقشبندية لسان أي لسان! ومن أياديه علىٰ رقاب كثيرٍ من الناس أنه أوضح الفرق بين وَحدة الوجود[(٣)] وبين وَحدة الشهود[(٤)] ، وبيَّن أنَّ وحدة الوجود شيء يَعتري السالك في أثناء السلوك فمن ترقّىٰ مقاماً أعلىٰ من ذلك يتجلّىٰ له حقيقةُ وحدة الشهود ، فسدَّ بذلك طريق الإلحاد علىٰ كثير ممن كان يتستَّر بزي الصوفية ويتأوَّلُ كلامهم علىٰ أهوائه الزائفة ، ومنها أنه باحَثَ الملاحدة الذين كانوا في زمانه وجادلهم جدالاً حسناً بقلمه ولسانه ، وكذلك ردَّ علىٰ

---

(١) فاس: مدينة في المملكة المغربية ، تقع علىٰ مفترق الطرق المؤدية إلىٰ الرباط ، الجزائر ، طنجة. من أهم آثارها «جامع القرويين».

(٢) الماتريدية: مذهب من مذاهب أهل الحق ، يُنسب إلىٰ أبي منصور الماتريدي ، يتَّصف بالاعتدال والوسطية علىٰ العكس من إفراط المعتزلة وتفريط الأشاعرة.

(٣) وحدة الوجود: وهي أن تَغلِب علىٰ «وحدة الشهود» إلىٰ الدرجة التي ينكر بها الصوفي وجود كل شيء ويَصدع بأ لا موجود إلا الله ، وهي التي بلغت بالمنصور الصوفي إلىٰ أن قال «أنا الحق» ، فإن كل ما في العالم ليس إلا الله وحده.

(٤) وحدة الشهود: درجة عظيمة من المعرفة يتمكن بها العارف من الاقتناع التام بقدرة الله الفائقة ، وسيطرتها علىٰ كل شيء وضآلة جميع الأكوان أمام عظمته ، كالشمس إذا طلعت اختفىٰ ضوء النجوم رغم أنها موجودة.

الروافض ونقَض بدعاتهم ، وردَّ علىٰ الضعفاء مكائدهم فحمىٰ بذلك حمىٰ الدين ، وحرستْ به بَيضةُ[١] المسلمين ، ومنها أنه حقَّق الفرق بين البِدعة والسُّنة وأقيسةِ المجتهدين واستحساناتِ المتأخرين ، والتعارفِ عن القرون المشهود لها بالخير وما أحدثه الناس في القرون المتأخرة وتعارفوه فيما بينهم ، فردَّ بذلك مسائل استحسنَها المتأخرون من فقهاء مذهبه ، ومنها أنه كان يأمر بما يراه معروفاً وينهىٰ عن ضده ولا يخشىٰ في الله لومة لائم ، ولا يخاف من ذي سطوة في سلطانه ، فكان ينكر علىٰ الأمراء ويُرشدهم إلىٰ مراشد دينهم ويُنفِّرهم من صحبة الروافض ومن شاكلهم من أعداء الدين ، ويبذل لهم نُصحه فنفَع الله كثيراً منهم بذلك ، وصَلَحت بصلاحهم الرعيَّة ، فسدَّ الله ثُلمةَ[٢] ظاهر الدين كما رقع به خُرْقَ[٣] باطنه ، فهذَّب به وبأصحابه في البلدان النائية فِئامٌ ممن وفق لسبيل القوم ، وذلك لأنه كان فقيهاً ماتُريدياً ، زكيَّ النفس ، حريصاً علىٰ اتباع السنن ، مجتهداً ، فيه شديد النصح لأبناء زمانه ، فجاءت لذلك والله أعلم طريقته وعلومه وشمائله محمودة عند المحققين وأهل الإنصاف ، ورغب فيها الناس وقلَّ ما تُعقب به ورُدَّ من قوله ، وقد شهد بما ذكرتُ من فضائله أو بما يقرب منه ، وأجاب عن شُبهات المتقشفة ، وذبَّ عنه الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي ، وأنعم الثناء عليه ، فلم يترك فيه مجالاً لعائب ولا مقالاً لرائب ، وكفاك به إماماً يشهد لإمام ، والقول ما قالت حَذام[٤].

(نزهة الخواطر ـ الجزء الخامس)

---

(١) البَيْضَة : بيضةُ القوم : ساحتهم.

(٢) الثُّـلْمة (بالضم) : فُرجة المكسور أو المهدوم ، أي الخلل والإنكسار.

(٣) الخُرق : النقبة ، الفرجة ، ج : خروق.

(٤) حَذام (بكسر الميم) : يقال إنها جاهلية يمانية يضرب بها المثل في صدق الخبر وبعد النظر ، يروىٰ أنها حذرت قومها من خطر العدو ولما رأت أسراب القطا صدق قومها ونجوا فأنشد زوجها :

اذا قالت حذام فصدقوها ... فإن القول ما قالت حذام

الربانيون

الشيخ أبو الحسن الندوي[١]

وقع إليَّ كتاب في أردو اسمه «إرشاد رحماني» من تأليف العالم الرباني

---

(١) سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي حفظه الله تعالىٰ.
يعتبر سماحة الشيخ الندوي في طليعة المفكرين القلائل والأعلام البارزين الذين أسهموا في النهضة الإسلامية الواعية، وإثراء اللغة العربية كأحد أبنائها منذ نصف قرن، وكل ذلك في أسلوب علمي، أدبي عصري، يَفيض روعة وبهاء، وحيوية وحماساً، ورقة وعذوبة، ويجاري مع الطبع ويُصادف القلب هواه، يقول الأستاذ أنور الجندي عن أسلوب الشيخ الندوي: «وأسلوبه في غاية الروعة والجمال وله قُدرةٌ عالية في البيان وعمق الفهم للإسلام». وُلد سماحته في مديرية بالهند تسمىٰ «راي بريلي» في شهر المحرم سنة ١٣٣٢ هـ، والده هو الشريف العلامة عبد الحي الحسني، وأسرته من أصل عربي لا تزال تحافظ علىٰ أنسابها إلىٰ هذا اليوم، وتمتاز بالمحافظة علىٰ التوحيد والسنة والبعد عن البدع، تخرَّج من ندوة العلماء ومعهد ديوبند، وجامعة لكهنؤ، فهو بذلك يجمع بين الثقافتين الدينية والعصرية، يتولىٰ الآن إدارة ندوة العلماء خلفاً لأبيه الراحل كما أنه يُشرف علىٰ كثير من الحركات والمجامع والمؤسسات والمجالس الأدبية والدينية في أرجاء العالم الإسلامي.
من أهم مؤلفاته «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» «رجال الفكر والدعوة» «السيرة النبوية» «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» «روائع إقبال» «إلىٰ الإسلام من جديد» وغيرها من الكتب العلمية القيمة، وامتازت كتاباته بالعرض الموضوعي والأُسلوب العلمي الرصين، واحتلَّت مكاناً بارزاً في مجال الفكر والدعوة، وحظيت بالقبول والتجاوب لدىٰ العلماء والباحثين، يتحدَّث الدكتور مصطفىٰ السباعي عن ميزة كتابته: «كُتبه ومؤلفاته تتميَّز بالدقة العلمية وبالغوص العميق في تفهُّم أسرار الشريعة وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي». ويشير إلىٰ هذه الخصائص البارزة الأستاذ محمد المجذوب: «إن لعباراته الأدبية سحراً لا يتوافر في العادة إلا في العلية من أصحاب المواهب الذين تعمَّقوا سرَّ الكلمة وتفاعلوا به».
راجع للاطلاع على حياته وآثاره كتاب «أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» للسيد عبد الماجد الغوري، صدر من دار ابن كثير بدمشق عام ١٩٩٩ م.

الشيخ محمد علي المونكيري مؤسس «ندوة العلماء» ذكر فيه في أسلوب طبعي مؤثر مقابلاته مع بعض كبار المخلصين والعلماء الربانيين في عصره ، وخصَّ بالذكر شيخه مولانا فضل رحمن الكنج مراد آبادي عليه رحمة الله وكيف تعرَّف به ، وكيف كانت زيارته الأولىٰ في كانبور ، وكان يومئذ طالباً يَدرس الفلسفة والمنطق شأن طلبة العلم في عصره ، وكان قابلهُ الشيخ كأنه كان منه علىٰ ميعاد ، وقال: «هذا ولدي» وسأله عن الكتب التي يقرؤها ، ولما ذكر كُتب الفلسفة والمنطق امتعضَ[1] الشيخ وقال: نفرض أنك قرأت هذه الكتب وبَرعت في **هذه** العلوم «اليونانية» فماذا بعد وأي فائدة تُجنيها؟ امش معي إلىٰ قبر رجل لم يعرف من هذه العلوم قليلاً ولا كثيراً ولكنْ عرف الله ، وكان له معه شأن ، ثم امش معي إلىٰ قبر فلان من أئمة المنطق ومن كبار المؤلفين في هذا الموضوع تر عجباً وتر فرقاً واضحاً» وذكر كيف تملَّكه حُبُّ الشيخ ، وكيف كانت له معه محادثات ومقابلات حتىٰ استأثرَ به الشيخ ، وكان من أخصِّ أصحابه ، وذكر سيرته وتجرُّده من أسباب الدنيا ، وإقبالَه إلىٰ الله بقلبه وقالبه واطِّراحه[2] علىٰ عَتبةِ عُبوديته ، وشِدَّته في اتباع السنة والتمسُّك بما ثَبت منها وصح في الأذكار والأدعية والأفعال والأحوال ، كنتُ أقرأ ذلك ويسيغه عقلي الصغير ويلتذُّ به شعوري ، وأعجبتني بصفةٍ خاصة أبياتٌ كان يُنشدها الشيخ ، تدلُّ علىٰ أنه كان صاحبَ عاطفة قوية ، ويَغلي في قلبه مِرجلُ الحب والحنان فيتسَّلىٰ بهذه الأبيات التي يُنشدها في بساطة ، وكأنه يعتذر إلىٰ من يعدُّ ذلك نُكراً ويقول:

سَقَوْني وقالوا لا تُغَنِّ ولو سَقَوْا جبا ... ل سُلَيمىٰ ما سُقيتُ لغَنَّتِ

وقريباً من تلك الأيام صادفتُ ورقاتٍ مطبوعةً لوالدي السيد عبد الحي رحمه الله سماها «استفادة» قصَّ فيها قصة رِحلته إلىٰ الشيخ فضل الرحمن عليه رحمةُ الله ، وكان يومئذٍ طالباً في لكهنؤ بلغتْه وفاةُ الشيخ فتأسف علىٰ ذلك أسفاً شديداً ، ثم بلغه نَفي هذه الشائعة[3] وأنَّ الشيخ لا يزال حياً فشدَّ

---

(١) امتعض: امتعض من الأمر: غضبَ منه وشق عليه.
(٢) الإطِّرَاح ، اطَّرَحَه: رماه وقذفه.
(٣) الشائعة: خبر موضوع شائع.

الرحل إلىٰ كنج مراد آباد ، وقطع مسافة طويلة لم يقطعها في عمره من قَبلُ راجلاً ، وهو لا يشعر بالكلال والتعب في شدة الشوق ، ووصل إليه وهو مضطجع وعنده أصحابه ، فسأله عن وطنه فلما ذكر والدي رحمه الله أنه من «رأي بريلي» من زاوية العارف بالله الشيخ علم الله الحسني[1] حوَّل الشيخ جنبه ، وقال: «لقد كان عَلَماً» ، ثم سأله عن الكتب التي يقرؤها ، فلما ذكر هداية الفقه وأمثالها ، قال: إن الغايةَ من التعلُّم هو العمل وقد كان المُخلصون يتعلَّمون ليعملوا ، كان الشيخ العارف محمد مينا اللكهنوي يقرأ «شرح الوقاية» ، فلما انتهىٰ من كتاب الصلاة أطبقَ الكتاب ، فسأله أستاذهُ عن السبب ، قال: إن الغرضَ من التعلم هو العمل ، وقد فرضَ الله عليَّ الصلاة فتعلَّمتُ أحكامها ، فإذا فرض عليَّ الزكاة وملَكتُ النِّصاب قرأتُ أحكامها كذلك ، أما الآن فلا أتشاغلُ بتعلُّم ما لا أستطيع العملَ به .

يقول والدي رحمه الله: لا أذكر أني وجدتُ في قيام الليل لذَّة وجدتها في تلك الليلة ، وأخذ الشيخُ بيدي من غير طلبٍ مني ، ولقنني كلماتِ التوبة ، وحثَّني علىٰ قراءة «الحصن الحصين» مجموعة الأدعية والأذكار المأثورة للجزري ، وقال: أعرفُ مئاتٍ من الناس أكرمهم الله بالولاية بقراءة هذا الكتاب والتزام الأدعية المأثورة ، وهنالك تملَّكته العاطفة وأنشأ ينشد الأبيات الرقيقة الرائقة بالفارسية والأوردية والهندية ، منها بيتٌ في الأوردية معناه «لا تُتعب نفسك يا من يَبحث عن القلب في صدري إنما هي حَفنةٌ من رماد فيها النار كامنة» وبيتٌ للحكيم السَّنائي ـ الشاعر الفارسي المعروف ـ معناه: «أسخنَ الله عينَ السنائي ، إذا أراد أن يعيش ويقضي أياماً غير مُتَّبع سنةَ الرسول» وبيتٌ بالهندية ـ لغة الهند القروية ـ «إنَّ عيناً حلَّ فيهاَ المحبوب ووقع منها كل موقع ؛ لم تُبصرِ الجمال في غيره» .

---

(١) الشيخ علم الله (١٠١٣ ـ ١٠٩٦ هـ): كان عالماً كبيراً متبعاً للسنة وغاية في الورع والتقوىٰ ، إلىٰ أسرته ينتمي الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي ، حصل علىٰ الطريقة الصوفية وتشرَّف بالخلافة والنيابة ، خَدَم الخلق والدين إلىٰ أن توفي إلىٰ رحمة الله في عهد الإمبراطور «عالمكير» .

وكان من عادة الشيخ رحمه الله أنه كان يُقرىء «الجامع الصحيح» للبخاري كل يوم ، وكان له شَغفٌ زائد بالحديث وغرام لا يكاد يَعدل به[١] بعدَ القرآن شيئاً ، وكان إذا قرأ الدرس ترنَّحتْ أعطافه[٢] وفاض خاطرهُ[٣] ، وكان كبيرَ الإعجاب «بالجامع الصحيح» بصفة خاصة ، وكان يقرأ الدرس كل يوم مرة أو مرتين ، وكان والدي سعيداً جداً إذا قرأ الشيخُ الدرس ثلاث مرات ، وبقي يلتذُّ بهذا الدرس طول حياته ، ويذكره بلذة غريبة وسرور عظيم ، ويقول: لا أستطيع أن أصفَ هذا الدرس وحلاوته وتأثيره في القلب ، فليس الخبَر كالمُعاينة ، وسمع منه الوالدُ الحديثَ المسلسل بالأولية وهو قوله ﷺ: «الرَّاحمونَ يَرحمهم الرَّحمنُ تبارك وتعالىٰ ، ارْحَموا مَنْ في الأرض يَرحمْكُم من في السماء» ، والمسلسل بالمحبة وهو الحديث المشهور: «يا معاذ إني أحبك فقل: اللهم أعنِّي علىٰ ذِكرك وشكرك وحُسن عبادتك» وقال الشيخُ: سَمِعْتُهُ أذناي من شيخنا عبد العزيز ابن ولي الله الدَّهلوي ، وأنا أُجيزك بروايته.

وقرأتُ بعدَ ذلك مقالةً للسريِّ الفاضل المؤلِّف البارع الشيخ حبيب الرحمن الشَّرواني رحمه الله وزير الأمور الدينية في إمارة حيدر آباد ، وصفَ فيها رحلته واجتماعه بالشيخ الكبير وارتساماتِ[٤] هذه الزيارة ، فذكر أنه سبقه إلىٰ زيارة الشيخ بيوم واحد كبير أمراء حيدر آباد من أعظم الأغنياء والرجهاءِ في عصره «نوّاب خورشيد جاه بهادر» ، وكانت زيارته الملوكية وما أنفق في طريقه إلىٰ «كنج مراد آباد» مقرِّ الشيخ من نفقاتٍ عظيمة حديثَ المجالس والنوادي ، وكل مَن صادفه في الطريق حدَّثه عن هذه الرحلة العظيمة وعن هذه الأَريحيَّةِ[٥] الكبيرة ، وعن غِنى الزائر العظيم ، وعن رَكبه

(١) يعدل به ، عدل الشيءَ بالشيء عدلاً(ض): سوَّىٰ بينهما.
(٢) ترنَّحت أعطافهُ ، الترنح: التمايُل سُكراً أو غيره ، والعِطْف: الجانب ج: أعطاف ، ترنحت أعطافهُ: أي اهتز وطرب.
(٣) فاض خاطره: أي امتلأ قلبه سروراً ، وتدفَّقت عواطفه.
(٤) الارتسامات: المشاعر والانطباعات.
(٥) الأَرْيَحِيَّة: خصلة تجعل الإنسان يرتاح إلىٰ بذل العطايا ويُسَرُّ به.

وخِيامه وحشَمه ، ولكنه لما وصل إلىٰ «كنج مراد آباد» لم يَسمع له ذِكراً ، وكأنَّ هذا الأمير الذي دوَّت له الأرجاء[١] وصفَّق له الجمهور ، وتحدثت به المجالس؛ لم يَزُر هذه القرية الصغيرة ولم يَستَرْعِ اهتمامَ أحد ، لم يسمع في هذه القرية خَبَراً عن ذي جاه كبيرٍ ومالٍ وفير ، إنما هو حديثٌ عن الله والرسول ، كأن هذه القرية لا شأن لها بالعالَم ولا صلة لها بالخارج ، إنما هي جزيرة منقطعة يسود فيها السلطان الديني ، ويحكم فيها عبدٌ من عباد الله المخلصين تحرَّر من سلطان المادة فدانتْ له الدنيا ، وأعرضَ عن الدنيا فأتتهُ راغمة ، قال: ولم أرَ نفسي أصغر في عيني منها ذلك اليوم.

وسمعتُ الشيخ حبيبَ الرحمن يتحدَّث كثيراً عن شيخه ، ويحكي حكايات في زهده وكِبر نفسه وإخلاصه ، واستخفافهِ بأهل الدنيا وأصحاب الوجاهة والأموال ، وقرأتُ لغيره كالشيخ تجمَّل حسين البهاري ، والسيد نور الحسن ابن المؤلف الشهير السيد صديق حسن خان صاحب بهوبال كُتباً ورسائل ، وأكثرُ أعضاء الندوة من تلامذة الشيخ ومريديه ، فأمكنني أن أعرف الشيء الكثير من سيرته وأخباره ، وكان كلّه مُعجباً مُطرباً يملأ القلب بالإيمان ويَحقر المادة وعُبَّادها ، ويُعظِّم الدين وأهله ، فمن ذلك أنَّ حاكم الولاية الإنجليزي قصد زيارته مرةً وشاع ذلك في الناس ووصل الخبر إلىٰ «كنج مراد آباد» فأهمَّ الناس وشغل خاطرهم ، وذلك لأن الإنجليز كانت لهم صَولةٌ[٢] في البلاد ، بعد عام ١٨٥٧ م لا تُقدَّر الآن ، ولا يستطيع هذا الجيل الذي نشأ بعد حركة التحرير أن يفهَمها ويعرف خطرها ، وكانت زيارة حاكمٍ كبير يحكم علىٰ ولايةٍ من كُبرىٰ الولايات الهندية ـ هي الولايات المتحدة آكره وأوده ـ حادثةٌ ذات شأن ، واهتم الناس باستقباله وقد عرفوا أن الإنجليز لا يجلسون إلا علىٰ الكراسي ، وزاويةُ الشيخ فقيرةٌ ليس فيها كرسيٌّ ومقاعد حديثة ، وعرف الشيخ اهتمامَ الناس واستخفَّ باهتمامهم

(١) دَوَّت له الأرجاء ، دوَّىٰ تدوية الصوت: سُمع له دَوِيٌّ أي صوت ، أي ارتجت به الأجواء.

(٢) الصَّولة: السَّطوة والمهابة.

بهذا الأمر التافه الذي لا ينبغي أن يَشغل قلبَ المؤمن ، فتساءل ما يُهمُّكم يا جماعة؟ قالوا : حاكم الولاية يزور الشيخ ليس هاهنا مقعد لائق به! .

وكأنَّ الشيخَ أراد أن يُلقي عليهم درساً في الإيمان ويُريهم منزلة أرباب الدنيا في عينِ أهل الدين ، فقال : وَيحكم[1] أليست هنا جرَّةٌ نشربُ منها؟ قالوا : بلىٰ ، قال : فَنقْلِبُها يجلس عليها ، وسكتَ الناس ، وجاء الحاكم ، فلم يكن من الشيخ إلا أن أشار إليه بالجلوس ، ولكنه بقي واقفاً ، وحادثه الشيخ كما يُحادثَ من لا شأن له من الناس ولا خطر ، وانتقد حكومته ، وقال : قد فَشتِ الرشوة في حُكمكم فُشوّاً كبيراً ، والحاكم منُصِتٌ خاشع ، وقرينتُه جالسةٌ تسمع ، وقال : إنَّ فيكم وقاحةً وقلةَ حياء يشير إلىٰ سُفور المرأة ، ثم انصرفا ، وانصرف الناس إلىٰ أشغالهم ، وعادت القرية إلىٰ هدوئها. وحكىٰ لي الشيخ حبيبُ الرحمن أنه أهدي إليه يوماً في المساء خمسمئة روبية ، وهو مقدارٌ كبير من المال في عصر الشيخ ـ فقد توفي في فجر هذا القرن ـ فقال : عليَّ بالحمالين والعملة ، فقد أشرف جداري علىٰ التَّهدم ، وجاء الفقراء وأهل الحاجة وهم يعرفون عادة الشيخ فاشتغلوا بالجدار ، وما عليه بأس ، وإنما هي حيلةُ الشيخ لتوزيع المال علىٰ ذوي الحاجة والخَصاصة المُتعفِّفين الذي لا يسألون الناس ولا يَفطنُ لهم الناس ، ثم وزَّع عليهمُ المال كلَّه ، ورجعوا إلىٰ بيوتهم ، وعرض له بعضُ أصحابه وقال : إنا لم نر بجدار الشيخ بأساً ، فما الداعي إلىٰ هذه العجلة؟ فقال : كيف لو سقطَ الجدار وتهدَّم البيتُ؟ وعرف الرجل أنه حِرصُ الشيخ علىٰ أن لا يبيت عندَه درهم أو دينار ، وإنما هو اتِّباع النبيِّ ﷺ.

أبو الحسن علي الندوي

في مجلة «البعث الإسلامي»

---

(١) وَيْحَكم ، وَيْحٌ : كلمةُ تَرحُّم وتَوجُّع ، وقد تأتي بمعنىٰ التَّعجب ، يقال : ويحٌ لزيد وويحاً لزيد ووَيْحَ زيدٍ ، رفعهُ على الابتداء ، ونصبهُ بإضمار فِعل مثل «ألزَمه اللهُ وَيحاً».

رِثاء الرسول عليه الصلاة والسلام

(لسيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه)[(١)]

مـا بـال عينـي لا تنـام كـأنَّمـا ... كُحلـت مـآقِيهـا بكُحـل الأرمـدِ[(٢)]

جـزعـاً على المهـدي أصبـح ثـاويـاً ... يا خـير من وطىء الحصى لا تَبْـعُدِ[(٣)]

---

(١) حسان بن ثابت الأنصاري (٥٠ هـ).
ولد في يثرب ، وفيها نشأ ، ولكن رغم نشأته الحضرية كان متأثراً بالحياة البدوية ، اتصل بالغساسنة من ملوك الشام وهو من الأنصار ، نصر الدين بلسانه وهو سلاحهُ الذي شهره علىٰ أعداء النبي ﷺ ، فصار بذلك شاعر الرسول ﷺ يمدحه ، ويردُّ علىٰ من يهجوه من شعراء قريش.
وهو شاعرٌ فحلٌ متصرِّف في فنون الشعر كلها ، تتحلىٰ ديباجتُه بالنقاوة والجزالة وسهولة الألفاظ ورَوعة التعبير ، وله ميزة ذات منزلة عالية ، وهي ميزة المؤرخ الأمين لحوادث عصره ، فهو في نضاله عن النبي ﷺ يُصوِّر عصره أصدقَ تصوير ، حين يُحدِّثنا عن غزوات النبي ﷺ وأيامها ، ويُعطينا صورةً واضحةَ القسماتِ عن المناضلة بين الإسلام والشرك ، وتهاجي الأنصار والقرشيين ، فكأنَّ أشعارَه تُطالعنا نبذةً من تاريخ الصدر الأول للإسلام ، وكان النبي ﷺ يقول لحسان: «اهجُهم ، فوالله لَشِعرُكَ أشدُّ عليهم من نَضْحِ النَّبْل في غَلسِ الظلام» ، وقال أبو عبيدة: «اجتمعتِ العرب علىٰ أنَّ حسان أشعرُ أهل المدَر» ، وقال الحُطيئة: «أبلغوا الأنصار أنَّ شاعرَهم أشعرُ العرب».
وله ديوان شعر معروفٌ ، في مُتناول اليد.

(٢) المُؤْق والمُوق: مجرىٰ الدمع من العين أي من طرفها مما يلي الأنف ، ج: مآقٍ ومواقٍ.
الأرمد: الذي أصيب بهيَجان العين.

(٣) المهدي: هو النبي الهادي المهدي ﷺ.
ثاوياً ، ثوىٰ الرجلُ ثَواءً وثَوِيّاً (ض): مات.
خيرُ من وطىء الحصى: خير الإنس والجن.
لا تَبْعُدِ: جُملةٌ دعائية ، أي لا تَبْعُدْ من رحمة الله.

جنبي يقيك الترب لهفي ليتني غُيِّبتُ قبلكَ في بقيع الغرقد[١]
أُأقيم بعدَك بالمدينةِ بينَهم يا لهفَ نفسي ليتني لم أُولد
بأبي وأمي مَن شَهدتُ وفاته في يوم الاثنين النبيِّ المُهتدي[٢]
فظللتُ بعد وفاته مُتلدِّداً يا ليتني أُسقيتُ سُمَّ الأسودِ[٣]
أَو حلَّ أمرُ اللهِ فينا عاجلاً في رَوحة من يومنا أو في غَدِ[٤]
فنقومُ ساعتَنا فنَلقىٰ طَيِّباً محضاً ضرائِبهُ كريمَ المَحتدِ[٥]
يا بِكرَ آمنةَ المُبارك ذِكرهُ ولدتْكَ مُحصنةٌ بسَعد الأسعدِ
نوراً أضاءَ علىٰ البَريَّة كُلِّها من يُهدَ للنورِ المبارك يَهتدِ
يا ربِّ فاجمعْنا معاً ونَبيَّنا في جنةٍ تُنبي عُيون الحُسَّدِ[٦]
في جنةِ الفردوسِ واكتبْها لنا يا ذا الجلال وذا العلا والسُّؤدَدِ
واللهِ أَسْمَعُ ما حييتُ بهالكٍ إلا بَكيتُ علىٰ النبي محمدِ
ضاقت بالأنصارِ البلادُ فأصبحوا سوداً وجوهُهمُ كلونِ الإثمدِ[٧]
ولقد وَلدناه وفينا قبرُه وفضولَ نِعمته بنا لم نَجحدِ
صلَّىٰ الإلهُ ومن يَحفُّ بعرشهِ والطَّيبون علىٰ المُباركِ أحمدِ
فَرِحت نصارىٰ يَثْرِب ويَهودُها لما تَوارىٰ في الضريح المُلْحَدِ

(ديوان سيدنا حسان رضي الله عنه)

---

(١) لهفي: أي يا لهف نفسي، وهي كلمة تحسر وتفجع.
(٢) بأبي وأمي: الفعل محذوف هو أفديك بأبي وأمي.
(٣) مُتلدِّداً: متحيِّراً.
(٤) أمر الله: يعني الموت.
(٥) الضريبة: الطبيعة، ج: ضرائب.
المَحْتد: الأصل، ج: المحاتد.
(٦) أنبى الشيء إنباء: أبعده.
(٧) الإثمِد: والأثْمُدُ: حَجرٌ يُكتَحلُ به.

خطابُ القرآن

ابـن الـقيـم[١]

قال ابنُ القيم: تأمّل خِطاب القرآن تجد مَلكاً له المُلك كلُّه، وله الحمد كُلهُ، أزمة الأمور كلِّها بيده ومصدرُها منه وردُّها إليه، مستوياً علىٰ العرش، لا يخفىٰ عليه خافية من أقطارِ مملكته، عالماً بما في نفوس عبيده، مطَّلعاً علىٰ أسرارهم وعلانيتهم، مُنفرداً بتدبير المملكة، يَسمع ويرىٰ، ويُعطي ويمنع، ويُثيبُ ويعاقب، ويُكرِم ويُهين، ويَخلق ويَرزُق، ويُميت ويقدِّر، ويقضي ويدبر، الأمور نازلة من عنده، دقيقها وجليلها،

(١) ابن قَيِّم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ).
هو إمام مُحقِّق أصولي، فقيه نحوي، صاحب ذِهن وقَّاد، وقلم سيَّال، وتآليف كثيرة ممتعة، وُلد في بيت علم وفضل في قرية إزرع من قرىٰ «حوران» التي تبعُد من دمشق ٥٥ ميلاً جنوب شرقيها.
أخذ علم الفرائض عن أبيه، وسمع الحديث من الشهاب النابلسي، وأخذ العربية عن ابن أبي الفتح البعلي، تلقَّىٰ الفقه علىٰ ابن تيمية، فنهلَ من فيض علمِه الواسع وآرائه القيمة كثيراً، حتى اصطبغ بصبغته، وملك عليه حبه وعاطفته.
وهو يُعد بحق في زمرة أولئك المفكرين المصلحين الذين استنارت بأفكارهم عقول معاصريهم، تتحلَّىٰ كتابته بالعلم الغزير في أسلوب أدبي رشيق وعبارة سهلة ممتعة، قال الحافظ ابن رجب: «ما رأيت أوسع علماً منه ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان»، وقال الحافظ ابن كثير: «برع في علوم متعددة لا سيما في علم التفسير والحديث والأصلين، لازم ابن تيمية فأخذ عنه علماً جماً»، وقال الحافظ ابن حجر: «كان جريء الجنان واسع العلم عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف».
بلغتْ تصانيفه نيفاً وستين في علوم مختلفة من أشهرها «إعلام الموقعين»، «إغاثة اللهفان»، «زاد المعاد»، «شفاء العليل»، «مفتاح دار السعادة»، وغيرها.

وصاعدةٌ إليه لا تتحرك ذرةٌ إلا بإذنه ، ولا تسقطُ وَرقةٌ إلا بعلمه ، فتأمَّل كيف تجدْه يُثني علىٰ نفسه ، ويُمجِّد نفسَه ، ويُحمد نفسه ، يَنصح عباده ، ويَدلُّهم علىٰ ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه ، ويُحذِّرهم مما فيه هلاكهم ، ويَتعرَّف إليهم بأسمائه وصفاته ، ويتحبَّب إليهم بنعمه وآلائه ، يُذكِّرهم بنعَمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون[١] به تمامها ، ويُحذِّرهم من نِقمه ، ويذكرهم بما أعدَّ لهم من الكرامة إن أطاعوه ، وما أعدَّ لهم من العقوبة إن عصوه ، ويُخبرهم بصُنعه في أوليائه وأعدائه ، وكيف كانتْ عاقبة هؤلاء وهؤلاء ، ويُثني علىٰ أوليائه بصالح أعماله وأحسن أوصافهم ، ويَذُمُّ أعداءه بسيىء أعمالهم وقبيح صفاتهم ، ويَضرب الأمثالَ ، ويُنوِّع الأدلة والبراهين ويُجيب عن شبهةِ أعدائه أحسنَ الأجوبة ، ويُصدِّق الصادق ويُكذِّب الكاذب ، ويقول الحق ويهدي السبيل ، ويدعو إلىٰ دار السلام ، ويذكر أوصافها وحُسنَها ونعيمها ، ويُحذِّر من دار البوار[٢] ، ويذكر عذابها وقُبحها وآلامها ، ويُذكِّر عبادهُ فقرَهم إليه ، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه ، وأنهم لاغنىَ لهم عنه طرفةَ عين ، ويَذكُر غِناه عنهم وعن جميع الموجودات ، وأنه الغنيُّ بنفسه وكل مَن سواه فقيرٌ إليه بنفسه ، وأنه لا ينال أحدٌ ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته ولا ذرةً من الشر فما فوقها إلا بعدلهِ وحكمته ، وتشهدُ من خِطابه عتابَه لأحبابه ألطف عتاب ، وأنه مع ذلك مُقيلٌ[٣] عثراتِهم وزَلَّاتهم ، ومُقيم أعذارهم ومُصلح فسادهم ، والدافع عنهم ، المحامي عنهم ، والناصر لهم ، والكفيل بمصالحهم ، والمُنجي لهم من كل كرب ، والموفي لهم بوعده ، وأنه وَليُّهم الذي لا وليَّ لهم سواه ، فهو مَولاهم الحق ، وينصرهم علىٰ عَدوِّهم ، فنعم المولىٰ ونعم النصير ، فإذا شهدتِ القلوب من القُرآن مَلِكاً عظيماً جواداً رحيماً جليلاً هذا شأنهُ ، فكيف لا تُحبه وتُنافس في القُربةِ منه ، وتُنفقُ أنفاسها في التودد إليه ، ويكون أحبَّ إليها من كل ما سواه ، ورضاه آثرُ عندها من رضا

---

(١) يستوجبون ، استوجب بالشيء : استحق به .

(٢) دار البوار : دار الهلاك ، دار جهنم .

(٣) مُقيل ، الإقالة : الإزالة ، يقال : أقال الله عثرتَكَ ، أي : مَحَىٰ الله خَطأَك وزَلَتَك .

كل مَنْ سواه ، وكيف لا تَلهج[(١)] بذِكره ، ويصير حبهُ والشوق إليه والإنس به هو غذاؤها وقُوتُها ودواؤها ، بحيث إنْ فقدتْ ذلك فسدتْ وهلكت ولم يُنتفع بحياتها .

(تفسير «الإتقان في علوم القرآن»)

(١) تلهج ، لهج بالشيء لَهَجاً (س) : أغري بالشيء فثابر عليه واستقر .

بين الأمس واليوم

الأستاذ علي الطنطاوي[1]

وقلت للغلام:

ـ ألا تمشي معي أريك دمشق؟

ـ قال: أنا أرىٰ دمشق كل يوم ، ولا أريد أن أمشي معك ، إنني لا أمشي مع من هو أكبر مني ، ولا أمشي مع من لا أعرف.

ـ قلت: ولو كان قريبك؟

ـ قال: فهل أنتَ قريبي؟

ـ قلت : أنا أقربُ الناس إليك!

ـ قال: وما تكون مِنّي؟

---

(١) الأستاذ علي الطنطاوي:
هو من كبار الكتاب الذين أنجبتهم العربية في هذا العصر ، ولد عام ١٣٢٧ هـ في دمشق ، ونال شهادة الحقوق من الجامعة السورية ، وأصبح مستشار محكمة التميز بدمشق ، ولم ينقطع عن الكتابة ، وانتقل إلىٰ الحجاز بعد الطوارىء في سورية.
من مؤلفاته «قصص من التاريخ» ، «رجال من التاريخ» ، «صور وخواطر» ، وجميع مؤلفاته تمتاز بالعذوبة والسهولة في أسلوب رائق قيم ، يتحدث سماحة الشيخ الندوي عن مزايا أسلوبه قائلاً:
«تجمع كتابته بين الرشاقة والجزالة ، ومحاسن القديم والجديد في قوة ودَفق وعربية ناصعة وبيان واضح».

ـ قلتُ أنا أنت ، فضحك الخبيثُ وقال:

ـ رحم الله هبنَّقة[١] أنت أنا ، فمن أنا؟

فكدتُ أقول له: أنت أنا ، ثم خفت أن يجترىء عليَّ بالقول الجارح ، لأنه كما بدا لي سليط اللسان[٢] ، فسكتُّ عنه ، وما زلتُ به حتى رضي أن يمشي معي.

ـ قال: ولكني لا أجاوز آخر الشارع.

ـ قلت: وأي شارع؟

ـ فقال: وهل في دمشق مئة شارع؟! الشارع الذي فتحه جمال باشا[٣] ، وأنا أعرفه من قبلُ طريقاً ضَيقاً ، يمتد من بعد المُشيرية[٤] إلىٰ محطة الحجاز ، يَقطعه هذا الزُّقاق الذي يصل من المرجة[٥] إلىٰ الشابكلية[٦] زقاق رامي.

ـ قلتُ: لقد تغيرتِ الأرض ومن عليها يا ولدي ، وفُتحت مئات من الشوارع وصارت «المرجة» لُبَّ البلد ، وقد كانت في آخره ، وقامت وراء «شركة الكهرباء» حيث المزابل[٧] التي تَعرفُها العماراتُ الضخمة ، والحدائق الواسعة ، وطريقُ الصالحية الذي كان يمتد وحده بين البساتين

---

(١) هَبنَّقة: أحد بني قيس بن ثعلبة ، ضُرب في حمقه المثل ، من حمقه: أنه جعلَ في عنقه قلادةً من عظام وخزَف ، فسُئل عن ذلك ، فقال: لأعرف بها نفسي ولئلا أَضل ، فبات ليلةً وأخذ أخوه قِلادته فتقلدها ، فلما أصبح ورأىٰ القلادة في عنق أخيه قال: يا أخي أنت أنا ، فمن أنا؟

(٢) سليط: الفصيح الشديدُ اللسان.

(٣) جمال باشا (١٨٧٢ ـ ١٩٢٢ م) القائد العام للجيش العثماني الرابع ، اشتهر في لبنان وسورية وفلسطين أيام الحرب العالمية الأولىٰ.

(٤) المشيرية: حي في دمشق.

(٥) المرجة: حي في دمشق.

(٦) الشابكلية: حي في دمشق.

(٧) المزابل ج: مزبلة: مكان يطرح فيه الأوساخ والكُناسات.

ما علىٰ طرفيه إلا بيوتٌ قليلة تقوم صفاً واحداً وراءه الفضاء؛ صار اليومَ سوق المدينة ، وقامتْ علىٰ جانبيه أحياءٌ إذا جئتها حسبتَ نفسك في «باريز»[1] ، وحي «المهاجرين»[2] الفقراء من أهل جزيرة «كريت» اقريطس ، صار حي الأغنياء والمُترفين ، وصارتِ البقعة الواحدة منه ، التي لا تَذرع مئة متر مربعة ، أغلىٰ من أرض الحي كلها ، «والبوابة الصالحية»[3] حيث يمر الترام بين «الخستة خانه»[4] ، و«بستان الكركه»[5] في طريق ضَيق كان منذ غروب الشمس ، مَربط[6] قطاع الطرق. . . . لقد صارت «بوابة الصالحية» ميداناً فسيحاً فيه العمارات العالية والشوارع الفسيحة ، شارع بغداد ، وشارع الأركان. . . . . والبساتينُ صارت أحياءَ عامرة ، بستان الأعجام صار حي الحلبوني ، وبستان السبكي وبستان الحبوبي صار أضخم أحياء الشام. . . . لقد دار الفلك ثمانياً وأربعين دورة علىٰ دمشق التي تعرفها.

قال :

ـ إذاً يجب أن أكون ابن ثمان وأربعين!

قلت : نعم.

قال : ألا تراني أمامك صبياً؟

ـ قلتُ : وأنت ألا تراني أمامك كهلاً؟!

ـ قال : أرجو ألا تُلقي عليَّ هذه الفلسفة الجنونية.

ـ قلتُ : ويحك ، ما ألقيتُها عليك ، وهل أنت شيء له «وجود»؟ إنما ألقيتُها علىٰ نفسي.

---

(١) باريز : عاصمة فرنسا ، معروفة.
(٢) حي المهاجرين : حي من الأحياء الشمالية الغربية في دمشق.
(٣) الصالحية : من الأحياء الشمالية الغربية في دمشق.
(٤) الخستة خانه : مكان في دمشق.
(٥) بستان الكركة : مكان في دمشق.
(٦) مربط : مجمع ، ملتقىٰ ، ج : مرابط.

وسحبتُ الغلام ، وسرت به وهو مَشدوهٌ[١] مما يسمع ، ورأىٰ السيارات الكثيرة ، وهي تتعادىٰ[٢] ، وتتسابق مسرعة مجنونة كأنها راكبة علىٰ جناح شيطان ، من كل لونٍ وجنس ، من الصغيرة التي تُشبه صندوق اللعب ، إلىٰ الكبيرة التي تسع سَبعين راكباً ، تَخرج عن يمينه وعن شماله ، ومن أمامه ، ومن خلفه ، كأنها العفاريتُ في قصة «الملك سيف»[٣] تتلاطم أصواتها في الأذن كأنها عزيف الجن[٤]. . . . . فارتاع[٥] ووقف حائراً ، فقلتُ له :

ـ مالكَ؟ ألا تعرف السيارات؟ فلم يشأ أن يُظهر الجهلَ وقال :

ـ وهل تظنني آتياً من الصحراء؟ كيف لا أعرفها؟ لقد فاخرتُ التلاميذَ بأن والدي ركب فيها .

ـ قلتُ : وهل كانت مثل هذي؟

ـ قال : لا : كانت سيارة واحدة لجمال باشا ، لم يأتِ دمشق غيرها ، فكان الناس يخرجون لرؤيتها ، وأنا أعرف الطيارة أيضاً ، صغيرةٌ لها جناحان ، واحدٌ فوق الآخر ، يركبُ فيها رَجلان . . . .

ـ قلتُ : إن من الطيارات اليوم ما يركب فيه مئة ، يَحملهم من دمشق إلىٰ الهند بقفزةٍ واحدة .

فنظر إليَّ مفتوحَ الفم شاخص العينين ، كأنه لا يصدق!

ـ قلت : وهل تعرف الكهرباء؟

ـ قال : نعم ، وأدخلناها دارنا منذ أيام ، وضربني المعلم من أجلها . . .

ـ قلت : ولماذا يضربك من أجلها؟

---

(١) مَشدوهٌ: مُتحيِّر ، حائر .
(٢) تتعادىٰ ، تعادىٰ القوم تعادياً : تباروا في العَدْوِ .
(٣) ملك سيف : من أسماء الأساطير .
(٤) عزيف الجن : صوت الجن وغناؤه .
(٥) ارتاع ، ارتاع ارتياعاً : فزع وخاف .

ـ قال: كنت أُحدِّث التلاميذ أن في بيتنا مصابيحَ تشتعلُ بلا كبريت، نُدير زراً في الجدار فتضيء، فكذَّبوني، فضربتهم فجاء المعلم، فضربني!
قلت: ولكن للكهرباء اليوم منافع لا تعرفها وإنها تدفىء المنازل في الشتاء وتُبرد الطعام في الصيف، وتسير الـ. . .

وصاح الصبي مقاطعاً.

ـ ما هذا؟ أعوذ بالله!

فنظرتُ فإذا هو إعلان عن فلم في السينما، فيه صورة فتاة عارية ورجل يقبلها، فقلت:

ـ هذا إعلان سينما، ألا تعرف السينما؟

ـ قال: بلىٰ أخذونا إليها في المدرسة، فأرونا صور القتال في الـ«شنا قلعة»[١] وكانت في طريق الصالحية، بعد «الخستة خانه».

قلت: صحيح، أعرفها، وقد هدمت وشُيِّد في مكانها عمارة ضخمة، تعرض «أفلاماً» من نوع آخر اسمها «البرلمان».

ـ قال: ولكن كيف لا تمنع الحكومة هذا المُنكَر، كيف لا يُنكره العلماء؟

ـ قلتُ: إن أمثال هذه الصور في كل مكان، انظر. . . وأشرتُ إلىٰ المجلات المعلَّقة في الطرق عند البياعين، وسألته:

ـ ألا تقرؤون المجلات؟

ـ قال: وما المجلاتُ؟ إننا لا نعرفها!

قلت: أتقرؤون كتباً غير المدرسة؟

ـ قال: نعم، أنا أقرأ في «العقد» و«حياة الحيوان» للدميري وكتاب «الفرج بعد الشدة» و«الأغاني».

---

(١) شنا قلعة: مكان في دمشق.

ـ قلت: هذه كتب لا يقرؤها إلا العلماء، فمن دلَّك عليها وأنت في هذه السن؟

ـ قال: كان «الرجال» الذين يجتمعون علىٰ أبي للدرس كل يوم يتناقشون، فيقول لي أبي: هات الجزء الرابع من «تاج العروس»، هات الثالث من «الحاشية»، هات الخامس من «فتح القدير»، فتعلمتُ أسماء الكتب، وصرتُ أدخل المكتبة وحدي، فأسحبُ كل كتاب، فأقرأ فيه صفحةً، فإن أعجبني قرأته، وإلاَّ أخذتُ غيره، فمن هنا عرفتُ هذه الكتب.

ـ قلتُ: وهل يعرفها رفاقك في المدرسة؟

ـ قال: إنَّ بعضهم يعرف بعضها.

ـ قلت: ألا تقرؤون كُتباً للتسلية؟

فاحمرَّ وجهه وسكت.

ـ قلت: خبِّرني، لا تكذب علي، ولا تخف مني.

ـ قال: ولماذا أخافك؟ أنا لا أخاف أحداً، ثم إني مؤمن لا أكذب أبداً، وهل يكذب المؤمن؟!

قلتُ: إذاً خَبِّرني!

ـ قال: نقرأ القصص في الخفاء، قصة عنترة[1] وحمزة البهلوان[2] والملك سيف، وكنا نقلد هؤلاء الأبطال، فنتبارز في صحن الأموي كل يوم عندما ندخله.

ـ قلت: ولماذا كنتم تدخلونه كل يوم؟

قال: لماذا؟! لنصلي ونسمع الدروس.

---

(١) عنترة (نحو ٥٢٥ م): من مشاهير شعراء الجاهلية وفرسانها، من أصحاب المعلقات، اشتهر ببطولته في الغزوات.

(٢) حمزة البهلوان: من أسماء الأساطير.

ـ قلت: ولم؟ أليس في المدرسة درس دين؟

ـ قال: لا.

ـ قلت: كيف؟ ألا يعلمونكم القرآن؟! عندنا درس تجويد، ودرس تفسير.

قال: بلى.

ـ قلت: والفقه؟

ـ قال: وعندنا درس فقه، وعندنا درس حديث، ودرس وعظ.

قلت: وكم ساعة في الأسبوع لذلك كله؟

ـ قال: عشر ساعات.

ـ قلت: إنهم يستكثرونَ عليها الآن ساعتين في الأسبوع.

ـ قال: ولماذا يحسبونها درساً واحداً؟ إنها دروس مختلفة، ولو كان يجمعها اسمُ الدين، فإذا كان يكفيها ساعتان، فاجعلوا للعربية ساعتين فقط للنحو والصرف والإنشاء والإملاء والمحفوظات[1]، وللرياضيات ساعتين فقط، للحساب والهندسة والجبر، وللطبيعيات ساعتين لو تعدَّدت علومها.

وقَطع الحديث وجعل ينظر مشدوهاً إلىٰ النساء السافرات، الباديات الأذرع إلىٰ الآباطِ، والسيقان إلىٰ الركب، والكاشفات الشعرَ والنحرَ والصدر.

ـ قلت: مالك؟

ـ قال: ما هؤلاء؟

ـ قلت: نساء.

ـ قال: وهل تَظنُّني حسبتُهنَّ بقراً، ولكنَّ كل نساء الشام يلبسن

(١) المحفوظات: ما يحفظها الأطفال في المدارس.

الملاءة[١] ، لا تفرق المسلمة من النصرانية أو اليهودية ، إلا بأن هذه تستر وجهها ، وتلكَ تكشفه ، أما الملاءة فللجميع ، فماذا يكون هؤلاء ، إذا لم يكنَّ مسلمات ، ولا نصرانيات ، ولا يهوديات؟

وسكتُّ ، لأني لم أجد جواباً ، وطال السكون وفكَّرتُ فيما كنا فيه ، وما صرنا إليه .

(الأستاذ علي الطنطاوي في مجلة المسلمون عدد ٧ ـ ١٣٧٤ هـ)

(١) الملاءة : ثوب سابغ يستر الجسم كله ويتألف من قطعتين ، كانت نساء الشام يلبسنه آنذاك .

عدوان يسالمان

زعموا أنَّ شجرةً عظيمةً كان في أصلها جُحر سِنَّور يقال له رومي ، وكان قريباً منه جُحر جُرذ يقال له فريدون ، وكان الصَّيادون كثيراً يتداولون[١] ذلك المكان ، يَصيدون الوحش والطير ، فنزل ذات يوم صيادٌ ، فنصبَ حبالته قريباً من موضع رومي ، فلم يَلبثْ أن وقع فيها ، فخرج الجُرذ[٢] يدِبُّ ويطلب ما يأكل ، وهو حَذِر من رومي ، فبينما هو يسعىٰ إذ بَصر به في الشَّرَك ، فسُرَّ واستبشر ، ثم التفت فرأى خلفه ابن عِرس ، يُريد أخذه ، وفي الشجرة بُوماً يُريد اختطافه ، فتحيَّر في أمره وخاف إن رجع وراءه أخذه ابنُ عِرس ، وإن ذهب يميناً أو شمالاً اختطفه البوم ، وإن تقدم أمامه افترسه السنَّور ، فقال في نفسه : هذا بلاء قد اكتنفَني ، وشرور تَظاهرت[٣] عليَّ ، ومِحَنٌ قد أحاطت بي ، وبعد ذلك فمعي عقلي ، فلا يُفزعني أمري ، ولا يَهولني[٤] شأني ، ولا يَلحقني الدَّهش ، ولا يذهبُ قلبي شَعاعاً[٥] ، والعاقل لا يفرَقُ عند سَداد رأيه ، ولا يعزبُ[٦] عنه ذهنهُ علىٰ حال ، وإنما العقلُ شبيهٌ بالبحر الذي لا يُدرك غَوره ، ولا يبلغُ البلاء من ذي الرأي مجهوده فيُهلكه ، وتحقُّق الرجاء لا ينبغي أن يبلغ منه مبلغاً يُبطره ويُسكره ،

---

(١) يتداولون : تداول الشيء : أتاه هذا مرة وذاك أخرىٰ .
(٢) الجُرَذ : (بفتح الراء) نوع من الفأر ، ج : جِرذَان .
(٣) التظاهر : التعاون .
(٤) التهويل : الإفزاع والترويع .
(٥) شَعَاعاً : متفرقاً ، يقال : طار قلبه شَعَاعاً : تفرقت هُمومه واضطربت .
(٦) يعزب ، عزب عزباً (ض ، ن) : بَعُدَ وغاب وخفيَ .

فيُعمي عليه أمرَه ، ولستُ أرىٰ لي من هذا البلاء مخلصاً إلا مصالحة السِّنور ، فإنه قد نزل به من البلاء مثلُ ما قد نزل بي أو بعضهُ ، ولعلَّه إن سمع كلامي الذي أكلِّمه به ، ووعىٰ عنّي فصيحَ خِطابي ، ومَحضَ صِدقي الذي لا خلاف فيه ، ولا خداع معه؛ ففهمه ، وطمعَ في معونتي إياه نَخلُص جميعاً.

ثم إنَّ الجُرذ دنا من السِّنور فقال له: كيف حالك؟ قال له السِّنور: كما تُحب؛ في ضَنْك[1] وضِيق ، قال: وأنا اليوم شريكُك في البلاء ، ولستُ أرجو لنفسي خَلاصاً إلا بالذي أرجو لكَ فيه الخلاص ، وكلامي هذا ليس فيه كَذِبٌ ولا خديعة ، وابنُ عِرس هاهو كامنٌ لي ، والبوم يَرْصُدُنِي ، وكلاهما لي ولكَ عدو ، فإن جعلتَ لي الأمن ، قطعتُ حبالكَ ، وخَلَّصتُك من هذه الورطة ، فإذا كان ذلك؛ تخلَّص كلٌّ واحدٍ منا بسبب صاحبه ، كالسَّفينةِ والرُّكاب في البحر ، فبالسَّفينة يَنجون ، وبهم تَنجو السفينةُ ، فلما سمع السِّنور كلام الجُرذ وعرف أنه صادق ، قال له: إنَّ قولك هذا لشبيهٌ بالحق ، وأنا أيضاً راغبٌ فيما أرجو لك ولنفسي به الخلاصَ ، ثم إنَّك إنْ فعلتَ ذلك فسأشكُرك ما بقيتُ ، قال الجرذ: فإني سأدنو منك ، فأقطعُ الحبائل كلَّها إلا حبلاً واحداً أُبقيه لأستوثقَ لنفسي منك ، ثم أخذ في قَرْضِ حبائله ، ثم إنَّ البُوم وابنَ عِرس لما رأيا دُنوَّ الجرذ من السنور أيسا منه وانصرفا ، ثم إن الجرذ أبطأ علىٰ رومي في قطع الحبائل ، فقال له: مالي لا أراك مُجِدّاً في قطع حبائلي؟ فإن كنتَ قد ظفرتَ بحاجتك ، فتغيرتَ عما كنتَ عليه وتوانيتَ[2] في حاجتي ، فما ذلك من فِعل الصالحين: فإنَّ الكريم لا يتوانىٰ في حق صاحبهِ ، وقد كان لك في سابق مودتي من الفائدة والنفع ما قد رأيت ، وأنتَ حقيقٌ أن تكافئني بذلك ، ولا تذكرِ العداوة بيني وبينَكَ ، فالذي حدثَ بيني وبينك من الصلح حقيقٌ أن يُنسيكَ ذلك ، مع ما في الوفاء من الفضل والأجر وما في الغدر من سُوء العاقبة ، فإن الكريم

(١) الضَّنْك: الشدة.
(٢) توانيت ، التواني: الفُتور والتهاون.

لا يكون إلا شكوراً ، غيرَ حقود تُنسيه الخلة الواحدة من الإحسان الخِلاَلَ الكثيرة من الإساءة ، وقد يقال: إنَّ أعجلَ العقوبة عقوبةُ الغَدر ، ومن إذا تُضرع إليه ، وسُئل العفو ، فلم يرحم ولم يَعِفَّ ، فقد غدَرَ ، قال الجرذ: إنَّ الصديق صديقان طائعٌ ومُضطر ، وكلاهما يَلتمسان المنفعةَ ، ويَحترسان من المَضرَّة ، فأما الطائع فيُسترسلُ[1] إليه ، ويُؤمن في جميع الأحوال ، وأما المضطر ففي بعض الأحوال يُسترسل إليه ، وفي بعضها يُتحذَّر منه ، ولا يزال العاقل يَرتهنُ[2] منه بعض حاجاته لبعض ما يُتقىٰ ويخافُ ، وليس عاقبة التواْصل من المتواصل إلا طلبُ عاجلِ النفع وبلوغُ مأموله ، وأنا وافٍ لك بما جعلتُ لك ، ومحترسٌ منك مع ذلك من حيث أخافك تَخوُّفاً أن يُصيبني منك ما ألجأني خوفهُ إلىٰ مصالحتك ، وألجأك إلىٰ قبول ذلك مني ، فإن لكل عمل حيناً ، فما لم يكن منه حِينهُ؛ فلا حُسن لعاقبته ، وأنا قاطع حبائلك كلَّها غير أني تاركٌ عُقدةً واحدة أَرتهنُك بها ، ولا أَقطعها إلا في الساعة التي أعلم أنك فيها عني مشغول ، وذلك عند معاينتي الصياد ، ثم إن الجُرذ أخذ في قطع حبائل السِّنور ، فبينما هو كذلك إذ وافى[3] الصياد ، فقال له السنور: الآن جاء الجد في قطع حبائلي ، فأجهد الجُرذ نفسه في القرض ، حتى إذا فرغ وثَب السنور إلىٰ الشجرة علىٰ دُهشٍ من الصياد ، ودخل الجُرذ بعض الأحجار ، وجاء الصياد فأخذَ حبائله مُقطعة ، ثم انصرف خائباً.

(كليلة ودمنة)

(١) الاسترسال: الاطمئنان.

(٢) أرتهنُك بها: أي أحبسك وأقيدك بها.

(٣) وافىٰ: وصل مفاجأة.

بغداد

البستـانـي[١]

مدينة شهيرة بالعراق في عرض ٢٠ ، ٣٣ ، شمالاً ، وطول ٢٥ ، ٤٤ شرقاً علىٰ بعد ١,٦٠٠ كيلو متر من الآستانة[٢] إلىٰ الجنوب الشرقي و٥٠٠ د ميل من مصب شط العرب[٣] في خليج العجم ، محيطها نحو ٢٥ كيلو متراً ، وعدد سكانها نصف مليون نفس من عرب وترك وعجم وأكراد[٤] وهنود وأفرنج ، أغلبهم مُسلمون بين سُنة وشيعة ، وهي قاعدة ولاية باسمها واقعةٌ علىٰ جانبي دجلة ، وعرضه هناك ٧٠٠ قدم ، ثلثها علىٰ ضفته اليمنى ، وهو الجانب الغربي ، والثلثان الآخران علىٰ اليسرى وهو الشرقي . . .

---

(١) بطرس البستاني (١٢٣٤ ـ ١٣٠٠ هـ).
هو بطرس بن بولس بن عبد الله البستاني ، عالم واسع الاطلاع ، ولد ونشأ في «الدِّبِّيـة» من قرىٰ لبنان ، وتعلَّم بها وببيروت آدابَ العربية واللغات السريانية والإيطالية واللاتينية ثم العبرية واليونانية ، عُيِّن أستاذاً في مدرسة فمكث سنتين ، وعين ترجماناً للقنصلية الأمريكية في بيروت ، واستعان به المراسلون الأمريكيون علىٰ إدارة الأعمال في مطبعتهم ، وعلىٰ ترجمة التوراة من العبرية إلىٰ العربية.
اشتغل بالتأليف فصنف كتاب «محيط المحيط» في اللغة ، و «كشف الحجاب في علم الحساب» و«مسك الدفاتر» ، و«مفتاح المصباح» في النحو ، و«دائرة المعارف» من أعظم آثاره ، لم يتم بعد ، توفي في بيروت.

(٢) الآستانة: هي إستانبول مدينة في تركيا.

(٣) شط العرب: نهر في العراق ، يتكون من التقاء دجلة والفرات.

(٤) أكراد: سكان كردستان (منطقة جبلية تتقاسمها تركيا والعراق وإيران وروسيا).

ويُحيط بالقسم الشرقي سُور من الطُوب[١] أكثره مُنهدم مسافتهُ عدةُ كيلو مترات وأمامه خَندقٌ وعليه عدة أبراج أكثرها مُنتقضٌ ، وقلعتُها ذات أهمية ، وهي واقعة في الطرف الشمالي الغربي قرب دار الحكومة ، وقد عُرف الجانب الشرقي بالرصافة[٢] ، والجانب الغربي بالكَرخ[٣] ، وبالكرخ كان مقر المنصور ، وبالرصافة مقر الرشيد ومن وليه كان له بها قصر عظيم ، وهو الذي وضع لها هذا الاسم ، وبيوت بغداد مبنيةٌ علىٰ الأكثر بالآجر ، وهي ذات طبقةٍ واحدة ، ويُحيط بكل دار سور علوه ٢٥ قدماً ، وشكل البناء واحد ، فأما بيوت الأغنياء فتكون أوسع ، وبها كثير من الخانات[٤] والقهاوي والحمامات والمساجد والجوامع وكنائس للنصارىٰ ومجامع لليهود ، فأما الجوامع فلها قِبابٌ حسنةٌ ، مصبوغ ظاهرها بالخضرة ، ومفروش داخلها بالقاشاني[٥] ، وعلىٰ نصف فرسخ من الجانب الشرقي مسجد الإمام موسىٰ الكاظم[٦] وفيه تربته.

وأما موقع المدينة ، فجميلٌ نَزِهٌ تحفّ بها البساتين ، وغِيطان النخل ممتدة إلىٰ مسافة شاسعة منها ، وهواءُ بغداد جاف سليمٌ لكن بسبب فيضان دجلة يستنقع[٧] فيها المياه ، فتُولد أمراضاً ، وإذا زاد الفيض في الشتاء تستحيل إلى طاعون ، وبها مرض جلدي يُشبه حبة حلب [٨] متسلط على عامة أهلها ، والهواء في الصيف شديد الحرارة حتى يُقيم أهلها نهاراً في سراديب[٩] تحت الأرض وليلاً على السطوح ، وفي الشتاء يشتد البرد حتى

---

(١) الطُّوب : الآجُرُ المشويّ ، والواحدة : طُوبة.
(٢) الرُصافة : مدينة دارسة في بادية الشام تبعد نحو ٤٠ كم عن يمين الفرات.
(٣) الكرخ : من أحياء بغداد يقع اليوم غربي المدينة.
(٤) الخانة (فارسية) : محل نزول المسافرين ، ويسمىٰ الفندق.
(٥) القاشاني : نسبة إلىٰ قاشان (مدينة قرب أصبهان بفارس) نوع من الحجر.
(٦) موسىٰ الكاظم : (١٨٣ هـ) هو موسىٰ بن جعفر الصادق ، الإمام السابع للشيعة.
(٧) استنقع الماء : اصفرَّ وتغير.
(٨) حَلَب : مدينة في شمالي سورية.
(٩) سراديب (فارسية) سِرْدَاب : بناء تحت الأرض ، ج ، سَرَادِيب.

يلتزموا أن يُضرموا النار للاستدفاء ، وشُربهم من ماء دجلة يجعلونه في آنية من خزف فيبرُد فيها ، وفي بعض الدور بِرَك يتسرب إليه الماء ، زِيُّهم في الملبوس العمامة والجبة ، والنساء شديدات التَّحجب يَتَّزِرْنَ بالحبَرات[١] الحريرية الملونة ، والفقيراتُ بالأعبية[٢] ، والشيعة غاية في التعصب ، وأعيان الأهالي يحسنون مؤانسة الغريب ، وأما حالة العلم ففي انحطاط إلا فيما ندر .

وكانت هذه المدينة قديماً جليلة الشأن ، عظيمة الشهرة في العمارة والتجارة والزخرفة ، وأما العلم فقد أخذ فيها كل مأخذ ، ولا سيما في أيام الرشيد والمأمون ، والمأمون أنشأ فيها مرصداً فلكياً ، وأمر باستخراج كتب الحكمة من اليونانية فزهت[٣] بالعلماء والفضلاء ، وخرج منها فطاحل[٤] الأئمة في كل العلوم ، وبلغ عدد سكانها في تلك الأيام(سنة ٢١٦ هجرية) نحو مليونين من الأنفس ، وأقامت بها الدولة العباسية المصانعَ الجليلة ، والقصور المنيفة[٥] وكانت دار الخلافة مرصَّعةً بالمعادن النفيسة ، وحوتْ من الأبنية الجليلة والأمتعة الثمينة والحجارة الكريمة والأقمشة الفاخرة ما لم يجتمع في مدينة مثلها ، ولما سقطت الخلافة ، سقطت بغداد وامتد فيها الخراب واشتدتّ بها الفتن ، وكثُر فيها الحريق والتخريب فخمدت نار عزِّها ، وتهدمت أسوار مجدها ، واندرست رسوم مدارسها ، وتقوَّضت قباب مصانعها ، حتى صارت أثراً بعد عين ، وقد خرج منها من الأدباء والعلماء والفقهاء والشعراء والمُحدّثين والرواة والأطباء والمنجمين وغيرهم من أئمة الدين والأدب عددٌ غفير ، منهم القاضي أبو يوسف ، والإمام أحمد بن حنبل ، والسَّريُّ السقطي[٦] وأبو القاسم الجنيد ، وبشر

---

(١) الحَبَـرَة ، الحِبَـرَة : مُلاءة سوداء تلبسها النساء المحجبات ، ج : حَبَرات وحِبَرٌ .
(٢) الأعبية : جمع العباء ، وقد كان ذلك في القديم أما الآن فبالعكس .
(٣) زهت ، زها زَهْواً وزُهَاء (ن) : أشرق وزهر .
(٤) الفِطْحَل : كبار العلماء ، ج : فَطَاحِل .
(٥) المُنِيفَةُ : أناف إنافة : أشرف وطال وارتفع .
(٦) السَّري السقطي (٢٥٣ هـ) : سَرِي بن المغلس ، من كبار الصوفية أستاذ الجنيد ⇐

الحافي ، وخير السياح[١] وابنُ البواب[٢] وأبو نُواس ، والخطيب البغدادي ، وغيرهم ، وذكرها ابنُ جُبير في القرن الثاني عشر وقال: هذه المدينة وإن لم تَزل حاضر الخلافة العباسية ، فقد ذهب أكثر رَسمها ، فلا حُسن فيها يستوقف البصَر إلا دجلة.

وقد بُنيت بغداد في نواحي مدينة سلفكةَ[٣] القديمة في أواسط القرن الثامن للميلاد . بناها الخليفة أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين ، شرع في تخطيطها سنة ١٤٥ هجرية وأتم بناءها سنة ١٤٩ ، وجعلها مُدورةً لئلا يكون بعضُ الناس أقربَ إليه من بعض ، وسماها «مدينة السلام» وسمى أيضاً القسم الذي بناه إلى الجانب الغربي «بالزَّوراء» وأما اسم بغداد ففيه أقوال مختلفة ، من أخصها أنه كان في موضع بغداد سوق تقصدها تجار الصين ، فيربحون ويقولون بغ داد ، أي عطية بغ ، وبغْ اسم ملكهم ، وقيل بل بغ اسم صنم ، وداد بمعنى أعطى ، وقيل غير ذلك ، وفيها سبع لغات بغداد وبغداذ ومغداد ومغداذ وبغدان ومغدان ، زيد بغدين ، وقيل إنه كان موضع بغداد قرية تسمى باسمها ، وكانت تقام فيها سوق عظيمة في كل شهر ، فيأتيها تجار فارس والأهواز[٤] وسائر البلاد.

ولما أكمل المنصور بناء المدينة أقطع أصحابه القطائع[٥] فعمروها وسميت بأسمائهم ، وفي سنة ١٤٩ استتم المنصور سور المدينة وخندقها وفرغ من جميع أمورها واستقر فيها ، وسنة ١٥٧ بنى قصره الكبير المعروف بالخلد ، وحول الأسواق إلى الكرخ ، ولما قرب أجل المنصور أوصى ولدَه المهدي وكان من جملة ما قال له: انظر هذه المدينة وإياك أن تستبدل بها غيرها ، وقد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كُسر عليك الخراجُ عشرَ

= البغدادي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ وخالُه.

(١) خير السياح: من علماء بغداد.

(٢) ابن البواب (٤٢٣ هـ) خطاط مشهور من أهل بغداد ، نسخ القرآن بيده ٦٤ مرة.

(٣) سلفكة: مدينة في شمالي تركيا.

(٤) الأهواز: مدينة في جنوب غربي إيران.

(٥) القطيعة: ما يقطع من أرض الخراج ، ج: قطائع.

سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات **الذّريَّة** ومصلحةِ البُعوث ، فاحتفظ بها .

وفي سنة ٤٥٨ بنى نظام الملك الوزير ببغداد مدرسةً جليلة دعاها «النظامية» فاجتمع إليها جمٌّ غفير من الطلبة ونجحت نجاحاً عظيماً .

وبقيت بغدادُ في ولاية الخلفاء العباسيين والسلاطين من آل بويه[١] وآل سلجوق[٢] وغيرهم إلى سنة ٦٥٦ هجرية ، فلما كانت سنة ٦٥٦ المذكورة دخلها التتر ، واستولوا عليها ، وقتلوا بها الخليفة المستعصم بالله ، وهو آخر الخلفاء العباسين ، وانقرضت به الخلافة فيها ، وتملكها التتر ثم العثمانيون ، وقد وَجد التتر بها من الأموال والذخائر والتحف النفيسة ما قضوا بها عجباً ، وأما سبب مجيء التتر وملكهم بغداد فقد ذكره أبو الفداء[٣] في أول السنة المذكور ، وذلك أن الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي كان رافضياً وكان أهل الكرخ أيضاً روافض فجرت فتنة بين السنة والشيعة على عادتهم ، فأمر أبو بكر ابن خليفة وركن الدين الدوادار العسكرَ فنَهبوا الكرخ ، وهتكوا النساء ، فعَظم الأمر على الوزير ابن العلقمي فكاتبَ التتر وأطمعهم في ملك بغداد وكان سُلطانهم هولاكو المشهور في غزواته وفتوحاته ، ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقي ونزل باجو[٤] وهو مقدَّم كبير في الجانب الغربي على قرية قبالة دار الخلافة ، وخرج ابن العلقمي إلى هولاكو فتوثق منه لنفسه ، وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال : إن هولاكو يُبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر ، وحسَّن له الخروج إلى هولاكو ، فخرج إليه المستعصم في

---

(١) آل بويه : أسرة فارسية من أصل ديلمي حكمت ٩٣٢ ـ ١٠٥٥ م ، أسسها أبو شجاع بويه ، هزمها طغرل سلجوقي .

(٢) آل سلجوق : أمراء تركمانيون ، جدهم سلجوق حكموا ١٠٣٧ ـ ١١٧٥ م ، اشتهر منها ألب أرسلان ومُلكشاه .

(٣) أبو الفداء (٦٧٢ ـ ٧٣٢ هـ) : الملك المؤيد صاحب حماة ، مؤرخ جغرافي قرأ الأدب وأصول الدين ، واطلع على كتب كثيرة في الفلسفة والطب ، له تاريخ أبي الفداء .

(٤) باجو (بيكو) : جنرال لهولاكو .

جمع من أكابر أصحابه ، فأنزل في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأمثال ، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم ابن الجزري[١] وأولاده ، وكذلك بقي يُخرج إلى التتر طائفة بعد أخرى ، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم ، ثم مدَّ الجسر فعبر باجو ومن معه ، وبذلوا السيف[٢] في بغداد ، وهجموا على دار الخلافة ، وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف ، ولم يَسلم إلا من كان صغيراً فأخذ أسيراً ، ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً ، ثم نُودي بالأمان .

وولاية بغداد عبارة عن بلاد بابل[٣] القديمة ، وقسم من آشور[٤] ، وبلاد ما بين النهرين[٥] . فتكون مشتملة على كردستان وخوزستان[٦] والجزيرة والعراق العربي ، طولها ٨٩٠ كيلو متراً ، وعرضها ٥٥٠ كيلو متراً ، ومساحة أرضها ٢٧٧ ، ٢٤٢ كيلومتراً مربعاً . . . وهواؤها شديدُ الحر في الصيف ، وفي شمالي الولاية جبالُ كردستان ، وعدة شعب تتفرع من جبال طوروس [٧] ، ويجري فيها عدة أنهر وجداول ، وأشهر أنهرها الفرات ودجلة والخابور[٨] ، وتُربتها مخصبة في نواحي الأنهر ، ومجُدبة في غير مواضع ، ومن حاصلاتها القطن والحِنطة والتمر والعنب وغير ذلك ، وفي غربي الولاية قفر شاسع تسكنه قبائل من البدو .

(دائرة المعارف للبستاني بتصرف خفيف)

(١) ابن الجزري (٨٣٣ هـ) : محدث فقيه ، حجة في القراءات ، ولكن لم يقتل فيمن قتل آنذاك .
(٢) بذلوا السيف : أراقوا الدماء .
(٣) بابل : مدينة قديمة في أواسط ما بين النهرين على مسافة ٨٠ كم جنوب شرقي بغداد .
(٤) آشور : بلاد قديمة في شمالي ما بين النهرين .
(٥) ما بين النهرين : منطقة آسيوية تقع بين نهري دجلة والفرات .
(٦) خَوزِستان : إقليم في جنوب إيران يتصل بالخليج ، قاعدته الأهواز .
(٧) طورُوس : سلسلة جبال في جنوب تركيا الآسيوية .
(٨) الخابور : أحد روافد دجلة ، ينبع من أرمينيا الجنوبية وينصبُّ في دجلة بالعراق .

أقوال الناس

ابن دريد[(١)]

أرى الناس قد أُغروا[(٢)] ببَغي وريبة وَغَـيٍّ إذا مـا مَيـز النـاس عـاقُـل
إذا مـا رأوا خيـراً رمَـوْهُ بظُنَّـة وإن عـاينـوا شـراً فكـلٌّ مُنـاضـلُ

(١) ابن دريد (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ).
محمد بن الحسن بن دريد الأزدي من أئمة اللغة والأدب وأشعر العلماء وأعلم الشعراء، وُلد في البصرة في بيت علم ورئاسة، كان أبوه من الرؤساء وذوي اليسار وكان عمه وجده من العلماء، تأدَّب بالبصرة، قرأ علىٰ علمائها، وتعلَّم اللغة والأدب والشعر والنسب، وقد روىٰ عن عمه وجده الأخبار والأنساب، قال أبو الطيب اللغوي: «ابن دريد هو الذي انتهت إليه لغة البصريين، وكان أحفظ الناس وأوسَعهُم علماً وأقدرهم علىٰ الشعر»، وقال المسعودي: «وكان ابن دريد ببغداد ممن بَرِع في زماننا هذا في الشعر وانتهىٰ في اللغة، وكان يَذهب في الشعر كل مذهب، فَطوْراً يُجزل وطوراً يَرق»، وقال الكمال ابن الأنباري: «كان من أكابر علماء العربية مقدماً في اللغة وأنساب العرب وأشعارهم».
من أهم مؤلفاته «الجمهرة في اللغة» و«الاشتقاق» و«المجتنىٰ» و«الأمالي».
عندما توفي قال الناس: مات علم اللغة والكلامِ بموت ابن دريد.
وهذه الأبيات منقولة عن «كنوز الأجداد» لمحمد كرد علي (١٣٧٢ هـ).
هو «محمد بن عبد الرزاق المعروف بمحمد كرد علي» رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ومؤسسه، مولده ووفاته في دمشق، زاول حياة سياسية وصحافية مدة من الزمن، وانقطع إلىٰ المجمع العلمي العربي أيام الحكومة العربية الأولىٰ سنة ١٩١٩ م، فكان عمله فيه بعد ذلك أبرز ما قام به في حياته، وكان ينحو في كثير مما يكتبهُ منحىٰ ابن خلدون في مقدمته.
من مؤلفاته الشهيرة «مجلة المقتبس» في ثمانية مجلدات و«خطط الشام»، و«تاريخ الحضارة»، و«غرائب الغرب»، و«أمراء البيان».

(٢) أُغرِي بكذا إغراء: أُولع به.

وليس امرؤٌ منهم بناجٍ من الأذى ... ولا فيهمُ عن زَلّةٍ متُغافل
وإن كان ذا ذهنٍ رموه ببدعة ... وسمَّوه زنديقاً وفيه يُحاول
وإن كان ذا دينٍ يُسمُّوه نَعجةً ... وليسَ له عقلٌ ولا فيه طائلُ
وإن كان ذا صمتٍ يقولون صورةٌ ... ممثَّلة بالعَيِّ[1] بل هو جاهلُ
وإن كان ذا شرٍ فويل لأمّه ... لما عنه يَحكي من تَضمُّ المحافلُ
وإن كان ذا أصل يقولون إنما ... يفاخر بالموتى وما هو زائل
وإن كان ذا مالٍ يقولون مالُه ... من السُّحتِ[2] قد رابى[3] وبئس المآكلُ
وإن كان ذا فَقرٍ فقد ذلَّ بينهم ... حقيراً مَهيناً تزدريه الأراذلُ
وإن قنعَ المسكين قالوا لقلّةٍ ... وشحَّةِ نفس قد حوَتها[4] الأناملُ
وإن هو لمَ يقنَع يقولون إنما ... يطالبُ من لم يُعطه ويقاتل
وإنَ يكتسب مالاً يقولوا بهيمةٌ ... أتاها من المقدور حظ ونائلُ[5]
وإن جاد قالوا مُسرفٌ ومبذر ... وإن لم يَجُد قالوا شحيح وباخل
وإن حجَّ قالوا ليسَ لله حَجُّه ... وذاك رياء أنتجتهُ المحافلُ
وما الناس إلا جاحدٌ ومعاندٌ ... وذو حسَدٍ قد بان فيه التَّخاتلُ[6]
فلا تتركنْ حقاً لخِيفة قائلٍ ... فإن الذي تَخشى وتحذرُ حاصلُ

(«كنوز الأجداد» لمحمد كرد علي)

---

(١) العَيّ: العجز والجهل.
(٢) السُّحت: الحرام، ج: أسحات.
(٣) رابىٰ المال مراباة: أعطاه بالربا.
(٤) حوىٰ الشيء حواية وحَياً: جمعه وملكه، (ض).
(٥) النائل: المعروف والعطية.
(٦) التخاتل: التخادع.

الشوارع والبريد في الهند الإسلامية

«جنة المشرق»[١]

الشوارع التي كانت من مستعمرات الملوك الإسلامية في الهند كثيرة لا تكاد تحصر ، وها [٢] نحن نذكر ما كان منها أشهرَ وأذكر ، منها الشارع الذي كان بين وادي السند[٣] وحضرة دهلي ، وكانت مدينة سيوستان[٤] من السند بينها وبين ملتان[٥] مسيرةُ عشرة أيام ، وبين بلاد السند ومدينة دهلي مسيرة خمسين يوماً ، ومنها الشارع الذي كان بين مدينة دهلي ومدينة دولت آباد[٦] على مسيرة أربعين يوماً ، والطريق بينها تكتنفه الأشجار من الصفصاف[٧] وسواه ، فكأنّ الماشي عليه في بستان ، وفي كل ميل منه

---

(١) كتابه «جنة المشرق ومطلع النور المشرق» حلقة ذهبية من سلسلة كتب الخطط والآثار ، وهو يعالج الهند في العهد الإسلامي خُططاً وآثاراً وحكومة وإدارة وجغرافية وتاريخاً ، ويسلط الضوء علىٰ ملامح الثقافة والاجتماع والمدنية ، ويَبحث في دور المسلمين في ترقية البلاد وأهمية الآثار التي خلّفوها ، وهذا الكتاب يُعرف الآن باسم «الهند في العهد الإسلامي».

(٢) ها : للتنبيه تدخل علىٰ أربعة . منها ضمير الرفع مثل ﴿ها أنتم أُولاء﴾ .

(٣) السِّنْد : وهي الآن مقاطعة في جنوب باكستان ، عاصمتها حيدرآباد شمالية بقية بلاد الهند.

(٤) سِيُوسْتان : من مدن مقاطعة «تَهْتَه» (الواقعة في غرب كجرات) كانت مدينة كبيرة بينها وبين ملتان مسيرة عشرة أيام ، وقد تُعرف بسِجِسْتَان ، والآن هي منطقة كابل وغزنة ، تتقاسمها إيران وأفغانستان ، ومن علمائها أبو داود السِّجستاني.

(٥) مُلتان : مدينة تاريخية شهيرة في باكستان الغربية.

(٦) دولت آباد : كانت مدينة ضخمة في حكومة حيدر آباد ، إياها اتخذ محمد تغلق عاصمتَه الجديدة ، وكانت موازية لحضرة دلهي في رِفعة قدرها ، وهي الآن في ولاية «مهاراشترا» جنوبي غرب الهند.

(٧) الصَّفْصَاف : نوع من الشجر.

ثلاث داوات[1] وهي البريد ، وفي كل داوة ما يحتاج المسافر إليه ، فكأنه يمشي في سوق مسيرة أربعين يوماً ، ومنها الطريق إلى بلاد تلنك[2] والمعبر[3] وفي كل منزلة قصر للملوك وزاوية للواردين والصادرين ، فلا يفتقر الفقير إلى حمل زاد في ذلك الطريق.

ومنها الشارع الذي كان بين مدينة دهلي ، وبين مدينة مالوْه[4] وبينهما أربعة وعشرون يوماً ، وعلى الطريق بينهما أعمدةٌ منقوش عليها عدد الأميال فيما بين كل عمودين ، فإذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار في يومه ، وما له إلى المنزل أو إلى المدينة فقصدها وقرأ النقش الذي في الأعمدة فعرَفه ، وهذه الشوارع الأربعة التي كانت معمورة إلى مدة الدهور ينتفع بها العامة ، وقد رآها محمد بن بطوطة المغربي[5] في رحلته إلى الهند ، ومرَّ بها ووصفها كما ذكرنا ، ثم لما ولي المملكة شير شاه السوري[6] أسس شوارع أخرى ، ومنها الشارع الكبير الذي يمتد من قلعة رهتاس كره[7] التي بناها شير شاه المذكور في بال ناته جوكي على عشرين ومئة ميل من لاهور إلى بلدة سنار كاؤن[8] من أرض بنكاله على مسيرة أربعة أشهر ، ومنها

---

(١) سيأتي تفصيل مساحتها في ص ٢٠٦.

(٢) تَلَنك : وهي الآن في ولاية «آندهرابراديش» شرقيها «كرناتك» وغربيها «بونه» ملوكها كانوا أعظم ملوك الهند.

(٣) المَعْبر : يعني مدراس ، وهي تشمل أواخر جنوبي كيرالا ، تقع قرب البحر «كاويرىٰ» معظمها في ولاية كيرالا.

(٤) مَالْوَهْ: من ممالك راجبوت القديمة الهندوسية ، وفي الأخير ضُمَّت إلىٰ مملكة غجرات المجاورة ، والآن تخضع لعاصمة (ايم ، بي).

(٥) ابن بطوطة (١٣٠٣ ـ ١٣٧٠ م): رَحَّالة إسلامي معروف ، طاف في أنحاء العالم الإسلامي ، وقيد رحلته باسم «رحلة ابن بطوطة».

(٦) شير شاه السوري (١٤٧٢ ـ ١٥٤٥ م) قائد هندي ، امتاز بمواهبه الإدارية ، فتح بنغال ، وهزم «همايون» إلىٰ كابول ، فأصبح إمبراطور دلهي بدون منازع.

(٧) رهتاس كره ، بال ناته جوكي : قريتان قديمتان علىٰ مسافة عشرين ومئة ميل من لاهور في «بنجاب».

(٨) سناركاؤن : كانت بلدة كبيرة في العهد الإسلامي والهندوكي في مقاطعة «بنكاله» ، =

الشارع الذي يمتد من آكره إلى جوده بور[١] وإلى قلعة جتور[٢] ومنها الشارع الذي يمتد من آكره إلى برهان بور[٣] من بلاد خانديس[٤] ومنها الشارع الذي يمتد من لاهور إلى مُلتان (وهذه) الأربعة تكتنفها الأشجار المثمرة ، وبني عليها سبعمئة وألف رباط ، وبني في كل رباط دُوراً ومساكن للهنادك ولأهل الإسلام كل على حدة ، وعلى أبواب الرباطات السقاية المملوءة بالماء يشرب منها ، وفي كل منها رجل موكل من البراهمة يسقى الهنادك الماء البارد ، وإذا احتاجوا إلى الغسل يعطيهم الماء الحار ، ويسوي لهم الطعام ، ويفرش لهم البسط ويأتي بالعلف للدواب ، وكل من ينزل في تلك الرباطات يُعطى له المآكل والمشارب وغير ذلك ما يحتاج إليه المسافر حسب منزلته بلا قيمة ، فلا يفتقر أحد من المسافرين إلى حمل زاد في تلك الطرق ، وكان في كلّ رباط مسجد فيه الإمام والمؤذن على نفقة السلطان ، وفي كل رباط جماعة من الشُحنة[٥] وأتباعِه من الحافظين ، وفي كل رباط فرسان للأدوات .

ثم لما ولى الملك سليم شاهي بن شير شاه أسس بين كل رباطين من أبنية والده رباطاً ، وبنى المساجد وحفر الآبار ، ووظَّف السُّقاة بها ، وأضاف أفراس الأدوات . ثم ولي الملك أكبر شاه التيموري[٦] توجه إلى إصلاح الشوارع وأمر سنة ٩٨١ هـ أن تحفر الآبار في كل ميل من آكره إلى

= وهي اليوم قرية صغيرة من أعمال «دهاكه».

(١) جوده بور : بلدة عامرة في ولاية راجستهان شمالي غرب الهند ، علىٰ بعد ثلاثمئة ميل من دلهي إلىٰ الجنوب الغربي علىٰ حدود باكستان.

(٢) قلعة جتور : تقع في راجستهان ، بناها الحاكم رانا برتاب سنكه.

(٣) برهان بور : من أهم وأجمل مدن مقاطعة «خانديس» ، والآن هي في آخر حدود «مدهية براديش» وهي محطة معروفة في الطريق إلىٰ بومباي ، وكان مسكنَ القضاة والصوفية في القديم.

(٤) خانديس : هي منطقة تتقاسمها غجرات ومهاراشترا ومعظمها في مهاراشترا.

(٥) شِحْنة البلد : مَن أقامهم الملك لضبط البلد وهم المعروفون بالبوليس.

(٦) الملك أكبر شاه (١٥٤٢ ـ ١٦٠٥ م) : ابن همايون من أعظم الملوك المسلمين وأباطرة المغول في الهند.

أجمير[١]، وأن يبنوا المنارات في كل ميل ، ثم لما ولي ولدُه جهانكير اعتنى بإصلاح الشوارع بين لاهور وآكره وأن تحفر الآبار في كل ثلاثة أميال على الشارع المذكور ، وأن يغرس الأشجار المظلة في جانبيها ، وأمر أن تبنى الرباطات في الممالك الخالصة من الخزانة الشاهانية وفي أقطاع الأمراء من نفقتهم ، وأن تبنى المساجد وتحفر الآبار في كل رباط فامتثلوا أمره وغرسوا الأشجار المظلة ، وحفروا الآبار ، وأنشؤوا الرباطات في كل خمسة أميال تقريباً ، وأمر في سنة ١٠٣١ هـ بإصلاح الشوارع بين لاهور وكشمير وأن تبنى القصور العالية في كل منزل من منازلها ، فأسس أحد عشر قصراً رفيعاً في أحد عشر منزلاً ، وليعلم أن من يريد السفر إلى كشمير من لاهور فله ثلاث طرق: ١ ـ طريق پكهلي ، وفيها خمسة وثلاثون منزلاً والمسافة بين لاهور وكشمير من هذا الطريق مئة وميلان ، ٢ـ طريق ينوج وفيها ثلاثة وعشرون منزلاً ، والمسافة بينهما تسعة وتسعون ميلاً ، ٣ـ طريق پير پنجال ، وكشمير من هذا الطريق على مسيرة ثمانين ميلاً ، منها ثمانية منازل في أرض مستوية ، واثنا عشر منزلاً في أودية الجبال ، وفي هذا الطريق أسست القصور بأمر جهانكير المذكور هذا.

ولما ولي الملك شاهجهان بن جهانكير أمر بإصلاح الشوارع وعمارة الرباطات فأسس علي مردان خان في أيام حكومته بكشمير شارعاً كبيراً من كشمير إلى راجوري[٢] وحفر الآبار وأجرى العيون ، وأسس رباطات كثيرةً في الطريق نجد آثارها في تهتة[٣] وبهرام[٤] كله وسوخته[٥] ،

---

(١) أجمير: مدينة شهيرة في ولاية راجستهان بين مدينة مارواز وجي بور ، وبها ضريح الصوفي المعروف خواجه معين الدين أجميري رح.

(٢) راجوري: مدينة في جَمُّوتوي بمنطقة جمُّو.

(٣) تهتة: أشهر مدن مقاطعة «تهتة» (في سند) وهي مدينة حسنة الأسواق والأبنية ، مَصَّرها جام نظام الدين وقيل إنه مشتق من «تهتة» بالهندية ، ومعناه الزحام.

(٤) قُرىً بين كشمير وراجوري تُوجد بها آثار الشارع الكبير الذي ينتهي من كشمير إلى راجوري.

(٥) انظر التعليقة السابقة.

ويوشيانه[١] وشاجه مرك[٢] وهيره بور[٣] ، ثم لما ولي عالمكير بن شاهجهان وكَّل أميراً من أمرائه سنة١٠٧٢ هـ لإصلاح الطريق بين لاهور وكشمير ، وأمر بإصلاح الشوارع من آكره إلى أورنكت آباد[٤] ومن لاهور إلى كابل ، وأمر أن يعمر الرباطات الجديدة والخانات من الأحجار والجص والآجر في غاية الحصانة والمتانة ، وحفرت الآبار فيها ، وبُنيت المساجد ، وفي كل منزل من منازلها بُنيت خانات كبيرة للواردين والصادرين لينزلوا فيها ، ويحفظوا أموالهم وأفراسهم ، وأسست الجسور الكبيرة والقناطر الكثيرة على الأنهار في تلك الطرق ، وأنفق فيها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

أما البريد في بلاد الهند صنفان ، بريد الخيل ويسمونه بالتركية«أولاق» بضم الواو وآخره قاف ، وهو خيل للسلطان في كل مسافة أربعة أميال ، وبريد الرّجالة فيكون في مسافة ميل ، منه ثلاث رتب ويسمونه الدواة بالدال المهملة والواو ، وهي ثلث الميل ، وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قريةٌ معمورة ، ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة ، قد شدُّوا أوساطهم ، وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين ، بأعلاها جلاجل من نُحاس ، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده ، والمقرعَة[٥] ذات الجلاجل[٦] باليد الأخرى ، وإذا كانت الكتب كثيرة أو شيء أثقل ، يُدخلها في الصرة[٧] والصرة يعلقها في المقرعة ويأخذ رأسها باليد ، ويضع جانبها الآخر على الكتف حيث تقع على ظهره ، ثم

---

(١) انظر التعليقة السابقة.

(٢) انظر التعليقة السابقة.

(٣) انظر التعليقة السابقة.

(٤) أورنك آباد: مدينة حسنة على ملتقىٰ طرق كشمير ، كانت فيها جوامع فاخرة وأسواق عديدة.

(٥) المقرعة: السوط.

(٦) الجلاجل: الجُلْجُل: جرس صغير ، ج: جَلاَجِل.

(٧) الصُّرة: الحقيبة ، المحفظة ، ج: صُرَرٌ.

يعدو بمنتهى جهده ، فإذا سمع الرجال الذين في القباب صوت الجلاجل تأهبوا له ، فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب والصرة من يده ، ويجري بأقصى جهده ، وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى الدواة الأخرى ، ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب أو الصُّرَّة إلىٰ حيث يُراد منه ، وهذا بريد الخيل ، ذكره ابن بطوطة في كتابه.

«جنة المشرق»

بيت أبي

أحمد أمين[١]

وكان بيتنا محكوماً بالسُّلطة الأبوية ، فالأب وحده مالك زمام أموره لاتخرج الأم إلا بإذنه ، ولا يغيب الأولاد عن البيت بعد الغروب خوفاً من ضربه ، وماليّة الأسرة في يده ، يصرف منها كل يوم ما يشاء كمايشاء ، وهو الذي يتحكم حتى فيما نأكل وما لا نأكل ، يشعر شعوراً قوياً بواجبه نحو تعليم أولاده ، فهو يُعلّمهم بنفسه ، ويشرف على تعليمهم في مدارسهم ، سواء في ذلك أبناؤه وبناته ، ويُتعب في ذلك نفسه تعباً لا حد له حتىٰ لقد

(١) أحمد أمين المصري (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤ م).
الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك من كبار المنشئين والمؤلفين في هذا العصر ، ويُعد من أبرز الكتاب الباحثين الذين تمتاز كتاباتهم بالروعة والسهولة والملاحة ، يتحلىٰ إنشاؤه بالطبع والرواء وعدم التكلف ، انحرف في بعض آرائه وخالفه فيها العلماء.
كان عميداً لكلية الآداب ، وبعد ذلك مديراً للإدارة الثقافية بالجامعة العربية ، وكان رئيساً للجنة التأليف والترجمة والنشر.
يتمتع أحمد أمين بأسلوب متين رشيق ، ويعتبره سماحة الشيخ الندوي من كبار المنشئين والمؤلفين في هذا العصر ، ويشهد بإنشائه المطبوع وقلمه المترسل وبيانه الرائع القشيب ، ويقول الدكتور طه حسين اعترافاً بموسوعته وتقديراً لها «لقد وُفق أحمد أمين في هذه السلسلة إلىٰ الإجادة العلمية والفنية معاً ، وهي أبعد شيء عن جفاء العلم وجفوته ، وأدنىٰ شيء إلىٰ جمال الفن وعذوبته».
من أشهر مؤلفاته «الموسوعة الإسلامية» ، «فجر الإسلام» ، «ضحىٰ الإسلام» «ظهر الإسلام» ، و«فيض الخاطر».

يكون مريضاً فلا يأبَه بمرضه ويتكىء على نفسه ليُلقي علينا درسه ، وأما إيناسُنا وإدخالُ السرور والبهجة علينا وحديثه اللطيف معنا ، فلا يلتفت إليه ولايرى أنه واجبٌ عليه ، ويرحمنا ولكنه يخفي رحمته ويظهر قسوته ، وتتجلى هذه الرحمة في المرض يُصيب أحدنا ، وفي الغيبة إذا عرضت لأحد منا ، يعيش في شبه عزلة في دوره العالي ، ويأكل وحده ويقرأ وحده ويَتعبَّد وحده ، وقلما يلقانا إلا ليقرئنا ، أما حديثنا وفكاهتنا ولعبنا فمع أمنا.

وقد كان لنا جَدَّةٌ ـ هي أمُّ أمنا ـ طيبةُ القلب شديدة التدين يضيء وجهها نور ، وتزورنا من حين لآخر ، وتبيت عندنا ونفرح بلقائها وحسن حديثها ، وكانت تعرف من القصص الشعبية ـ الريفية منها والحضرية ـ الشيء الكثير الذي لا يفرغ ، فنتحلَّق حولها ونسمع حكايتها ، ولانزال كذلك حتى يغلبنا النوم ، وهي قصص مفرحة أحياناً مرعبة أحياناً ، منها ما يدور حول سلطة القدَر وغلبة الحظ ، ومنها ما يدور حول مكر النساء ودهائهن ، ومنها ما يدور حول العفاريت[١] وشيطنتها ، والملوك والعظماء وذُلهم أمام القدر إلخ ، وتتخلل هذه القصص الأمثالُ الشعبية اللطيفة ، والجمل التي يتركز فيها مغزى القصة ، وأحياناً كان أخي الكبير يقرأ لنا في «ألف ليلة وليلة»[٢] فإذا أتى إلى جُمل ماجنةٍ متهتكة[٣] تلعثم[٤] فيها وخجل واضطرب ، وحاول أن يتخطاها ، وأحياناً يزل لسانه فيقرؤها ، فيضحك بعض من حضر ، وتخجل أمي وجدتي ، فيهرب أخي من هذا الموقف المربك[٥] وتقف القراءة.

ولكن كان بُيتنا ـ على الجملة ـ جدّاً لا هزل فيه ، متحفّظاً ليس فيه

---

(١) العفريت : الخبيث ، الشيطان ج : عفاريت.

(٢) ألف ليلة وليلة : مجموعة حكايات خيالية وُضعت بين القرن الثالث عشر والرابع عشر المسيحي تحكيها السلطانة «شهرزاد» لأختها «دينازاد» في حضرة الملك «شهر يار» خلال ألف ليلة وليلة سمر ، من أشهر قصصها قصة «علي بابا» و«السندباد».

(٣) متهتكة : فاحشة.

(٤) تلعثم : توقف وتأخر.

(٥) المربك : المخجل المزعج.

ضحك كثير ولا مرح كثير ، وذلك من جِد أبي وعُزلته وشدته .

ولم تكن المدنيّة قد غزت البيوت ، وخاصة بيوتَ الطبقة الوسطى أمثالنا ، فلا ماء يجري في البيوت ، وإنما هو سَقَّاء يحمل القُربة على ظهره ويقذف ماءها في زير[1] في البيت تملأ منه القُلل وتغسل منه المواعين[2] ، وكلما فرغت قربة أحضر قربة ، والسَّقاء دائم المناداة على الماء في الحارة وحسابه لكل بيت عسير ، إذ هو يأخذ ثمن مائه كل أسبوع ، فتارة يتبع طريقة أن يخط خطاً على الباب كلما أحضر قربة ، لكن بعض الشياطين يغالطون فيمسحون خطّاً أو خطين ، ولذلك لجأ السقاء إلى طريقة «الخرز» فيعطي البيت عشرين خرزة وكلما أحضر قربة أخذ خرزة ، فإذا استنفدت كلها ، حاسب أهل البيت عليها .

وأخيراً ـ وأنا فتى ـ رأيتُ الحارة تُحفر والأنابيب تُمد والمواسير[3] والحنفيات[4] تُركَّب في البيوت ، وإذا الماء في متناولنا وتحت أمرنا ، وإذا[5] صوت السقاء يختفي من الحارة ويريحنا الله من الخطوط تُخط أو الخرز يوزع .

وطبيعي في مثل هذه الحال أن لايكون في البيت كهرباء فكنا نستضيء بالمصباح يُضاء بالبترول ، ولم أستضيء الكهرباء حتى فارقت حيّنا إلى حيٍّ آخر أقرب من الأرستقراطية[6] .

وطعامنا يطهى على الخشب ، ثم تقدَّمنا فطهينا على رجيع الفحم فحم الكوك[7] ثم تقدمنا أخيراً فطهينا على « وابور بريمس »[8] وكل أعمال

(١) زير : الدَّنُّ ، الجرة ج : أزوار وأزيار وزِيَرَة .
(٢) الماعون : الفأس والقدر ونحوهما من أشياء البيت ج : مواعين .
(٣) المواسير ، الماسُورة : هي الأنبوب ، ج : مواسير .
(٤) الحنفيات ، الحَنَفِية : خزانة الماء .
(٥) إذا : حرف المفاجأة ، مثل : «أسرعت إلىٰ البيت فإذا الباب مغلق» .
(٦) الأَرِستُقرَاطِيّة : الطبقة العليا ذات الامتيازات .
(٧) فحم الكوك : الفحم الحجري الذي يستخدم للطبخ .
(٨) وابور : موقد الغاز ، وبريمس : اسم الشركة الصانعة له .

البيت تقوم بها أمي ، فلا خادم ولاخادمة ولكن يعينها على ذلك أبناؤها فيما يقضون من الخارج ، وكبرى بناتها في الداخل.

وكان أبي مدرساً في الأزهر ومدرساً في مسجد الإمام الشافعي وإمام مسجد ، ويتقاضى من ذلك نحو اثني عشر جنيهاً ذهباً ، فلم تكن نعرف جُنيهات الورق ، وأذكر ـ وأنا في المدرسة الابتدائية ـ أن ظهرت عملة الورق فخافها الناس ولم يُؤمنوا بها وتندَّرت[١] الجرائد الهزلية عليها ، وكانت لا تقع في أيدي الناس ـ وخاصة الشيوخ ـ حتى يسرعوا إلى الصيارف فيُغيِّروها ذهباً.

وكانت الاثنا عشر جنيهاً تكفينا ، وتزيد عن حاجتنا ، ويستطيع أبي أن يدخر منها للطارىء إذ كانت قدرتها الشرائية تُساوي الأربعين جنيهاً أو الخمسين اليوم ، فعشر بيضات بقرش ، ورطل اللحم بثلاثة قروش أو أربعة ، ورطل السمن كذلك وهكذا ، ومن ناحية أخرى كانت مَطالبُ الحياة محدودة ومعيشتنا بسيطة ، ومأكلنا مُعتدل ليس بضروري فيه تعدُّد أصنافه ، ولا أكلُ اللحم كلَّ يوم ، ولم نر فيمن حولنا عيشةً خيراً من عيشتنا نَشقى بالطموح إلى أن نعيش مثلها ، ولا سينما ولا تمثيل ، ولكن من حين لآخر تُنصب خيمة على باب حارتنا يُلعب فيها «قره جوز[٢]» أدخل إليها بنصف قرش ويكون ذلك مرة في السنة أو مرتين.

ويَغمر البيتَ الشعورُ الديني فأبي يؤدي الصلوات لأوقاتها ، ويُكثر من قراءة القرآن صباحاً ومساء ، ويصحو مع الفجر ليصلي ويَبتهل ، ويُكثر من قراءة التفسير والحديث ، ويكثر من ذكر الموت ، ويُقلل من قيمة الدنيا وزخرفتها ، ويحكي حكايات الصالحين وأعمالهم وعبادتهم ، ويؤدي الزكاة ويُؤثر بها أقرباءه ، ويَحج وتحج أمي معه ، ثم هو يربي أولاده تربية دينية ، فيوقظهم في الفجر ليصلوا ، ويراقبهم في أوقات الصلوات

---

(١) تندرت: تحدثت بالاستخفاف والمزاح.
(٢) قره جوز: لعب مُنظَّم بالدمىٰ. وتعرف لدىٰ العامة بـ(كراكوز).

الأخرى ، ويسائلهم متى صلوا وأين صلوا ، وأمي كانت تُصلي الحين بعد الحين ، وكلنا يحتفل برمضان ويصومه ، وعلىٰ الجملة فأنتَ إذا فتحت باب بيتنا شممت منه رائحة الدين ساطعة زكية ، ولست أنسى يوماً أُقيمت فيه حفلة عرس في حارتنا ، وقدمت فيه المشروبات لبعض الحاضرين ، فشوهد أخي المراهق يجلس على مائدة فيها شراب ، فبلغ ذلك أبي فما زال يضربه حتى أغمي عليه ، كان معي يوماً قطعة بخمسة قروش ، فحاولت أن أصرفها من بائع سجائر ، فشاهدني أخي الكبير ، فأخذ يسألني ويحقق معي تحقيق «وكيل النيابة» مع المتهم خوفاً من أن أكون أشتري سجائر لأدخنها إذ ليس أحد في البيت يحدِّث نفسه أن يشرب سيجارة .

وبعد فما أكثر ما فعل الزمان! لقد عشتُ حتى رأيت سلطة الآباء تَنهار ويحلُّ محلها سلطة الأمهات والأبناء والبنات ، وأصبح البيت برلماناً صغيراً ، ولكنه برلمان غَير مُنظَّم ولا عادل ، فلا تؤخذ فيه الأصوات ولا تتحكم فيه الأغلبية ، ولكن يُتبادل فيه الاستبداد فأحياناً تَستبد الأم وأحياناً تستبد البنت أو الابن ، وقلما يستبد الأب ، وكانت ميزانية البيت في يد صرَّاف واحد ، فتلاعب بها أيدي صرافين ، وكثرت مطالب الحياة لكل فرد وتنوعت ، ولم تجد رأياً واحداً يعدل بينها ويوازن بين قيمتها ، فتصادمت وتحاربت وتخاصمت ، وكانت ضحيتها سعادة البيت وهدوءه وطمأنينته .

وغزت المدنية الماديةُ البيت فنور كهربائي ، وراديو وتليفون، وأدوات للتسخين ، وأدوات للتبريد ، وأشكال وألوان من الأثاث ولكن هل زادتْ سعادة البيت بزيادتها؟ .

وسفرتِ المرأة ، وكانت أمي وأخواتي محجبات لا يرين الناس ولا يراهن الناس إلا وراء حجاب ، وهكذا من أمور الانقلاب الخطير ، ولو بعث جدي من سمخراط[1] ورأى ما كان عليه أهل زمنه وما نحن عليه اليوم

(١) سِمِخراط : (بكسرتين) من قرىٰ البحيرة بمصر .

لجُنَّ جنونه ، ولكن خفَّف من وقعها علينا أنها تأتي تدريجاً ونألفها تدريجاً .

ويفتر عجبنا منها وإعجابنا بها على مر الزمان ، وتتحول شيئاً فشيئاً من باب الغريب إلى باب المألوف .

« حياتي »

رسالة إلى الوالدة

ابن تيمية[١]

من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة أقرَّ الله عينيها بنعمه ، وأسبغ عليها جزيل كرمه ، وجعلها من إمائه وخدمه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

إنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهْل ، وهو على كل شيء قدير ،ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين وإمام المتقين ، محمد عبده ورسوله وعلى آله تسليماً.

كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة ، ومننٍ كريمة ، وآلاءٍ جسيمة ، نشكر الله عليها ونسأله المزيد من فضله ، ونعمُ اللهِ كلما جاءت في نمو

---

(١) ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ).
الإمام شيخ الإسلام ، الذكي الألمعي ، الكاتب العبقري الخطيب المصقع ، الباحث المنقب ، العالم البارز تقي الدين ابن تيمية .
وُلد في حران ، وتحول به أبوه إلىٰ دمشق ، فنبغ واشتهر ، عاش جُلَّ حياته في عسر واعتقال واضطهاد ، ومع ذلك كان كثير البحث في فنون الحكمة ، داعية إصلاح في الدين ، آية في التفسير والأصول ، فصيح اللسان ، قلمه ولسانه متقاربان ، درس أقوال السابقين ، وبرع في العلم والتفسير والأصلين ، وضغط علىٰ التوحيد .
قال ابن دقيق العيد : «لما اجتمعتُ بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلُّها بين عينيه يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد» ، وقال الحافظ الذهبي : «له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ، يقول الحق المر لذي أداه إليه اجتهاده وحِدَّة ذهنه» وقال كمال الدين الزملكاني : «له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم».
تبلغ تصانيفه ثلاثمئة مجلد من أشهرها : «الجوامع» و«السياسة الشرعية» و«مجموعة الفتاوي» و«الرسائل» ، و«منهاج السنة» ، و«رفع الملام» ، وغيرها من الكتب التي يرجع إليها العلماء والباحثون .

وازدياد ، وأياديه[١] جلَّت[٢] عن التعداد ، وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية ، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا ، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم ، ولكنَّ الغائب عذره معه ، وأنتم لو اطَّلعتم على باطن الأمور ، فإنكم ولله الحمد ما تختارون الساعة إلا ذلك ، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً ، بل كل يوم نَستخير[٣] الله لنا ولَكم ، وأدعوه لنا بالخيرة ، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية .

وقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال ولا يدور في الخيال ، ونحنُ في كل وقت مهمومون[٤] بالسفر مُستخيرون الله سبحانه وتعالى ، فلا يظنَّ الظان أنا نُؤثر على قربكم شيئاً من أمورالدنيا قط ، بل لا نُؤثر من أمور الدين ما يكون قربُكم أرجحَ منه ، ولكن ثَمَّ أمورٌ كبار نخاف ضرر الخاص والعام من إهمالها ، والشاهدُ يرى ما لا يرى الغائب .

والمطلوب كثير الدعاء بالخيرة فإن الله يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علاَّم الغيوب، وقال النبي ﷺ: «من سعادة ابن آدم استخارتُه الله ورضاه بما يقسمُ الله له ، ومن شَقاوة ابن آدم تركُ استخارته الله ، وسَخطه بما يَقسم الله له» والتاجر يكون مسافراً ، فيخافُ ضياع ماله ، فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه ، وما نحن فيه أمر يجلُّ عن الوصف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، كثيراً كثيراً ، وعلى سائر من في البيت من الصغار ، والكبار ، والأهل والأصحاب واحداً واحداً ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

(ابن تيمية لأبي زهرة)

---

(١) الأيادي : النعم ، وهي من اليد ج : الأيدي ، ج : الأيادي .
(٢) جلَّت ، جَلَّ عن كذا : تنزه وترفع .
(٣) الاستخارة : طلب الخير من الله .
(٤) مهموم : محزون ، مغموم .

تأثير القرآن

لجرجي زيدان[١]

وهناك تأثير عظيم الأهمية لم يُوفق لغير القرآن من الكتب الدينية في الأمم الأخرى ، ذلك أنه أطال بقاء اللغة العربية الفصحى ، وجعل ملايين من الناس يقرؤونها ويفهمونها ، وهو الذي حفظ الجامعة العربية[٢] واستبقى العنصر العربي ، لأن الإسلام يفرض على كل مسلم أن يحفظه ويطالعه ، ولولا القرآن لكانت لغة العالم العربي لغات متفرقة ليَصعُب التفاهمُ بين أصحابها كما صارت إليه اللغة اللاتينية بعد ذهاب دولة

---

(١) جرجي زيدان (١٢٧٨ ـ ١٣٣٢ هـ).
هو جرجي بن حبيب زيدان ، منشيء مجلة «الهلال» بمصر ، وصاحب التصانيف الكثيرة ، ولد وتعلم ببيروت ، رحل إلىٰ مصر فأصدر مجلة «الهلال» اثنين وعشرين عاماً ، توفي بالقاهرة.
هو باحث أديب يُعد من الأعلام العرب الذين حملوا مشعل النهضة الحديثة ، وله أكبر الأثر في إرساء قواعد هذه النهضة علىٰ الأسس العلمية التي يجب أن ترتكز عليها ، وهو بالإضافة إلىٰ ما كان يتمتع به من موهبة أدبية جمالية وخيال خصب ، كان أكثر الباحثين جلداً علىٰ تقصّي وقائع التاريخ ، وملاحقة دقائق حوادثه.
وكتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» كتابٌ قيم في أسلوب أدبي متين ، يدل علىٰ التذوق الأدبي للمؤلف ، وبراعته في الأدب واللغة ، ويتضمن دراسة التاريخ وعرضه ومحاكمة وقائعه ، ودراسة تَطور وُجدان العربي من خلال الآثار الأدبية.
له من الكتب «تاريخ مصر الحديث» ، و«تاريخ التمدن الإسلامي» و«عجائب الخلق» و«الفلسفة اللغوية».

(٢) الجامعة العربية : الوحدة العربية ، التضامن العربي.

الرومان ، فتفرق أصحابها أمم وطوائف ، وامّحت الدولة الرومانية والأمة الرومانية كما امّحت سواها من الأمم التي ذهبت جنسيتها بذهاب لغتها كالسّريان[١] والأنباط[٢] في الشام ، والقبط في مصر ، وهؤلاء إنما حُفظت جامعتهم بالدين لا باللغة .

أما اللغة فقد حفظها القرآن ، وحُفظ بها التفاهم بين الأمم الإسلامية في الشام ومصر والعراق والحجاز والمغرب وزنجبار[٣] والسودان وغيرها ، ولولاه لكانت كل أمة من هؤلاء تتكلم لغة لا تفهمها صاحبتها ، ومع ذهاب التمدُّن الإسلامي وتقهقُر[٤] الدولة الإسلامية كان يُخشى ضياع تلك الأمم وفناؤها أو اندماجها في الأمم التي تسلطت عليها ، كما أصاب الأمم التي اندمجت بالعرب بعد الإسلام ، لكنها الآن تجتمع وتتكاتف ، لأنها تتفاهم بلغة واحدة هي لغة القرآن وتعد نفسها أمة واحدة .

ناهيك[٥] بمن يقرأ العربية من غير العرب بسبب حفظ القرآن ، ولو كانوا في أقصى الشرق كالهند والصين ، أو بأواسط آسيا في تركستان وخراسان وفارس ، فإن عدد قُراء العربية يزيد على مئتي مليون ، وقراء التوراة بلغتها الأصلية شرذمة من اليهود المتعلمين ، وجمهورهم يقرؤها بلغة بلاده ، وقُراء الأناجيل بلغاتها الأصلية فئة قليلة ، وأكثر أمم النصرانية يقرؤونها في اللغات المترجمة إليها ، أما القرآن فالمسلمون يقرؤونه في اللغة العربية .

ويُعد من قبيل تأثيره في آداب اللغة أيضاً ، تأثيره في أخلاق أصحابه ،

---

(١) السريان : هم اليوم المسيحيون أبناء اللغة السريانية ، تنتظم جماعة منهم اليوم في سورية وبلاد ما بين النهرين .

(٢) الأنباط ، (النَّبـط) : قبائل بدوية عربية استوطنوا جنوب فلسطين بعد القرن الرابع قبل المسيح .

(٣) زنجبار : مدينة كانت جزءاً من عُمان ، وصارت اليوم إلىٰ جمهورية تنزانيا .

(٤) التقهقر : رجوع إلى الوراء .

(٥) نَاهِيك بمَن : الناهي : اسم فاعل من نهىٰ ينهىٰ ، والباء زائدة ، يقال : ناهيك بزيد فارساً ، في مقام التعجب والاستعظام ، يعني زيدٌ غاية فيما تطلبه ، وينهاك عن أن تطلب غيره .

ولكل كتاب من كتب الدين الرئيسة تأثيرٌ عام على أتباع ذلك الدين يظهر فيهم ـ ولو تباعدت مواطنهم ـ وذلك طبيعي لما تعلمه من تأثير العادات في الأخلاق والأبدان ، ولكل دين تعاليم وتقاليد وآداب تظهر آثارها في أخلاق أصحابه ، فالمسيحيون يشتركون في كثير من الآداب والعادات والأخلاق ، يمتازون بها عن سواهم ، وكذلك اليهود وغيرهم .

واعتبرْ ذلك في القرآن ، بل هو أشدُّ تأثيراً في أصحابه من سواه لأنهم مُكلَّفون بحفظه قبل كل علم وهم أطفال ، وهو داخلٌ في كل شيء من أمورهم الدينية والدنيوية ، وأساسُ شرائعهم القضائية ، وقاعدة معاملاتهم اليومية ، وأحوالهم العائلية ، حتى الطعام واللباس والشراب والنوم والغسل ، وكل شيء يمكن استنباطه منه ونجدُ له مثالاً فيه ، وهذا لا تراه في الأناجيل مثلاً ، فإنها كتب تعليمية لمصلحة الآخرة فقط ، ولا تجدُ فيها شرعاً ، أو حكومة ، أو أحوالاً شخصية ، أو نحو ذلك إلا ما يأتي عرضاً ويفتقر إلى تأويل .

وتأثيرُ القرآن في أخلاق أهله ومعاملاتهم اليومية والبيتية لا يخلو من التأثير على عقولهم وقرائحهم وآرائهم ، ولو بَعُدت عن الدين وعلومه ، فالصِّبغة الدينية القرآنية أو الإسلامية تظهر في مؤلفات المسلمين ولو ألفوا في الفلسفة أو الطب أو الفلك أو الحساب ، أو غيرها من العلوم الرياضية أو الطبيعية ، فضلاً عن العلوم الإسلامية الشرعية واللسانية والتاريخ والأدب .

وبالجُملة فإن للقرآن تأثيراً في آداب اللغة العربية ليس لكتاب ديني مثله في اللغات الأخرى .

(«تاريخ آداب اللغة العربية» «لجرجي زيدان»)

الكرم والسؤدد

لعبد الملك الحارثي[1]

إذا المرء لمَ يَدْنَسْ من اللُّؤم عرضُه فكلُّ رِداء يرتديه جميلُ
وإنْ هو لم يحملْ على النفس ضَيمها[2] فليس إلى حُسن الثناءِ سَبيلُ
تُعيِّرنا أنَّا قليل عَديدُنا فقلتُ لها إنَّ الكرام قليلُ
وما قل من كانت بقاياه مثلنا شبابٌ تسامى[3] للعُلا وكهولُ
وما ضرَّنا أنَّا قليل وجارُنا عزيز ، وجارُ الأكثرين ذليلُ

---

(١) عبد الملك الحارثي (نحو ١٩٠ هـ).
شاعر فحل كان من سكان الفلجة من الأراضي التابعة لدمشق في أيامه ، قصد بغداد حيث سَجنه الرشيد العباسي ، وجُهل مصيره ، وضاع أكثر شعره ، وما بقي منه طبقتهُ عالية ، يقول ابن المعتز في «طبقات الشعراء»: قال أبو الأسود الشاعر «كان الحارثي شاعراً مقتدراً مطبوعاً ، نمطه نمطُ الأعراب ، انقاد الشعراء وأذعنوا له ، وهو أحد من نُسخ شعرهُ بماء الذهب».
كان له ابنٌ شاعرٌ ، وحفيدٌ شاعرٌ ، وأخٌ شاعرٌ.
وقد ينسب بعض الأدباء هذه القصيدة إلىٰ السموأل بن عاديا ، فهو السموأل بن غريض بن عاديا الأزدي (نحو ٥٦٠ م) شاعر جاهلي حكيم صاحب حصن «الأبلق» بتيماء ، اشتهر بوفائه حتى ضُرب به المثل في ذلك ، لأنه أسلمَ ابنهُ حتى قُتل ، ولم يَخُن أمانته في أَدْرُع أودعها ، وقصيدته هذه تسمىٰ «اللامية» وهي من أجود الشعر عند علماء الأدب ، يقول أبو عُبيدة البكري في «سمط اللآلي»: «بيتهُ بيت الشعر في يهود ، فإنه شاعر ، وأبوه شاعر ، وأخوه شاعر متقدم مجيد».

(٢) الضَّيْم: الظلم ، ج: ضُيُوم ، وأصل الضيم: العدول عن الحق ، ويريد بقوله «ضيمها» ضيمَ الغير لها ، فأضاف المصدر إلىٰ المفعول.

(٣) تسامىٰ تسامياً: تفاخر.

وإنّا لقومٌ ما نرى القتل سُبَّة إذا ما رأته عامر وسَلولُ[١]
يُقرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالنا لنا وتكرهه أجالهم وتَطولُ
وما مات منا سيد حتفَ أنفه ولاطُلَّ[٢]مِنا حيث كان قتيلُ
تسيل على حَدِّ الظُّبات[٣] نُفوسنا وليستْ على غير الظُّباتِ تَسيلُ
علونا إلى خير الظهور وحطُّنا لوقتٍ إلى خير البطون نُزولُ[٤]
فنحن كماء الُمزنِ[٥] ما في نصابنا كَهام ولا فينا يُعدُّ بخيل
إذا سيد منا خلا قام سيدٌ قؤول لما قال الكرام فَعولُ
وما أخمدت نار لنا دون طارقٍ ولاذمَّنا في النازلين نزيلُ
وأيامُنا مشهورة في عدونا لها غُرَرٌمعلومةٌ وحُجولُ[٦]
سلي إن جهلت الناس عنَّا وعنهمُ وليس سَواءً عالمٌ وجَهولُ

---

(١) سَلول: قبيلة، سلول بنت ذُهل بن شيبان: أمٌّ جاهلية ينسب إليها بنوها من زوجها مُرة بن صعصعة من هوازن، من العدنانية.
عامر: يعني بني عامر بن صعصعة.
(٢) طُلَّ، طل دمه: إذا بطل ولم يُطلب به، وهو مطلول.
(٣) الظُّبة: حد السيف، أو السنان، ج: ظبات وظُبىً.
(٤) علونا: يشير إلىٰ علو نسبه من قبل الأبوين.
(٥) المُزْن: ماء المطر أصفىٰ المياه عندهم، فشبه صفاء أنسابهم بصفاء المطر، ويمكن أن يكون المراد به: السخاء. أي: نحن كالغيث الذي ينتفع به الناس.
(٦) الغُرَّة: البياض في جبهة الفرس، ج: غرر.
الحِجْل: البياض في رجل الفرس ج: حُجُول.
يريد أن وقعاتنا مشهورة في أعدائنا، فهي بين الأيام كالأفراس الغُرّ المُحَجَّلةِ بين الخيل.

عزاء علي بن أبي طالب لأبي بكر

لما قُبض أبو بكر ، سُجّي بثوبٍ ، فارتجَّت المدينة بالبكاء عليه ، ودُهش القوم كيوم قُبض رسول الله ﷺ ، وجاء علي بن أبي طالب باكياً مسرعاً مُسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول: رحمك الله أبا بكر ، كُنتَ والله أول القَوم إسلاماً ، وأخلَصهم إيماناً ، وأشدَّهم يقيناً ، وأعظمهم غناء ، وأحفظهم على رسول الله ﷺ ، وأحربهم على الإسلام ، وأحناهم على أهله ، وأشبههم برسول الله ﷺ خَلقاً وفَضلاً وهَدياً وسَمتاً ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً ، صدَّقتَ رسول الله حين كذَّبه الناس ، وواسيته حين بَخلوا ، وقُمتَ معه حين قَعدوا ، سمَّاك الله في كتابه صديقاً فقال: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر: ٣٣] يريد محمداً ويريدك ، كنتَ والله للإسلام حِصناً وعلى الكافرين عذاباً ، لم تفلل حُجَّتك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك ، كنت كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كنتَ كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدنك ، قوياً في أمر الله ، متواضعاً في نفسك ، عظيماً عند الله ، قليلاً في الأرض ، كثيراً عند المؤمنين ، لم يكن لأحدَ عندك مطمع ، ولا لأحد عندك هوادة ، فالقويُّ عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ، والضعيف عندك قويٌّ حتى تأخذ له ، فلا أحرَمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك.

(العقد الفريد ج٣)

المدنية الإسلامية

للأمير شكيب أرسلان[١]

أمَّا زَعمُ من زعم أن الإسلام لم يتمكن من تأسيس مدنيةٍ خاصة

(١) الأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦ م).
الأمير شكيب أرسلان اسم ملأ في عصرٍ كلَّ مكان ، واستغنىٰ عن التعريف بابن فلان ، فهو السياسي الطائر الصيت ، وهو الكاتب الذائع الشهرة ، وهو الرحالة الواسع الرحلات.
ولد في بيت من بيوت السراة بقرية من قرىٰ مقاطعة «الشوف» بلبنان ، والده الأمير حمود بن حسن الأرسلاني ، وأمه سيدة شركسية فاضلة.
التقىٰ بصفوة المفكرين والعلماء ، وأحسَّ منذ البداية بخطر الاحتلال الأجنبي لمصر ، فصمد في وجهه صمود الجبال ، ونصب من نفسه حارساً لقضايا الإسلام والعروبة ، حتىٰ أطلق عليه أصدقاؤه ألقاباً عديدة مثل «أمير البيان» ، و«كاتب الشرق الأكبر» ، وهو رجل بحَّاثة ، وصحافي ، ومؤرخ بارع ، أنفق حوالي ستين عاماً في القراءة والكتابة والخطابة والتأليف ، يقول السيد رشيد رضا المصري في تقديمه لكتابه «لماذا تأخر المسلمون»:
«إنه آيةٌ من آيات بلاغته ، لعلها أنفع ما تفجَّر من ينبوع خبرته ، فسال من أنبوب براعته».
ويتحدَّث عنه أحمد الشرباصي فيقول: «شكيب أرسلان هو المجاهد في سبيل وحدة العرب ، وهو المؤلف للعدد الكثير الضخم من الكتب والآثار ، وهو أمير البيان الذي يجري لقبه مع اسمه علىٰ كل لسان يقرأ العربية».
له عشرات من الكتب منها باكورة «ديوان الشعر» ، «الدرة اليتيمة» (تحقيق وتعليق) ، «شوقي أو صداقة أربعين سنة» ، و«النهضة العربية في العصر الحاضر».
والكتاب «حاضر العالم الإسلامي» تعليقٌ علىٰ كتاب «ستودارد الأمريكي» نقله إلىٰ العربية الأستاذ عجاج نويهض ، يحتوي هذا التعليق علىٰ تراجم عشرات من الرجالات من ملوك ومصلحين وعلماء وثائرين وغيرهم من هذه المعادن في العالم الإسلامي الآسيوي الأفريقي ، ويكشف الستار عن مؤامرات التنصير في إفريقية خاصة ، وبذلك صار الكتاب ذا صبغة موسوعية ضمن نطاق إسلامي محدود.

والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة ، فهو خرافة يموّهُ[١] بها بعض أعداء الإسلام من الخارج ، وبعضُ جاحديه من الداخل ، أما القسم الأول فلأجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوربية ، وأما القسم الثاني ، فلأجل أن يزرعوا في العالم الإسلامي بذور الإلحاد.

فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة ، بل من الجهل بالشريعة ، أو من عدم إجراء أحكامها كما ينبغي ، ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الإسلام عظيماً عزيزاً.

ومدنية الاسلام قضية لا تقبل المماحكة[٢] ، إذ ليس من أمة في أوربة سواء الألمان أو الفرنسيس أو الإنكليز أو الطليان[٣] إلخ؛ إلا وعندهم تآليف لا تحصى في «مدنية الإسلام».

فالمدنية الإسلامية هي من المدنيّات الشهيرة التي يَزدان بها التاريخ العام ، والتي تغُصُّ سجلاتها الخالدة بآثارها الباهرة ، وقد بلغت بغداد في دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال العمارة واستبحار الحضارة ، وتناهي الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدنيّة قبلها ولا بعدها إلى هذا العصر حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان ، وكانت البصرة في الدرجة الثانية ، وكان أهلها نحو نصف مليون.

وكانت دمشق ، والقاهرة ، وحلب[٤] وسمرقند[٥] وأصفهان[٦] ، وحواضرُ أخرى كثيرةٌ من بلاد الاسلام أمثلة تامة وأقيسةً بعيدة في استبحار العمران ، وتطاول البنيان ، ورفاهة السكان ، وانتشار العلم والعرفان ،

---

(١) مَوّه تمويهاً: زخرف ولبَّس.

(٢) المُماحَكةُ: الخلاف والنزاع.

(٣) الطليان: سكان إيطاليا.

(٤) حلَب: مدينة في شمال سورية.

(٥) سمَرْقَنْد: مدينة في وسط آسيا في جمهورية (أوزبكستان) حالياً.

(٦) أصفَهان: مدينة في إيران بين شيراز وطهران.

وتأثل[١] الفنون المتهدِّلة[٢] الأفنان[٣].

وكانت القيروان[٤] وفاس[٥] وتلمسان[٦] ومراكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول ، أو يناظرها مناظر ، أو أن يكاثرها مكاثر في بلدان أوروبة حتى هذه القرون الأخيرة.

وكانت قرطبة[٧] مدينةً فذة في أوروبة لا يدانيها مُدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف مليون نسمة ، وكان فيها نحو سبعمئة جامع عدا المسجد الأعظم ، الذي لما زرته في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الإسبانيولية : إنه يَتسع بحسب مساحته خمسين ألف مصل في الداخل و٣٠ ألف مصل في الصحن ، فجملةُ من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين.

ولما ذهبنا إلى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلمنا أنها تمتد على مسافة تسعمئة متر طولاً ، وفي ثمانمئة مترٍ عرضاً ، والاسبانيول يقولون : مدينة الزهراء ، وقال لي المهندسون الموكَّلون بالحفر على آثارها : إنهم يرجون الإتيان على كشفها كلها من الآن إلى خمسين سنة ، وحسبك أن غرناطة[٨] التي كانت حاضرة مملكةٍ صغيرة في آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن في أوربة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها ، وكان فيها عندما سقطت في أيدي الإسبانيول نصف مليون نسمة ، ولم يكن وقتئذ عاصمةٌ من عواصم أوربة تحتوي نصف هذا

(١) تأثّل : تأصَّل ، تجمع.
(٢) المتهدِّلة : المتدلية ، المائلة.
(٣) الأفنان ، الفَنَن : الغُصن المستقيم ، ج : أفنان ، ج : الأفانين.
(٤) القَيْرَوَان : مدينة في تونس ، أنشأها عقبة بن نافع.
(٥) فاس : مدينة في المملكة المغربية.
(٦) تِلِمسَان : مدينة في الجزائر.
(٧) قُرطُبة : مدينة في أسبانيا (الأندلس) مسقط رأس ابن رشد ، أهم آثارها العربية قصر الزهراء.
(٨) غَرنَاطة : مدينة أسبانية ، أهم آثارها العربية قصر الحمراء الذي يعد رائعة الأندلس.

العدد ، وحمراءُ غرناطة لا تزال يتيمة الدهر إلى اليوم.

هذه لمحةٌ[١] دالةٌ من مآثر حضارة الإسلام وغُرر أيامه ، وإلا فلو استقصينا كلَّ ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلودُ الكثيرة والمرصوفةُ طَبَقاً فوق طبق .

وبعد فلم نَعلم مدنيّة واحدة من مدنيات الأرض إلا وهي رَشحُ مدنيات سابقة ، وآثارُ آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، ومجموعُ نتائجِ عقول مختلفة الأصول ، ومحصولُ ثمرات ألبابٍ متباينة الأجناس.

وعلى كل حال لا يقدر مكابرٌ[٢] أن يُكابر أنَّ الإسلام كان له دور عظيم في الدنيا ، سواء في الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية ، وإن هذه الفتوحات قد اتَّسقت له في دور لا يزيد على ثمانين سنة ، مما أجمع الناس على أنه لم يتَّسق لأمة قبله أصلاً ، وكان نابليون الأول[٣] لشدة دهشته من تاريخ الإسلام يقول :

«إن العرب فتحوا الدنيا في نصف قرن لا غير».

وتأمل أيها القارىء في أن قائل هذا القول هو بونابرت الذي لم تكن تملأ عينه الفتوحات مهما كانت عظيمة.

(حاضر العالم الإسلامي ، ج١)

(١) اللَّمْحةُ : القطعة ، النبذة.
(٢) مكابر : معاند ، جاحد.
(٣) نابليون الأول (١٧٦٩ ـ ١٨٢١ م) : إمبراطور فرنسا من عائلة بونابرت الفرنسية .

أبو حنيفة النعمان

كان خزَّازاً يبيع الخَزَّ ، وَجدُّه زَوْطىٰ[١] من أهل كابل ، وقيل من أهل بابل[٢] ، وقيل من أهل الأنبار[٣] ، وقيل من أهل نسا[٤] ، وقيل من أهل تِرمذ[٥].

وأدرك أبو حنيفة أربعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وهم أنسُ بن مالك ، وعبدُ الله بن أبي أوفى بالكوفة ، وسهل بن سعد الساعدي بالمدينة ، وأبو الطفيل عامرُ بن واثلة بمكة .

وكان عالماً عاملاً ، زاهداً عابداً ، ورعاً تقياً ، كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله تعالى ، ونَقله أبو جعفر المنصور من الكوفة إلى بغداد ، فأراد أن يُوليه القضاء ، فأبى ، فحلف عليه ليفعلنَّ ، فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل ، فحلف المنصور ليفعلنَّ ، فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل ، وقال : إني لن أصلح إلى قضاء ، فقال الربيع بن يونس الحاجب : ألا ترى أمير المؤمنين يَحلفُ؟ فقال أبو حنيفة : أميرُ المؤمنين على كفارة أيمانهِ أقدرُ مني على كفارة أيماني ، فأمر به إلى الحبس في الوقت .

وكان أبو حنيفة حسنَ الوجه ، حسن المجلس ، شديد الكرم ، حسن

---

(١) زوْطىٰ : جد أبي حنيفة .

(٢) بابل : مدينة قديمة في أواسط ما بين النهرين .

(٣) الأنبار : مدينة في العراق .

(٤) نسا : مدينة بخراسان .

(٥) ترْمِذ : مدينة بالضفة الشمالية لنهر جيحون شمالي إيران .

المواساة لإخوانه ، وكان ربعة[١] من الرجال ، وقيل: كان طُوالاً تعلوه سُمرة ، أحسنَ الناس منطقاً وأحلاهم نَغمة ، ذكر الخطيب في تاريخه أن أبا حنيفة رأى في المنام كأنه ينبش قبر رسول الله ﷺ فبعث من سأل ابن سيرين ، فقال ابن سيرين: صاحب هذه الرؤيا يثور علماً لم يسبق إليه أحد قبله ، قال الشافعي رضي الله عنه: قيل لمالك هل رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم رأيت رجلاً لو كلَّمته في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقامَ بحجته ، وروى حرملة بن يحيى[٢] عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: الناس عيال على هؤلاء الخمسة: من أراد أن يتبحر في الفقه ، فهو عيال أبي حنيفة ، وكان أبو حنيفة ممن وُفق له الفقه ، ومن أراد أن يتبحَّر في الشعر، فهو عيال على زهير بن أبي سلمى[٣]، ومن أراد أن يتبحر في المغازي ، فهو عيال على محمد بن إسحاق[٤] ومن أراد أن يتبحر في النحو ، فهو عيال على الكسائي[٥]، ومن أراد أن يتجر في التفسير، فهو عيال على مقاتل بن سليمان[٦] .

وقال جعفر بن ربيع: أقمتُ على أبي حنيفة خمس سنينَ فما رأيت أطول صمتا منه ، فإذا سُئل عن الفقه تفتح وسال كالوادي ، وسمعتَ له دوياً وجهَارة في الكلام ، وكان إماماً في القياس .

قال ابن المبارك: رأيت أبا حنيفة في طريق مكة وقد شُوي لهم فصيل[٧] سمين ، فاشتهوا أن يأكلوه بِخلٍّ ، فلم يجدوا شيئاً يصبون فيه الخلَّ ، فتحيروا فرأيت أبا حنيفة قد حفر في الرمل حُفرة وَبسط عليها السُّفرة ،

---

(١) الرَّبْعَة: الوسيطُ القامةِ ، ج: رَبْعات ورَبَعات ، للمذكر والمؤنث.
(٢) حرملة بن يحيىٰ: فقيه من أصحاب الشافعي.
(٣) زهير بن أبي سلمىٰ: شاعر جاهلي ، من أصحاب المعلقات، يُعتبر من أشعر شعراء عصره.
(٤) محمد بن إسحاق: (١٥١ هـ): من أقدم مؤرخي العرب من أهل المدينة.
(٥) الكِسَائي: (نحو ١٨٩ هـ): نحوي علىٰ المذهب الكوفي ، وأحد القراء السبعة.
(٦) مقاتل بن سليمان (١٠٥ هـ) هو أبو الحسن البلخي ، مفسر كبير له «التفسير الكبير».
(٧) الفصيل: ولد الناقة أو البقرة إذا فُصل عنه أمه ، ج: فِصَال وفُصْلان.

وسكب الخل على ذلك الموضع ، فأكلوا الشواء بالخل ، فقالوا: تُحسن كل شيء! فقال: عليكم بالشكر ، فإن هذا شيء أُلهمته لكم فضلاً من الله عليكم. وقال ابن المبارك أيضاً: قلتُ لسفيان الثوري: يا عبد الله ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة! ما سمعتُه يغتاب عدواً له قط ! فقال: هو عاقل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها ، وقال أبو يوسف: دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة ، فقال الربيع صاحبُ المنصور: ـ وكان يعادي أبا حنيفة ـ يا أمير المؤمنين: هذا أبو حنيفة يُخالف جدك ، كان عبد الله بن عباس رضي الله عنه يقول: إذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين جاز الاستثناء ، وقال أبو حنيفة: لا يجوز الاستثناء إلا متصلاً باليمين فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جُندك بيعة قال: وكيف؟ قال: يَحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيَستثنون فتبطل أيمانهم ، فضحك المنصور وقال: يا ربيع لا تتعرَّض لأبي حنيفة ، فلما خرج أبو حنيفة ، قال له الربيع: أردت أن تشيط بدمي؟[1] قال: ولكنك أردت أن تشيط بدمي فخلصتك وخلصت نفسي ، وكان أبو العباس الطوسي[2] سيىء الرأي في أبي حنيفة ، وكان أبو حنيفة يعرف ذلك ، فدخل أبو حنيفة على المنصور ، وكثر الناس ، فقال الطوسي: اليوم أقتل أبا حنيفة فأقبل عليه فقال: يا أبا حنيفة إن أمير المؤمنين يدعو الرجل فيأمرهُ بضرب عُنق الرجل لا يدري ما هو ، أيَسعُه أن يضربَ عنقه؟ فقال: يا أبا العباس أمير المؤمنين يأمر بالحق أم بالباطل؟ فقال : بالحق . قال: أنفذ الحق حيث كان ، ولا تسأل عنه ، ثم قال يزيد بن الكميت: كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله تعالى ، فقرأ بنا عليُّ بن الحسين المؤذن ليلة في العشاء الأخيرة سورة« إذا زلزلت» وأبو حنيفة خلفه ، فلما قضى الصلاة وخرج الناس ، نظرت إلى أبي حنيفة وهو جالس يتفكر ويتنفس ، فقلت: أقوم لا يشتغل قلبه بي . فلما خرجت تركت القنديل ولم يكن فيه إلا زيتٌ

---

(١) أشاط دمه إشاطة: عَرَّضه للقتل وأهدر دمه.

(٢) أبو العباس الطوسي ، يَزيد بن الكميت: من معاصري أبي حنيفة رحمه الله.

قليل ، فجئت وقد طلع الفجر وهو قائم ، وقد أخذ بلحية نفسه وهو يقول: يامن يَجزي بمثقال ذرةٍ خيرٍ خيراً ، ويا من يجزي بمثقال ذرة شر شراً أجر النعمان عبدَك من النار ومما يقربُ منها من السوء ، وأدخله في سعة رحمتك. فأذنت ، وإذا القنديل يزهو وهو قائم فلما دخلت قال لي: تريد أن تأخذ القنديل؟ قلت: قد أذَّنت لصلاة الغداة فقال: اكتُم علي ما رأيت ، وركع ركعتين وجلس حتى أقيمت الصلاة ، وصلى معنا الغداة على وضوء أول الليل. وقال أسد بن عمرو[١]: صلى أبو حنيفة فيما حُفظ عليه صلاة الفجر بوضوء العشاء أربعينَ سنة ، وكان عامة ليله يقرأ جميع القرآن في ركعة واحدة وكان يُسمع بكاءه في الليل حتى يَرحمه جيرانه ، وحُفظ عليه أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف ختمة.

وكانت ولادةُ أبي حنيفة سنة ثمانين للهجرة وقيل: سنة إحدى وستين والأول أصح ، وتوفي في رجب ، وقيل في شعبان سنة مئة وخمسين ، والأول أصح ، وكانت وفاته ببغداد في السجن ليلي القضاء فلم يفعل ، هذا هو الصحيح ، وقيل إنه لم يمت في السجن ، وقيل توفي في اليوم الذي ولد فيه الإمام الشافعي رضي الله عنه ، ودفن في قبر الخيزران[٢] ، وقبره هناك مشهور.

(وفيات الأعيان)

(١) أسد بن عمرو (١٨٨ هـ) قاض من أهل الكوفة من أصحاب الإمام أبي حنيفة ، وهو أول من كتب كتب أبي حنيفة.

(٢) الخَيْزُران: موضع كان يحيط به أشجار «الخيزران» وقيل إنه اسم أم هارون ، وبها سميت المقبرة التي دفن فيها الإمام أبو حنيفة فيما بعد ذلك.

الطموح

لأبي فراس الحمداني[١]

غيـري يُغيِّـره الفعـال الجـافـي ويَحُول عن شيَم الكريم الوافي
لا أرتضـي وُدّاً إذا هـو لـم يَـدُم عنـد الجَفـاء وقِلَّـة الإنصـافِ
تَعسَ الحـريصُ وقـلَّ مـا يـأتـي به عوضاً عن الإلحاح والإلحافِ[٢]
إنَّ الغَنـى هـو الغَنـيُّ بنفسـه ولـو أنَّه عـاري المنـاكـبِ حـافـي
مـا كـل مـا فـوق البسيطـة كـافيـاً وإذا قنعـت فبعـضُ شـيء كـافـي[٣]
وتَعـافُ لـي طمـعَ الحـريص فُتـوَّتـي ومُـروءتـي وقناعتـي وعَفـافـي[٤]

(١) أبو فراس الحمداني (٣٢٠ ـ ٣٥٧ هـ).
أبو فراس الحمداني شاعر معروف ، يُعد من الشعراء البارزين ، يجمع شعره بين الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة ، وهو ابن عم سيف الدولة ، له وقائع كثيرة ، قاتل بها بين يدي سيف الدولة ، وكان سيف الدولة يُعجب جداً بمحاسن أبي فراس الحمداني ويُميزه بالإكرام عن سائر قومه ويصطحبه في غزواته ، جرح ذات مرة في معركة مع الروم ، فأسروه ، فامتاز شعره في الأسر برومياته ، كان الصاحب بن عباد يقول: «بُدِىء الشعر بملك ، وخُتم بملك. يعني امرأ القيس وأبا الفراس» . وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز ، ويتحامىٰ جانبه فلا يَنبري لمباراته. ويتحدث الثعالبي عن مزاياه قائلاً: «شِعره مشهور سائر بين الجودة والحلاوة ، ومعه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك».
ويقول بطرس البستاني: «إنه جيد الشعر في حماسياته ، مبدع في رومياته ، شاعر العاطفة في كلتيهما وهو الشاعر الملك ، والملك الفارس ، والفارس الأسير».

(٢) تعس تعساً وتعساً (ف ، س): هلك.
الإلحاف: السؤال والإلحاح فيه.

(٣) البسيطة: الأرض.

(٤) عاف عَيْفاً وعَيَفَاناً (ض ، س) كره وأبىٰ.

ما كثرةُ الخيل العتاق بزائدي ... شَرَفاً ولاعدد السَّوام الضافي[١]

خيلي وإن قلَّتْ كثيرٌ نفعُها ... بين الصَّوارم والقَنا الرُّعاف[٢]

ومكارمي عددُ النجوم ومنزلي ... مأوى الكرامِ ومَنزِلُ الأضيافِ

لا أقتني لصروف دهري عدةً ... حتى كأنَّ خُطوبه أَحلافي[٣]

شيم عُرفتُ بهنَّ مذ أنا يافعٌ ... ولقد عَرفتُ بمثلها أسلافي

(يتيمة الدهر للثعالبي)

---

(١) السوام (والسائمة): الماشية والإبل الراعيه ، ج: سَوَائِم.
الضافي: الكثير.

(٢) الصوارم ، الصارم: السيف القاطع ، ج: صوارم.
الرُّعاف: النازف للدماء.

(٣) أحلاف ، الحِلْف: ما يلازم الشيء ولا يفارقه ، أحلافي: أي أن المصائب والخطوب مرافقي وأتباعي ، أو أنها عقدت حلفاً معي فهي لا تفارقني.

الكذب

المنفلوطي[١]

كَذِبُ اللسان من فُضول[٢] كَذِب القَلب ، فلا تأمنِ الكاذب على وُد ، ولا تثق منه بعَهد ، واهرُب من وجههِ الهربَ كُلَّه ، أخوفُ ما أخاف عليك من خُلطائك[٣] وسُجرائك[٤] الرجلُ الكاذب .

عرَّف الحكماء الكذب بأنه مُخالفة الكلام للواقع ، ولعلهم جارَوا في

---

(١) مصطفىٰ لطفي المنفلوطي (١٢٨٠ ـ ١٣٤٣ هـ) .
نابغة في الإنشاء والأدب ، انفرد بأسلوب نقي في مقالاته وكتبه ، له شعر جيد فيه رقة وعذوبة ، ولد في منفلوط من صعيد مصر ، وإليها انتسب ، التحق بالأزهر ودرس علوم الدين واللغة ، إلا أنه كان ميالاً إلىٰ الآداب ، وكان أفضل الكتب عنده «العقد الفريد» ، و«الأغاني» و«زهر الآداب» ودواوين المتنبي والبحتري ، وأفضل الكُتَّاب عبد الحميد وابن المقفع .
اتصل بالشيخ محمد عبده اتصالاً وثيقاً ، واستفاد من معارفه في الأدب والأخلاق والحكمة .
أعجب الناس بجمال إنشائه ، وسهولة تعبيره ، فجلسوا إليه يطالعون قصصه ومباحثه ، يقول بطرس البستاني: «وإذا كان للمنفلوطي من فضل، فإنه يعود علىٰ تلطيفه أذواق الكتاب الذين تلمذوا له في مصر خصوصاً ، وعلىٰ خروج أسلوبه من الجزالة القديمة إلىٰ النعومة الحديثة ، ومن السجع المصنوع إلىٰ المرسل المطبوع ، ومن القوالب التليدة إلىٰ التعابير الطريفة» .
وكتابه «النظرات» في ثلاثة أجزاء هو أسبوعياته التي كان يكتبها في جريدة «المؤيد» تحت عنوان «النظرات» ، ومن مؤلفاته الأخرىٰ «في سبيل التاج» ، «العبرات» ، «مجدولين» ، و«مختارات المنفلوطي» .

(٢) الفضول : بقايا وآثار .

(٣) الخليط : الصاحب الزميل ، ج : خلطاء .

(٤) السَّجير : الصديق ، الترب ج : سُجَرَاء .

هذا التعريف الحقيقة العرفية ولو شاؤوا لأضافوا إلى كذبِ الأقوال كَذِبَ الأفعال.

لا فَرقَ بين كذبِ الأقوال وكذب الأفعال في تضليل العقول والعبثِ بالأهواء وخُذلان الحق واستعلاء الباطل عليه، ولا فرق بين أن يكذِبَ الرجل فيقول: إني ثقة أمين لا أخون ولا أغدر، فأقرضني مالاً أرده إليك، ثم لا يُؤديه بعد ذلك، وبين أن يأتيك بسُبحة يُهمهمُ[١] بها، فتنطق سبحته بما سكتَ عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفاء، فيخدعك في الثانية كما خدعك في الأولى، لا بل يستطيع كاذبُ الأفعال أن يخدعك ألفَ مرة قبل أن يخدعك كاذبُ الأقوال مرة واحدة، لأنه لا يكتفي بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته بيِّنة كاذبة من جميع حركاته وسكناته.

ليسَ الكذبُ شيئاً يستهان به، فهو رأس الشرور ورذيلة الرذائل، فكأنَّه أصل والرذائل فروع له، بل هو الرذائل نفسها، وإنما يأتي في أشكال مختلفة، ويتمثل في صور متنوعة.

المنافق كاذب لأنَّ لسَانه ينطق ما ليس في قلبه، والمتكبر كاذب لأنه يدَّعي لنفسه منزلة غير منزلته، والفاسق كاذب لأنه كذب في دعوى الإيمان ونقض ما عاهد الله عليه، والنَّمام كاذب لأنه لم يتق الله في فتنته فيتحرى الصدق في نميمته، والمتملِّق كاذب لأن ظاهره ينفعك وباطنه يلذعك.

لقد هان على الناس أمرُ الكذب حتّى إنك لتجد الرجل الصادق فتعرض على الناس أمرهُ وتُطرفهم[٢] بحديثه كأنك تَعرض عجائب المخلوقات، وتتحدث بخوارق العادات.

فويل للصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقةً مستقيمة، وويل له من صديق يخون العهد، ورفيق يكذب الوُدَّ، ومستشارٍ غير أمين، وجاهلٍ يفشي السر، وعالم يُحرف الكَلِم عن مواضعه، وشيخٍ يدعي الولاية كذباً،

---

(١) التَّهمْهم: التكلم بكلام خفي.

(٢) أطرف إطرافاً: أتحفَ.

وتاجر يغش في سلعته ، ويحنث في أيمانه ، وصحفي يتَّجر بعقول الأحرار ، كما يتَّجر النخَّاس[١] بالعبيد والإماء ، ويكذب على نفسه وعلى الناس في كل صباح ومساء.

(النظرات ج١)

(١) النَخَّاس : بياع الرقيق.

كلمات نصح للمسلمين

للشيخ شاه ولي الله الدهلوي[(١)]

وأقول للملوك: أيها الملوك! المرضيُّ عند الملأ الأعلى في هذا الزمان أن تَسلُّوا السيوف ثم لا تُغمدوها حتى يجعل الله فرقاناً بين المسلمين والمشركين، وحتى يَلحق مَردة الكفار والفُساق بضعفائهم لا يستطيعون

---

(١) الشاه ولي الله الدهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦ هـ).
هو حكيم الإسلام، والمجدد الديني والعلمي، أحمد ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي، تعلم العلم علىٰ والده، وقرأ «فاتحة الفراغ» وهو لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره، غادر إلىٰ الحجاز سنة ١١٤٣ هـ وتلقىٰ العلم من علمائها، وأسند الحديث عن الشيخ أبي طاهر المدني.
كان كاتباً قديراً بالعربية، سيَّال القلم مؤلفاً مجيداً، بعض كُتبه لم يُنسج علىٰ منوالها، وأحرز فيها قَصب السبق، خاصة «حجة الله البالغة» و«إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» الذي يقول فيه الشيخ فضل حق الخير آبادي الفيلسوفُ والشاعر الكبير: «إن الذي صنف هذا الكتاب لَبَحْرٌ زخَّار لا يرىٰ له ساحل».
كان رحمه الله عبقرياً فذاً، ونابغة من نوابغ الدهر، قلما يجود بمثله الزمان، كان فيلسوفاً سياسياً، ومتكلماً أصولياً، جامعاً بين العلوم الباطنة والعلوم الظاهرة، يقول الشيخ مرزا جانجانان الدهلوي العالم الجليل المعاصر للإمام الدهلوي: «له أسلوب خاص في تحقيق أسرار المعارف وغوامض العلوم، لم يوجد مثله في الصوفية المحققين الذين تكلموا بعلوم جديدة إلا رجال معدودون».
من مؤلفاته الشهيرة: «حجة الله البالغة»، «الفوز الكبير»، «رسالة الإنصاف»، «إزالة الخفاء»، «تحفة الموحدين»، «تأويل الأحاديث».
وكتاب «التفهيمات الإلهية» من أعظم تأليفاته النادرة وأجلها قدراً وأتمها نفعاً، يَبحث في العلوم الروحانية وحقيقة التصوف والإحسان ودرجاتها ومراتبها في ضوء الكتاب والسنة.

لأنفسهم شيئاً، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]. فإذا ظهر الفرقان فرضاء الملأ الأعلى أن تنصبوا في كل ناحية وفي كل مسيرةِ ثلاثة أيام وأربعة أيام أميراً عادلاً يأخذ للمظلوم حقه من الظالم، ويقيم الحدود، ويجتهد أن لا يحصل فيهم بغي ولا قتال ولا ارتداد ولا كبيرة، ويفشو الإسلام ويظهر شعائره، ويأخذ بفرائضه كل أحد، ويكون لأمير كل بلد شوكةٌ يقدر بها على إصلاح بلده، ولا يكون له شوكة يتمتع بسببها ويَعصى على السلطان، وينصب في كل إقليم كبير أميراً يُقَلده القتال فقط يكون جمعُه اثني عشر ألفاً من المجاهدين لا يخافون في الله لومة لائم، يقاتلون كل باغ وعاد، فإذا كان ذلك فرضاء الملأ الأعلى أن يُفتش حينئذ من النظامات المنزلية والعقود[1] ونحوهما حتى لا يكون شيء إلا موافق الشرع حتى يأمن الناس من كل وجه.

وأقول للأمراء: يا أيهاالأمراء أما تخافون الله؟ اشتغلتم باللذات الفانية الدائرة[2] وتركتم الرعية تأكل بعضها بعضاً، أما شُربت الخمور جهرةً وأنتم لا تُنكرون؟ أما بُنيت المنازل ودور للزنى وشرب الخمر والقمار وأنتم لا تغيرون؟ أما هي البلاد الكبيرة لم يُضرب فيها حد منذ ستمئة عام أو أكثر؟ من وجَدتموه ضعيفاً أكلتموه، ومن وَجدتموه قوياً تركتموه وعُتُوَّه، خاضتْ أفكاركم في لذائذ الطعام ونواعم النساء ومحاسن الثياب والدور، وما رفعتُم إلى الله رأساً، وما ذكرتموه إلا بألسنتكم في حكاياتكم، كأنكم تريدون باسم الله انقلاب الزمان، وتقولون: اللهُ قادر على كذا، تَعنون أن الزمان قد ينقلب كذلك.

وأقول لجماعات المسلمين خطاباً واحداً: يا معشر بني آدم رقدتم[3] عن أخلاقكم، وغلَب عليكم الشح واستحوذ عليكم الشيطان وزئرت[4] النساء

---

(١) العقود: العهود والمعاملات.
(٢) الدَّائرة: البالية.
(٣) رقد رُقوداً (ن): غَفل.
(٤) زَئِر وزَأَر زَئيراً (ف، س): أحدث صوتاً.

على الرجال ، وغمط[١] الرجال على النساء ، واستطبتم الحرام ، واستبشعتم[٢] الحلال ، فوالله إنَّ الله لا يكلف نفساً إلا ما تُطيق ، فلا تتكلَّفوا في نفقتكم وزيِّكم مما لا تطيقون ، ولا تُضيقوا الأمور على أنفسكم ، فإنكم إن ضيقتم خرجتْ نفوسكم إلى حد الصفْق[٣] ، وإن الله يُحب أن يؤخذ برخصه ، كما يحب أن يؤخذ بعزائمه ، وعالجوا شهوة بطونكم بالأطعمة ، واكتسبوا قدر ما يكفيكم ، ولا تكونوا كلاًّ على الناس تسألونهم فلا يُعطونكم ، ولا تكونوا كلاًّ على الخلفاء والأمراء ، إنما المرضيُّ لكم الكسب بأيديكم إلا عبداً ألهَمه الله أنَّ الله يكفيك ، واللهُ يعصمك من آفات الفقر.

يا معشر بني آدم مَن رزقه مسكناً يؤويه ، ومشرباً يَرويه ، ومطعماً يُشبعه ، وملبساً يستره ، ومَنكحاً يُحصّن فرجه ويُعاونه في معيشته ، فقد أدى له الدنيا بحذافيرها[٤] فليشكر الله وليتخذ كسباً يكفيه ، وليكن من شأنه القَناعة والقصد في المعيشة ، ولينتهز الفرصة لذِكر الله ، وليحافظ على ثلاثة أوقات : الغدوة والعشية والسحر ، وليذكرِ الله بالتهليل والتسبيح وتلاوة القرآن ، واستمعوا الحديث ، واحضروا حِلق الذكر.

(الشيخ ولي الله الدهلوي في «التفهيمات الإلهية»)

---

(١) غمطه غَمْطاً : احتقره وازدرىٰ به ، الحقَّ : جحده.

(٢) استبشع استبشاعاً : الشيء وجده . وأحسّ به قبيحاً.

(٣) الصفق ، صفُق صَفْقاً وصَفَاقة (ك) : وَقح.

(٤) الحِذْفار والحُذْفُور : الجانب يقال : «أخذه بحذافيره» أي بأسره وبجوانبه كلها.

محمد نبي الإله

للشاعر الجاهلي (الأعشى)[١]

ألا أيُّ هـذا السـائلي أيـن يممـتْ فإنَّ لها في أهل يثربَ مَوعدا[٢]

متى ما تُناخي عند بابِ ابن هاشمٍ تُراحي وتلقى من فواضله ندى[٣]

نبـي يـرى مـا لا تـرون وذكـره أغارَ لعمري في البلاد وأنجدا[٤]

---

(١) الأعشىٰ الأكبر (٦٢٩ م).

شاعر جاهلي ، أدرك الإسلام ، وُلد في «منفوحة» باليمامة ، لُقب بالأعشىٰ لسوء بصره ، وقد كنَّاه معاصروه بأبي بصير إعجاباً بقوة بصيرته ، أو تفاؤلاً بالشفاء ، أجمع الأدباء علىٰ تلقيبه «بصَنَّاجة العرب» لِمتَانةِ شعره وموسيقاه ، قضىٰ حياته ينتجع بشعره أقاصي البلاد سائلاً مكتسباً ، قيل إنه وفد علىٰ ملوك فارس ، وجال في أنحاء الجزيرة العربية ، فالبلاد المجاورة لفارس والحبشة ، وقد كان يوافي سوقَ عكاظ في كل سنة.

له ديوان كبير أكثره في المدح مع شيء من الغزل والخمريات جمعه وشَرحه أبو العباس ثعلب ، وأشهرُ قصائده «اللامية» التي يَعدها التبريزي من «القصائد العشر».

أما منزلته بين الشعراء ، فقد وضعه ابن سلاَّم في الطبقة الأولىٰ بعد امرىء القيس والنابغة وزهير ، وسُئل عمرو بن العلاء عنه وعن لبيد فقال: «لبيد رجل صالح ، والأعشىٰ رجل شاعر» وقال المفضل الضبي «من زعم أن أحداً أشعر من الأعشىٰ ، فليس يعرف الشعر»وسئل حماد الراوية من أشعر الناس؟ فقال : «ذاك الأعشىٰ صَنَّاجها».

(٢) يمم تيميماً: قصد ، اتجه.

(٣) تُناخي (مجهول) ، أناخ الجمل إناخة : أبركه.

تراحي ، (مجهول) ، أراح الإبل إراحة : ردها إلىٰ المراح أي مأواها.

النَّـدَىٰ : الجود.

(٤) أغار : بلغ الغَورَ (ما انخفض من الأرض) ، أنجد: بلغ النَّجْدَ (ما ارتفع من الأرض).

لـه صـدقـات مـا تَغـبُّ ونَـائـل ... وليـس عطـاء اليـوم مـانِعُـه غـدا[١]
أجدَّك لـم تسمـع وُصـاة محمـدٍ ... نبـي الإلـه حيـثُ أوصـى وأشهـدا
إذا أنتَ لم تَرحل بزادٍ من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تَزودا
نَـدمـت علـى أن لا تكـون كمثلـه ... فترصُد للموت الذي كان أرصدا[٢]
فـإيـاك والمَيتـات لا تقـربنَّهـا ... ولا تأخذن سَهْماً حديداً لتفصدا[٣]
ولا النُّصـب المنصـوب لا تنسُكنّـه ... ولا تَعبـد الأوثان واللهَ فاعبدا[٤]
وذا الـرحـم القُـربـى فـلا تقطعنَّـه ... لعـاقبـةٍ ولا الأسيـر المقيّـدا[٥]
وسبّح على حين العشيات والضُّحى ... ولا تحمـدِ الشيطـان واللهَ فـاحمـدا
ولا تسخرن من بائس ذي ضراعة[٦] ... ولا تحسبـن المـال للمـرءِ مُخلـدا

(سيرة ابن هشام ج١)

---

(١) أغبَّ القوم: جاءهم يوماً وتركهم يوماً.
(٢) أرصد إرصاداً: أعدَّ.
(٣) لتفصد: لترمي به وتقتل. فصد فَصْداً وفِصَاداً (ض): شقَّ العِرق.
الحديد: الحاد.
(٤) النُّصْب: ما عُبد من دون الله من الأصنام والتماثيل ج: أنصاب، لا تنسكن: نسك نسكاً (ن): عبد، ذبح وتطوع بقربة.
(٥) ذو الرحم القربى: صاحب القرابة القريبة.
(٦) الضراعة: الذلة والخضوع.

مدينةُ الزَّهراء

للدكتور مصطفى السباعي[١]

كانتْ قُرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي عاصمةَ الأندلس المسلمة ، تُنار بالمصابيح ليلاً ويستضيء الماشي بِسَرْجها عشرة أميال لا ينقطع عنه الضوء (أي ستة عشر كيلو متراً) أزِقَّتها مُبلَّطة ، وقُماماتها مرفوعة من الشوارع ، مُحاطة بالحدائق الغناء ، حتى كان القادم إليها يتنزَّه ساعات في الرياض والبساتين قبل أن يصل إليها ، كان سُكانها أكثرَ من مليون نسمة (في ذلك العصر الذي لم تكن فيه أكبر مدينة في أوروبا تزيد عن خمسةِ

---

(١) الدكتور مصطفىٰ السباعي : هو العالم المجاهد ، الزعيم القائد ، الخطيب البارع ، صاحب الكتاب المشهور «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» الذي هو أقوىٰ ما كتب في هذا الباب.

ولد في مدينة حمص «سورية» ، تلقىٰ العلوم البدائية ، والتحق بالأزهر ، ونال شهادة الدكتوراه عام ١٣٦٩ هـ ، تولىٰ التدريس في المعهد العربي الإسلامي والجامعة السورية بدمشق ، وتسلم عمادة كلية الشريعة ، وكان أستاذ الحقوق في جامعة دمشق.

يتَّصف أسلوبه بالصبغة العلمية ، والرشاقة والسهولة ، في عبارة فصيحة وقوية ، يَغلب عليه الطابع الدعوي ، شارك في الصحافة السورية الإسلامية بقسط وافر ، ومنها «المنار» و«الشهاب» و«المسلمون» و«حضارة الإسلام».

له مُساهمات مشكورة في الجهاد والإصلاح ومحاربة البدع ، يشهد له سماحة الشيخ الندوي بالنبوغ والفضل وطول الباع في الأدب والخطابة والجهاد حيث يقول: «له علم جم ، واطِّلاع واسع ، وبصر نافذ ، وقلم مترسل ، وأدب رفيع ، وأسلوب مطبوع ، ومن خطباء الشرق العربي المعدودين ، والمجاهِد عملياً في حرب فلسطين» من مؤلفاته الشهيرة: «المرأة بين الفقه والقانون» ، «السيرة النبوية» و«السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» ، «من روائع حضارتنا» ، «الدين والدولة في الإسلام» ، و«الاستشراق والمستشرقون»

وعشرين ألفاً) وكانت حمَّاماتها تسعمئة حمام وبيوتها ٢٨٣٠٠٠ بيت ، وقُصورها ثمانون ألفَ قصر ، ومساجدها ستمئة مسجد ، وكانت استدارتها ثمانية فراسخ(أي ثلاثين ألف ذراع) كان كل من فيها متعلِّماً ، وكان في رَبَضها[١] الشرقي مئة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي ، هذا في ناحية واحدة من نواحيها ، وكان فيها ٨٠ مدرسة يتعلم فيها الفقراء مجاناً ، وخمسون مستشفى ، وأما مسجدها فكان ولاتزال آثاره حتى اليوم آية خالدة في الفن والإبداع ، وكان ارتفاع مئذنته أربعين ذراعاً تقوم قُبته الهيفاء[٢] على روافد من الخشب المحفور[٣] وتستند إلى ١٠٩٣ من الأعمدة المصنوعة من مُختلف الرخام على شكلِ رُقعةِ[٤] الشطرنج ، فيتألَّف منها تسعة عشر صحناً طولاً ، وثمانية وثلاثون صحناً عرضاً وكان يضاء في الليل بأربعة آلاف وسبعمئة مصباح تستنفد في كل سنة ٢٤ ألف رطل من الزيت ، وترى في وجهه الجنوبي تسعة عشر بَاباً مصفحاً بصفائح[٥] برونزية[٦] عجيبة الصنع ، خلا البابِ الوسط الذي كان مصفحاً بألواح من الذهب ، وترى في كلٍّ من وَجهه الشرقي والغربي تسعة أبواب مشابهة لتلك الأبواب ، أما محرابهُ فحسبُك أن يقول فيه مؤرخو الفرنج «إنه أجملُ ما تقع عليه عينُ بشر ، إنه لايُرى أحسن من زُخرفه وسنائه في أي أثر قديم أو حديث» .

وقد ألحق بقرطبة بناء الزهراء الخالد في التاريخ بفنه وروعته ، حتى قال فيه المؤرخ التركي ضيا باشا : «إنه كان أعجوبة الدهر التي لم يَخطر مثل خيالها في ذهن بنَّاء منذ برأ الله الكون ، ولا تمثَّل رسم كرسمها في عقل مهندس منذ وُجدت العقول» كانت قِبابه تقوم على ٤٣١٦ عمود من أنواع

---

(١) الرَّبَض : ما حول المدينة من بيوت ومساكن ، ج : أرباض .
(٢) الهَيْفاء : التي رق وَسَطها .
(٣) المحفور : المنقوش .
(٤) الرُّقعة : اللوح الذي تُصَفُّ عليه أدوات الشطرنج .
(٥) الصفيحة : لوح الباب ، ج : صفائح .
(٦) البرونْز : خليط من النحاس والقصدير (معدن أبيض فضي طري) .

الرخام المنقوش نقشاً متساوياً ، وكانت أرضُه مبلَّطة بقطَع من الرخام ذي الألوان المختلفة على شكل جميل ، وكانت جُدره مصفحة بألواح لازَوَرْديّة[١] ذهبية ، وفي رُدهاته[٢] عيونُ ماءٍ عذب يَنصب ويَغيب في أحواضٍ من الرخام الأبيض مختلفةِ الأشكالِ إلى أن ينتهي إلى بركة في ردهة الخليفة ، وكانت تُرى في وسط البركة إوزة[٣] من ذهب مُعلَّقة في رأسها لؤلؤة وفي مياهها من صنوف الأسماك والحيتان الألوفُ الكثيرة حتى كان عدد ما يرمى لها من الخبز كل يوم اثني عشر ألف رغيف.

وفي الزهراء المجلس المسمى(قصر الخلافة) وكان سقفه وحيطانه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه ، المتلون أجناسه ، وفي وسطه حوض عظيم مملوء بالزئبق[٤] وفي كل جانب من جوانب المجلس ثمانيةُ أبواب على حَنايا[٥] من العاج[٦] والآبَنوس[٧] المرصَّع بالذهب وأصنافِ الجوهر ، قامت على سوار من الرخام الملون والبلور[٨] الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار ، وكان الناصر إذا أراد أن يُفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ إلى أحد مواليه فيُحرك ذلك الزئبق ، فيظهرُ في المجلس كلمَعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يُخيل لكل مَن في المجلس أن المحلَّ قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك ، وكانت تُحيط بالقصر حدائق غناء ، وميادين واسعة الأرجاء ، ومن وراء ذلك سور عظيم يحيط

---

(١) اللاَّزَوَرْد : معدن مشهور يتولد بجبال فارس وأرمينيا ، أجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلىٰ حُمرة وخضرة.

(٢) الرَّدْهة : أوسعُ محل في البيت ، ج : رِدَاهٌ ورُدَه ورَدَهات.

(٣) الإوَزَّة : طائر مائي.

(٤) الزِّئبق : معدن سائل يستعمل في موازين الحرارة وغيرها ، وهي بالفارسية «سيماب».

(٥) الحَنِيَّةُ : القوس ، ج : حنايا وحَنِيّ.

(٦) العاج : أنياب الفيل.

(٧) أبنوس : نوع من الشجر يوجد في البلدان الحارة ، خَشَبُه ثمين ، أسودُ اللون ، صلب العود للغاية.

(٨) البِلَّورُ : نوع من الزجاج ، جوهر أبيض شفاف.

بهذا البناء العجيب فيه ثلاثمئة بُرج حربي ، وكانت الزهراء تحتوي على دُورالخليفة والأمراء والحريم ، وقاعات كبرى لجلوس الملك في مكان خاص أطلق عليه السطح الممرد ، كانت له قُبة قراميدها[١] من ذهب وفضة ، ولكن القاضي منذر بن سعيد أنكر على الخليفة فعله هذا في حشد هائل بجامع قرطبة فنقضها ، وأعاد بناءها من لَبِنٍ.

الدكتور مصطفى السباعي
(من روائع حضارتنا)

(١) القِرْميد: الآجُرّ ، ج: قَرامِيد.

الفهرس